ر. د. لانج

الذات المنقسمة

دراسة وجودية في العقل والجنون

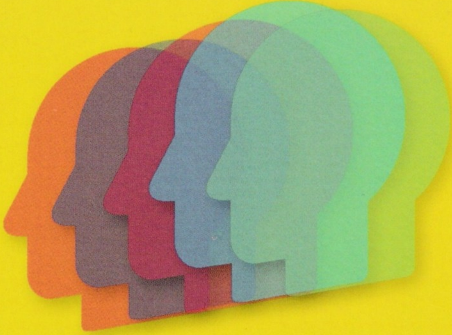

تعرف على تجربة شبح حديقة الأعشاب
تعــرف على الذات والذات الزائفــة
ما هي أســس علم الشخصــية؟
ما هي أســس فهـم الذهــان؟
كيف يكـون انعــدام الأمـــان؟

مكتبة ١٢٣٧

آفاق

ترجمة: عبد المقصود عبد الكريم

إهداء لـ ..
من جاء منقسما
بين الهيكا والنرجس

مكتبة | ١٢٣٧

الذات المنقسمة

ر. د. لانج

◆ المؤلف: ر. د. لانج
◆ العنوان: الذات المنقسمة - دراسة وجودية في العقل والجنون
◆ ترجمة: عبد المقصود عبد الكريم
◆ الطبعة الأولى 2023
◆ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
◆ مستشار النشر: سوسن بشير
◆ المدير العام: مصطفى الشيخ

آفاق للنشر والتوزيع
AFAQ BOOKS

رقم الإيداع:
٢٠٢٢ / ١٤٣٧٣
الترقيم الدولي : ISBN
978-977-765-340-4

مكتبة ٢٠٢٣٩٢
t.me/soramnqraa

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com
١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

ر. د. لانج

الذات المنقسمة

دراسة وجودية في العقل والجنون

ترجمة
عبد المقصود عبد الكريم

مكتبة | ١٢٣٧

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

لانج، ر. د.

الذات المنقسمة - دراسة وجودية في العقل والجنون

ترجمة: عبد المقصود عبد الكريم

ط1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2023

304 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 14373 / 2022

الترقيم الدولي 4 - 340 - 765 - 977 - 978

1 - صوفية

2 - العنوان

هذه ترجمة كتاب:

The Divided Self: An Existential Study in Sanity and Madness

By: Ronald David Laing

© RD Laing Estate [1960]

All rights reserved.

جميع الحقوق محفوظة

© آفاق للنشر والتوزيع

All rights reserved

© **Afaq** *Publishing House* 2023

إلى أمي وأبي

المحتويات

إلى أمي وأبي	٥
كلمة المترجم	٩
تصدير الطبعة الأصلية	١٢
تصدير طبعة بيليكان	١٥
كلمة شكر وتقدير	١٨
الجزء الأول	٢١
الأسس الفينومينولوجية الوجودية لعلم الشخصية	٢٣
العلاقة مع المريض باعتباره شخصًا أو باعتباره شيئًا	٣٥
الأسس الفينومينولوجية الوجودية لفهم الذهان	٣٨
التفسير بوصفه وظيفة من وظائف العلاقة مع المريض	٤٤
انعدام الأمان الأنطولوجي	٥٥
الجزء الثاني	٨٩
الذات المجسدة وغير المجسدة	٩١
الذات المجسدة وغير المجسدة	٩٢
الذات غير المجسدة	٩٦

حالة «بينية» – ديفيد ٩٧

الذات الداخلية في الحالة شبه الفصامية ١١٠

نظام الذات الزائفة ١٣٣

الانشغال بالذات ١٤٩

حالة بيتر ١٧٠

الذنب الحقيقي والزائف ١٨٤

الجزء الثالث ١٩١

التطورات الذهانية ١٩٣

الذات والذات الزائفة في حالة فصامٍ ٢٢٦

شبح حديقة الأعشاب ٢٥٣

دراسة لحالة فصامٍ مزمنٍ ٢٥٣

سيرة إكلينيكية لمريضة فصام ٢٥٥

المرحلة الأولى: طفلة طبيعية طيبة ٢٦٠

II– المرحلة «السيئة» ٢٦٨

المرحلة الثالثة: الجنون ٢٧٦

شبح حديقة الأشباح ٢٧٧

المراجع ٢٩٥

كلمة المترجم[1]

وُلِد رونالد ديفيد لانج في جلاسجو، أكبر مدن إسكتلندا وثالث أكبر مدن المملكة المتحدة، في عام ١٩٢٧ وتخرَّج في كلية الطب جامعة جلاسجو. وهو أحد أشهر الأطباء النفسيين المعاصرين. وتتسع اهتمامات لانج التي يكتب فيها لتمتد بين الطب النفسي والنظريات الاجتماعية والشعر، بالإضافة إلى عددٍ هائلٍ من المقالات والمراجعات في المجلات العلمية. من مؤلفاته: **الذات المنقسمة** (١٩٦٠)، **والذات والآخر** (١٩٦١)، **والعقل والعنف** (١٩٦٤)، بالاشتراك مع د. ج. كوبر وكتب مقدمته جان بول سارتر، **والعقل والجنون والأسرة** (١٩٦٤)، **وسياسات الخبرة وطائر الجنة** (١٩٦٧)، **وسياسات الأسرة ومقالات أخرى** (١٩٧١)، **وحقائق الحياة** (١٩٧٦)، **وهل تحبني؟** (١٩٧٦)، **وحوارات مع آدم وناتاشا** (١٩٧٧)، **وسوناتات** (١٩٧٦)، **وصوت الخبرة** (١٩٨٢).

صدر كتاب **الذات المنقسمة: دراسة وجودية في العقل والجنون** *The Divided Self: An Existential Study in Sanity and Madness*، وهو أول كتب لانج، في عام ١٩٦٠، وهو لا يزال في مقتبل العمر، وقد نجح الكتاب في إثارة الشك حول الكثير من نظريات الطب النفسي

(١) اعتمدتُ في هذه الكلمة على كلمتي في تقديم الطبعة الأولى من ترجمتي لكتاب لانج: الحكمة والجنون والحماقة، سلسلة الألف كتاب الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٩٦).

وممارساته، وخاصة فيما يتعلق بثنائية العقل والجنون، وكان الكتاب علامة فارقة في تاريخ الطب النفسي. ولم يكن لانج أول العلماء الذين انقلبوا على النموذج السائد في العلوم التي درسوها بغية تطويرها وتوسيع مجال الرؤية فيها، ولن يكون آخرهم.

ويمكن أن أضيف أنني تعرَّفت على لانج وأنا في مقتبل حياتي العملية، وكنت في وضعٍ ذهني لا يختلف كثيرًا عن وضع لانج، وقد وقفتُ متشكِّكًا أمام الكثير مما تحتويه الكتب الدراسية في الطب النفسي، وأظن أنني وجدتُ في لانج ما يؤجِّج شكوكي، وما يهدي حيرتي في الوقت نفسه. باختصار، لم ألتقِ بهذا الرفيق في الحياة، لكنني أشعر منذ زمن بعيد أنه أحد الأصدقاء المقربين، وربما هذا ما دفعني إلى ترجمة سيرته الذاتية، الحكمة والجنون والحماقة، في أوائل التسعينيات.

وتصبح ثنائية العقل- الجنون التي يتأسَّس عليها الطب النفسي، إلى حدٍّ بعيد، موضعَ شكٍّ، ولا يجب أن نعجب حين نعرف أن ميشيل فوكو كان يسيطر عليه سؤالٌ حتى الهوس: «هل هناك حدود فاصلة بين الجنون والعقل أم أن الجنون من جنس العقل والعقل من جنس الجنون؟ ونراه يرفض لغة العقل وإمبرياليته، ويرفض تدجين العقل لظاهرة الجنون. إنه يريد إعطاء هؤلاء المستبعدين المهمَّشين حق الكلام والوجود، ويريد إخراجهم من عزلتهم المريرة التي سجنهم فيها الطب النفسي والمجتمع البرجوازي الواثق بنفسه وقيمه حد الغرور.[١]

---

(١) - هاشم صالح، فيلسوف القاعة الثامنة، مجلة الكرمل، العدد ١٣، ص ٤٩ - ٥٠.

ولكن، لماذا الكلام عن فوكو إذا كنَّا نريد الكلام عن لانج؟ والجواب: ربما ما يريده لانج لا يختلف كثيرًا عمَّا يريده فوكو، بل ربما يكتسب أبعادًا أخطر إذا عرفنا أنَّ لانج أستاذٌ للطب النفسي، أي أنه يشهد عليه من داخله، أو أنه شاهدٌ من أهله. إنه ينتقد الكثيرَ من تصنيفات الطب النفسي ونظرياته وممارساته ويحاول تقديم رؤية بديلة، رؤية مضادة للنظرة السائدة في الطب النفسي المعاصر، ومن ثَمَّ لن يكون غريبًا إذا عرفنا أنه أول طبيب نفسي أطلق عليه اسم **طبيب نفسي مضاد** *anti-psychiatrist*.

مكتبة
t.me/soramnqraa

تصدير الطبعة الأصلية

هذه هي الدراسة الأولى من سلسلة دراسات في علم النفس الوجودي والطب النفسي، حيث يفترض أن يقدم عددٌ من المؤلفين مساهماتٍ أصلية في هذا المجال.

وهذا الكتاب دراسة عن شبه الفصاميين schizoid ومرضى الفصام، هدفه الأساسي تقديم صورة مفهومة للجنون والعملية التي تؤدي إلى الإصابة بالجنون. وللقراء أن يحكموا بأشكالٍ مختلفة على نجاح هذا الهدف أو فشله. ومع ذلك، أود عدم الحكم على الكتاب بما لا يحاول القيام به. تحديدًا، لا أحاول بأي شكلٍ تقديم نظرية شاملة للفصام. لا أحاول بأي شكلٍ استكشاف الجوانب البنيوية والعضوية. لا أحاول بأي شكلٍ وصف علاقتي بهؤلاء المرضى، أو الطريقة التي أعالجهم بها.

والغرض الآخر تقديم وصفٍ بلغة إنجليزية بسيطة، من منظورٍ وجودي، لبعض أشكال الجنون، وأعتقد أنه الكتاب الأول من نوعه في هذا المجال. سيجد معظم القراء بعض المصطلحات المستخدمة بشكلٍ غريبٍ في الفصول القليلة الأولى. ومع ذلك، فقد فكرتُ طويلًا قبل استخدام أي مصطلح من هذا القبيل، ولم أستخدمه إلا حين شعرتُ بأنني مضطرٌّ إلى استخدامه.

هنا مرة أخرى، قد يؤدي بيانٌ موجزٌ حول ما لم أحاول القيام به إلى تجنُّب سوء الفهم. يرى القارئ المتمرس في الأدب الوجودي والفينومينولوجي أن هذه الدراسة ليست تطبيقًا مباشرًا لأي فلسفة وجودية راسخة. هناك نقاط اختلافٍ مهمة عن أعمال كيركجارد Kierkegaard وياسبرز Jaspers وهايدجر Heidegger وسارتر Sartre وبينسوانجر Binswanger وتيليش Tillich، على سبيل المثال.

وكانت أي مناقشة لنقاط الالتقاء والاختلاف بأي تفصيلٍ ستبعدني عن المهمة الحالية، لمثل هذه المناقشات موضعٌ آخر. ومع ذلك، أقرُّ بديوني الفكرية الأساسية للتراث الوجودي.

أودُّ هنا أن أعبر عن امتناني للمرضى الذين كتبتُ عنهم في الصفحات التالية ولآبائهم. كل مَن أشرتُ إليه بأي قدرٍ وافق عن طيب خاطرٍ على نشر هذه المادة. غيرْتُ الأسماء والأماكن وجميع تفاصيل التعريف، لكن يمكن للقارئ أن يطمئن إلى أنه لا يقرأ رواية من وحي الخيال.

أود أن أسجل امتناني للدكتور أنجوس ماكنيفن MacNiven والبروفيسور ت. فيرجسون رودجر Rodger على التسهيلات التي قدَّماها إليَّ في الأساس الإكلينيكي لهذه الدراسة وعلى تشجيعهما لي.

اكتمل العمل الإكلينيكي الذي تستند إليه هذه الدراسات قبل عام ١٩٥٦، أي قبل أن أصبح طبيبًا مساعدًا في عيادة تافيستوك، حين قدم الدكتور ج. د. ساذرلاند Sutherland مساعدة سخية في إعداد المخطوطة النهائية. منذ اكتمال الكتاب في عام ١٩٥٧، قرأه أشخاصٌ

كثيرون، وتلقيتُ الكثيرَ من التشجيع والنقد المفيد من عددٍ أكبر من أن أستطيع سرده بسهولة. أود أن أشكر بشكلٍ خاص الدكتور كارل أبنهايمر Abenheimer، ومسز ماريون ملنر Milner، والبروفيسور تي فيرجسون رودجر، والبروفيسور ج. رومانو Romano، والدكتور تشارلز ريكروفت Rycroft، والدكتور ج. شورستين Schorstein، والدكتور ج. د. ساذرلاند، والدكتور د. و. وينيكوت[1] على «ردود أفعالهم» البنَّاءة تجاه مرض التصلُّب العصبي المتعدد MS.

ر. د. لانج

---

(١) دونالد ودز وينيكوت Winnicott (١٨٩٦-١٩٧١): طبيب أطفال ومحلل نفسي إنجليزي، كان رئيسًا لجمعية التحليل النفسي في بريطانيا (المترجم).

تصدير طبعة بيليكان[1]

لا يمكن للمرء أن يقول كلَّ شيء دفعة واحدة. كتبتُ هذا الكتاب وأنا في الثامنة والعشرين، أردتُ أن أقول بداية إنه يمكن فَهْم من يُشخَّصون بأنهم مرضى ذهان بدرجة أكبر بكثيرٍ مما يُفترض عمومًا. ورغم أن هذا يستلزم فهم السياق الاجتماعي، وخاصة وضع السُّلْطة داخل الأسرة، فإنني أشعر اليوم أنه حتى في التركيز على نوعٍ معينٍ من الوجود شبه الفصامي ومحاولة تحديده، كنتُ بالفعل أقع جزئيًّا في الفخ الذي أحاول تجنُّبه. لكن يبقى أنني أكتب في هذا الكتاب الكثير جدًّا **عنهم**، والقليل جدًّا **عنَّا**.

أصرَّ فرويد على أن حضارتنا قمعية؛ هناك صراعٌ بين مطالب الانصياع ومتطلبات طاقاتنا الغريزية، الجنسية بوضوحٍ. ولم يستطع فرويد التوصُّل إلى حل سهل لهذا التضاد، واعتقد أن إمكانية الحب الطبيعي البسيط بين البشر قد انتهتْ، في عصرنا، بالفعل.

لا تقمع حضارتُنا «الغرائز» وحدها، ولا النشاط الجنسي وحده، لكنها تقمع كلَّ أشكال التسامي. وليس من المستغرب، بين البشر ذوي

---

(١) طبعة تصدر عن دار بنجوين، بأغلفة ورقية رخيصة، تتناول موضوعات أكاديمية، تهدف إلى الوصول إلى جمهورٍ واسعٍ، بدأت في الأصل من ١٩٣٧ إلى ١٩٨٤، وبدأت تصدر مرة أخرى في أبريل ٢٠١٤، وهي الطبعة التي أترجم عنها (المترجم).

البعد الواحد،[١] أن يواجه شخصٌ يشعر بخبرة ملحة ذات أبعاد أخرى، خبرة لا يمكنه إنكارها أو نسيانها تمامًا- خطرَ أن يدمره الآخرون، أو يخون ما يعرفه.

في سياق جنوننا الحالي المنتشـر، الذي نسميه الحياة الطبيعية والعقل والحرية، تأتي كلُّ أطرنا المرجعية مبهمة وملتبسة.

إن الإنسان الذي يفضِّل الموت على أن يكون شيوعيًّا يعتبر طبيعيًّا. والإنسان الذي يقول إنه فقد روحه مجنونٌ. والإنسان الذي يقول إن البشر آلات قد يكون عالِمًا عظيمًا. والإنسان الذي يقول إنه آلة يكون «مموَّه الشخصية depersonalized»[٢] برطانة الطب النفسـي. والإنسان الذي يقول إن الزنوج عرقٌ أدنى قد يحظى باحترامٍ واسع. والإنسان الذي يقول إن بياضه شكلٌ من أشكال السرطان مصدَّقٌ.

أخبرتني فتاة صغيرة في السابعة عشـرة من عمرها في مستشفى للأمراض النفسية أنها في حالة ذعرٍ لأن القنبلة الذرية داخلها. إنه هذاء.[٣] إن رجال الدولة في العالم الذين يتفاخرون ويهددون بامتلاكهم أسلحة تنهي العالم أكثر خطورة بكثيرٍ، وأكثر ابتعادًا عن «الواقع» من

(١) انظر الكتاب الصادر مؤخرًا، هربرت ماركوز، الإنسان ذو البعد الواحد One-Dimensional Man, Beacon Press, 1964 [والكتاب ترجمه إلى العربية جورج طرابيشي، وصدرت الترجمة عن دار الآداب، الطبعة الثالثة ١٩٨٨ (المترجم)].

(٢) تموُّه الشخصية: في أبسط التعريفات حالة يشعر فيها الفرد بأن أفكاره ومشاعره غير واقعية أو لا تخصُّه، وهو عرضٌ يظهر في بعض الأمراض، وحده أو مصحوبًا بتموه الواقع، أي بشعور بأن الواقع ليس واقعًا (المترجم).

(٣) الهذاء delusion: في أبسط تعريفاته اعتقادٌ خاطئ، لا يتزحزح أمام كل البراهين على خطئه، وهو من الأعراض البارزة في حالات الأمراض الذهانية (المترجم).

كثير من الأشخاص الذين يُلصَق بهم وصف «الذهاني».

كان يمكن أن يكون الطب النفسـي، وبعض الأطباء النفسيين، إلى جانب التسامي، والحرية الحقيقية، والنمو الإنساني الحقيقي. لكن الطب النفسي يمكن أن يكون بسهولة أسلوبًا لغسل الدماغ، لتحفيز السلوك الذي يُعدَّل بتعذيب (يفضل) أن يكون غير جارح. في أفضل الأماكن، حيث تُلغى سترات التقييد، وتُفتح الأبواب، ويُتخلى عن استئصال الفص الجبهي إلى حدٍّ كبيرٍ، ويمكن استبدالها بعملياتٍ جراحية أكثر دقة ومهدئات تضع قضبان المصحات النفسية والأبواب المقفلة داخل المريض. وبالتالي أود التأكيد على أن حالتنا «الطبيعية» «المعدلة» غالبًا ما تكون تخليًا عن النشوة، وخيانة لإمكاناتنا الحقيقية، وأن الكثير منَّا لا ينجح إلا في اكتساب ذات زائفة للتكيُّف مع حقائق زائفة.

لكن لنترك الأمر كما كان. كان هذا عملًا لشاب عجوز. إذا كنت قد كبرت، فأنا الآن أصغر أيضًا.

لندن، سبتمبر ١٩٦٤

مكتبة
t.me/soramnqraa

كلمة شكر وتقدير

شكرًا لِمدارد بوس[1] مؤلف كتاب **معنى الانحرافات الجنسية ومحتواها** *Meaning and Content of Sexual Perversions*، ودار جرون وستراتون للنشر للحصول على إذن بالاقتباس من الكتاب؛ ودار جورج ألين وأونوين للنشر على كتاب **فينومينولوجيا العقل** *The Phenomenology of Mind*، لهيجل، ترجمة ج. ب. بيلي، ودار بيليير وتيندال وكوكس على كتاب **محاضرات في الطب النفسي الإكلينيكي** *Lectures on Clinical Psychiatry*، تأليف إميل كريبلين Kraepelin، ودار هوجرت للنشر ومعهد التحليل النفسي على كتاب **ما وراء مبدأ اللذة** *Beyond the Pleasure Principle*، لسيجموند فرويد، من **الأعمال النفسية الكاملة لسيجموند فرويد**، المجلد ١٨، ودار ريدر وشركاه، لندن، على كتاب **تحليل الأحلام** *The Analysis of Dreams*، لِمدارد بوس، **وسيكولوجيا الخيال** *The Psychology of Imagination*، لجان بول سارتر، ودار مارتن سيكر وواربرج على كتاب **الذات المعارضة** *The Opposing Self*، لليونيل تريلينج Trilling.

(١) بوس Boss (١٩٠٤-١٩٩٠): طبيب نفسي سويسري، طوّر شكلاً من أشكال العلاج النفسي المعروف باسم تحليل الوجود Daseinsanalysis، وحد ممارسة العلاج التحليلي والفلسفة الفينومينولوجية لصديقه ومعلمه مارتن هايدجر (المترجم).

ويودُّ المؤلف أن يشكر الدكتور م. ل. هيوارد والدكتور ج. إ. تايلور على كرمهما في الإذن لي بالاقتباس بإسهابٍ في الفصل العاشر من بحثهما «مريضة فصام تصف عمل العلاج النفسي المكثَّف»، الذي ظهر في **فصلية الطب النفسي** *Psychiatric Quarterly*، ٣٠، ٢١١-٢٦٦.

أقدِّم هنا عملًا ذاتيًّا، لكن العمل يميل بكل قواه نحو الموضوعية.

إ. مينكوفسكي(١)

(١) الاقتباس بالفرنسية في الأصل. إ. مينكوفسكي Minkowski (١٨٨٥-١٩٧٢): طبيب نفسي فرنسي من أصول بولندية، اشتهر بإدماج الفينومينولوجيا في السيكوباثولوجيا (المترجم).

الجزء الأول

١

الأسس الفينومينولوجية الوجودية لعلم الشخصية

يشير مصطلح شبه الفصامي إلى الفرد الذي ينقسم مجمل خبرته بطريقتين رئيسيتين: أولًا، بصدعٍ في علاقته بعالمه، وثانيًا، باضطرابٍ في علاقته مع نفسه. ولا يشعر مثل هذا الشخص أنه «مندمجٌ مع» الآخرين أو أنه «يألف» العالم، لكنه، على العكس، يشعر بأنه في حالة وحدة وعزلة تبعث على اليأس. بالإضافة إلى أنه لا يشعر بأنه شخصٌ كاملٌ، بل «منقسمٌ» بطرق مختلفة، وربما بأنه عقلٌ يرتبط ارتباطًا وثيقًا إلى حدٍّ ما بجسدٍ، بأنه ذاتان أو أكثر، إلخ. يحاول هذا الكتاب تقديم سرد وجودي فينومينولوجي لبعض الأشخاص شبه الفصاميين وبعض الفصاميين. وقبل البدء في هذا السرد، من الضروري مقارنة هذه المقاربة بالطب النفسي الإكلينيكي والسيكوباثولوجيا الرسميين.

تحاول الفينومينولوجيا الوجودية وصفَ طبيعة خبرة الشخص بعالمه ونفسه. وهي لا تحاول وصف أشياء معينة من خبرته بقدر ما تحاول وضع كل الخبرات الخاصة في سياق مجمل وجوده في عالمه. وتبقى الأشياء المجنونة التي يقولها ويفعلها مريض الفصام في الأساس

كتابًا مغلقًا إذا لم نفهم سياقها الوجودي. في وصف طريقة من طرق الجنون، أحاول إظهار أن هناك انتقالًا مفهومًا من الطريقة شبه الفصامية العاقلة لكيان في العالم إلى طريقة ذهانية لكيان في العالم. وعلى الرغم من الحفاظ على مصطلحي **شبه الفصامي** *schizoid* و**الفصامي** *schizophrenic* لوصف الوضعين العاقل والذهاني على التوالي، فإنني لن أستخدم هذين المصطلحين في الإطار المرجعي المعتاد للطب النفسي الإكلينيكي، بل من المنظورين الفينومينولوجي والوجودي.

وتضيق البؤرة الإكلينيكية بحيث لا تشمل إلا بعض الطرق التي يكون بها المرء شبه فصامي أو يصاب بالفصام من بداية شبه فصامية. ومع ذلك، فإن سرد القضايا التي عايشها الأفراد الذين خضعوا للدراسة في الصفحات التالية يهدف إلى إثبات أن هذه القضايا لا يمكن استيعابها بأساليب الطب النفسي الإكلينيكي والسيكوباثولوجيا بالحالة التي تبدو عليها اليوم، لكنها، على العكس، تتطلب منهجًا وجوديًّا فينومينولوجيًّا لتوضيح ارتباطها الإنساني الحقيقي وتوضيح أهميتها.

في هذا الكتاب، ذهبتُ مباشرة قدر الإمكان إلى المرضى أنفسهم، وحافظتُ على الحد الأدنى من مناقشة القضايا التاريخية والنظرية والعملية التي أثيرت بشكلٍ خاص فيما يتعلق بالطب النفسي والتحليل النفسي. لم يُقدَّم الشكل الخاص للمأساة الإنسانية التي نواجهها هنا بما يكفي من الوضوح والجلاء. وقد شعرْتُ أن المهمة الوصفية المطلقة يجب أن تأتي قبل كل الاعتبارات الأخرى، وبالتالي هذا الفصل مصممٌ بحيث لا يقدم إلا بيانًا بالغ الإيجاز للتوجه الأساسي لهذا الكتاب المطلوب لتجنب

أسوأ الحالات الكارثية لسوء الفهم. ويتوجه في اتجاهين: يتوجه، من ناحية، إلى الأطباء النفسيين الذين يعرفون جيدًا نوع «الحالة» لكنهم قد يكونون غير معتادين على رؤية «الحالة» **باعتبارها شخصًا** كما توصف هنا. ويتوجه، من ناحية أخرى، إلى من هم يعرفون مثل هؤلاء الأشخاص أو يتعاطفون معهم لكنهم لم يقابلوهم باعتبارهم «مادة إكلينيكية»، ومن المحتم أنه سيكون غير مُرْضٍ إلى حدٍّ ما للطرفين.

بصفتي طبيبًا نفسيًّا، واجهتُ صعوبة كبيرة في البداية: كيف يمكن أن أذهب مباشرة إلى المرضى إذا كانت كلمات الطب النفسي الموجودة تحت تصرفي تبقي المريض على مسافة مني؟ كيف يمكن للمرء أن يبرهن على الارتباط الإنساني العام لحالة المريض وأهميته إذا كانت الكلمات التي على المرء أن يستخدمها مصممة خصيصًا لعزل معنى حياة المريض وحصره في كيان إكلينيكي معين؟ الاستياء من كلمات الطب النفسي والتحليل النفسي منتشرٌ إلى حدٍّ ما، وخاصة بين الذين يستخدمونها أكثر من غيرهم. ومن المعتقد على نطاقٍ واسعٍ أن كلمات الطب النفسي والتحليل النفسي من هذا النوع تفشل بطريقة ما في التعبير عمَّا «يعنيه المرء حقًّا». لكن افتراض أنه يمكن للمرء أن يقول شيئًا ويفكر في شيء آخر يمثِّل شكلًا من أشكال خداع الذات.

وبالتالي، من المناسب البدء بالنظر في بعض الكلمات المستخدمة. التفكير هو اللغة، كما قال فيتجنشتاين.(١) والمعجم التقني مجرد لغة

---

(١) لودفيج فيتجنشتاين Wittgenstein (١٨٨٩ - ١٩٥١) فيلسوف نمساوي بريطاني اهتمَّ أساسًا بالمنطق وفلسفة الرياضيات وفلسفة العقل وفلسفة اللغة (المترجم).

داخل لغة. إن النظر في هذا المعجم التقني يكون في الوقت نفسه محاولة لاكتشاف الحقيقة التي تكشفها الكلمات أو تخفيها.

إن أخطر اعتراض على المعجم التقني المستخدم حاليًّا لوصف المرضى النفسيين أنه يتكوَّن من كلماتٍ تقسم الإنسان لفظيًّا بطريقة مماثلة للانقسامات الوجودية التي نصفها هنا. لكن لا يمكن أن نقدم تفسيرًا مناسبًا للانقسامات الوجودية ما لم نتمكَّن من البدء من مفهوم الكل المتحد، ولا يوجد مثل هذا المفهوم، ولا يمكن التعبير عن أي مفهوم من هذا القبيل، في نظام اللغة الحالي في الطب النفسي أو التحليل النفسي.

تشير كلمات المعجم التقني الحالي إما إلى الإنسان بمعزلٍ عن الآخر والعالم، أي بوصفه كيانًا ليس أساسًا «فيما يتعلق» بالآخر ويعيش في عالم، وإما تشير خطأً إلى جوانب جوهرية لهذا الكيان المعزول. هذه الكلمات هي: العقل والجسد، النفس والبدن، السيكولوجي والفيزيائي، الشخصية، الذات، الكائن الحي. وهي كلها مصطلحاتٌ مجرَّدة. بدلًا من الرابط الأصلي بين أنا وأنت، نتناول إنسانًا منفردًا في عزلة ونفهم جوانبه المختلفة في «الأنا» و«الأنا العليا» و«الهو». يصبح الآخر كائنًا داخليًّا أو خارجيًّا أو اندماجًا بينهما. كيف يمكن أن نتحدث بشكلٍ مناسب عن العلاقة بيني وبينك من منظور تفاعل جهاز عقلي واحد مع جهاز آخر؟ وحتى، كيف يمكن للمرء أن يقول ما يعنيه إخفاء شيء ما عن نفسه أو خداع نفسه فيما يتعلق بالحواجز بين جزءٍ من جهاز عقلي وجزءٍ آخر؟ لا تواجه هذه الصعوبة الميتاسيكولوجيا[1] الفرويدية

(١) الميتاسيكولوجيا metapsychology: التخمينات المتعلقة بالعمليات العقلية والعلاقة بين العقل والجسد، بما يتجاوز ما يمكن دراسته تجريبيًّا (المترجم).

الكلاسيكية فحسب، بل تواجه أيضًا أي نظرية تبدأ بالإنسان أو جزء من الإنسان بعيدًا عن علاقته بالآخر الذي يعيش في عالمه. نعلم جميعًا من خبرتنا الشخصية أننا لا يمكن أن نكون أنفسنا إلا في عالمنا ومن خلاله، وهناك شعورٌ بأن عالمنا يموت معنا مع أن «العالم» يستمر من دوننا. وقد حاول الفكر الوجودي وحده مطابقة الخبرة الأصلية لذات المرء في علاقتها بالآخرين في عالم المرء بمصطلح يعكس بشكلٍ مناسبٍ هذه الكلية. وبالتالي يُنظَر، من الناحية الوجودية، إلى العياني على أنه كيان الإنسان، **كيانه في العالم**. ما لم نبدأ بمفهوم للإنسان في علاقته بالبشر ومن البداية «في» العالم، وما لم ندرك أن الإنسان لا يوجد من دون عالمه ولا يمكن لعالمه أن يعيش من دونه، نكون محكومين بأن نبدأ دراستنا للأشخاص شبه الفصاميين ومرضى الفصام بالانقسام اللفظي والتصوري الذي يتطابق مع الانقسام الكلي لشخص شبه فصامي في العالم. وبالإضافة إلى ذلك، تتوازى المهمة اللفظية والتصورية الثانوية المتمثلة في إعادة دمج الأجزاء والقطع المختلفة مع الجهود اليائسة التي يبذلها مريض الفصام لتوحيد ذاته المفككة والعالم معًا مرة أخرى. باختصارٍ، لدينا همبتي دمبتي[1] محطمٌ بالفعل ولا يمكن تجميعه مرة أخرى بأي عددٍ من الكلمات الموصولة أو المركبة: نفسية فيزيائية psychophysical، نفسية جسدية psychosomatic، نفسية بيولوجية psychobiological، نفسية باثولوجية psycho-pathological، نفسية اجتماعية psycho-social، إلخ، إلخ.

---

(١) همبتي دمبتي Humpty Dumpty: الشيء أو الشخص الذي لا يمكن إصلاحه بعد كسره (المترجم).

إذا كان الأمر كذلك، فقد تكون نظرة على كيفية نشأة هذه النظرية عن شبه الفصامي وثيقة الصلة بفهم خبرة شبه الفصامي. في القسم التالي، أستخدم منهجًا فينومينولوجيًّا لمحاولة الإجابة عن هذا السؤال.

يمكن رؤية كيان الإنسان (سأستخدم كلمة «كيان being» لاحقًا للإشارة ببساطة إلى **كل ما يمثِّل حقيقة الإنسان**) من وجهات نظر مختلفة، ويمكن أن نجعل جانبًا أو آخر محور الدراسة. تحديدًا، يمكن اعتبار الإنسان شخصًا أو شيئًا. الآن، حتى الشيء نفسه، من وجهة نظر مختلفة، يؤدي إلى وصفين مختلفين تمامًا، وتؤدي الأوصاف إلى نظريتين مختلفتين تمامًا، وتؤدي النظريتان إلى مجموعتين مختلفتين تمامًا من الإجراءات. تحدد الطريقة الأولية التي نرى بها الشيء كل تعاملاتنا اللاحقة معه. هيا نفكر في شكلٍ ملتبسٍ أو مبهمٍ:

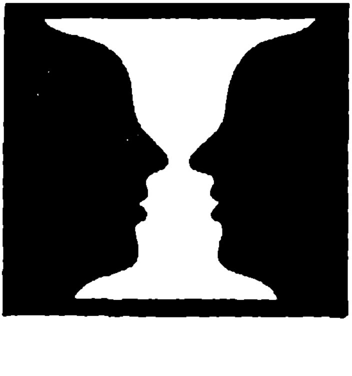

في هذا الشكل، يوجد شيءٌ واحدٌ على الورق يمكن أن نراه إناء أو وجهين يتجه كلٌّ منهما نحو الآخر. لا يوجد شيئان على الورق: يوجد

شيء واحد، ولكن بناء على كيفية تأثيره علينا يمكن أن نرى شيئين مختلفين. تختلف علاقة الأجزاء بالكل في شيء اختلافًا تامًّا عن علاقة الأجزاء بالكل في الآخر. إذا وصفنا أحد الوجهين المرئيين، فسوف نصِف، من أعلى إلى أسفل، الجبين والأنف والشفة العليا والفم والذقن والرقبة. ورغم أننا وصفنا الخط نفسه، الذي، إذا نظرنا إليه بشكلٍ مختلفٍ، يمكن أن يكون جانبًا من إناء، فإننا لا نصف جانبًا من مزهرية بل الخطوط العريضة لوجه.

الآن، إذا كنتَ جالسًا أمامي، يمكن أن أراكَ شخصًا آخر مثلي، ومن دون أن تغيِّر أي شيء أو تفعل أي شيء بشكلٍ مختلفٍ، يمكن الآن أن أراكَ نظامًا فيزيائيًّا كيميائيًّا معقَّدًا، ربما بخصائصه الخاصة لكنه كيميائي مع ذلك، وبهذه الرؤية، لم تعد شخصًا بل كائنًا حيًّا. إن الآخر، بالتعبير بلغة الفينومينولوجيا الوجودية، بقدر ما يعتبر شخصًا أو بقدر ما يعتبر كائنًا حيًّا، موضوع لأفعال مختلفة متعمدة. لا توجد ازدواجية في الموضوع، بمعنى التعايش بين جوهرين مختلفين أو مادتين مختلفتين، النفس والبدن؛ هناك نوعان مختلفان من الجشطالت[1] التجريبي: الشخص والكائن الحي.

تختلف **علاقة** المرء بكائن حي عن علاقته بشخص، يختلف وصف المرء للآخر بأنه كائنٌ حي عن وصف المرء للآخر بأنه شخصٌ

(١) الجشطالت Gestalt: مدرسة في علم النفس ظهرت في أوائل القرن العشرين في النمسا وألمانيا، والكلمة الألمانية Gestalt تعني «الشكل» بالألمانية، وتفسر على أنها «نمط» أو «تكوين». وقد أكد علماء الجشطالت أن الكائنات الحية تدرك أنماطًا أو تكوينات كاملة، وليس مجرد عناصر فردية. يتم تلخيص الرأي أحيانًا باستخدام القول المأثور: «الكل أكثر من مجموع أجزائه». (المترجم).

بقدر اختلاف وصف جانب المزهرية عن صورة الوجه. وبالمثل، فإن نظرية المرء عن الآخر بوصفه كائنًا حيًّا لا علاقة لها بأي نظرية عن الآخر بوصفه شخصًا. يتصرف المرء تجاه الكائن الحي بشكلٍ مختلفٍ عن الطريقة التي يتصرف بها تجاه الشخص. وعلم الشخصية science of persons دراسة للبشر تبدأ من العلاقة مع الآخر بوصفه شخصًا، وتستمر في الرواية عن الآخر بوصفه شخصًا.

على سبيل المثال، إذا كان شخصٌ يستمع إلى شخصٍ آخر يتحدث، ربما (أ) يدرس السلوك اللفظي من حيث العمليات العصبية وجهاز النطق بالكامل، أو (ب) يحاول فهم ما يقوله. في الحالة الأخيرة، لا يمثل تفسير السلوك اللفظي من منظور العلاقة العامة للتغيرات العضوية التي يجب أن تحدث بالضرورة باعتبارها **شرطًا لا غنى عنه**[1] للتعبير اللفظي، مساهمة في فهمٍ محتملٍ لما يقوله الفرد. وعلى العكس من ذلك، فإن فهم ما يقوله الفرد لا يساهم في معرفة كيفية تمثيل خلايا دماغه للأكسجين. أي أن فَهْم ما يقوله ليس بديلًا عن تفسير العمليات العضوية ذات الصلة، والعكس صحيح. مرة أخرى، لا يوجد شكٌّ هنا أو في أي مكان حول ثنائية العقل والجسد. الروايتان، الشخصية والعضوية في هذه الحالة، فيما يتعلق بالكلام أو أي نشاطٍ بشري آخر يمكن ملاحظته، هما نتيجة الفعل الأولي المتعمد للفرد، كلُّ فعلٍ متعمد يؤدي إلى اتجاهه ويقدم نتائجه. يختار المرء وجهة النظر أو الفعل المتعمد ضمن السياق العام لما «يتابعه» المرء مع الآخر. يكشف الإنسان، بالنظر

(١) **شرطًا لا غنى عنه** *conditio sine qua non*: باللاتينية في الأصل (المترجم).

إليه على أنه كائنٌ حي، أو الإنسان، بالنظر إليه على أنه شخصٌ، عن جوانب مختلفة من الواقع الإنساني للباحث. المنظوران ممكنان تمامًا من الناحية المنهجية لكن على المرء أن ينتبه لاحتمال حدوث ارتباكٍ.

إنني أرى الآخر شخصًا مسؤولًا، قادرًا على الاختيار، باختصارٍ، عاملًا يتصرف بنفسه. وحين ينظر إليه باعتباره كائنًا حيًّا، يمكن تصور كل ما يحدث في هذا الكائن الحي على أي مستوى من التعقيد - على مستوى الذرة أو الجزيء أو الخلية أو الجهاز أو الكائن. في حين أن السلوك الذي يُنظر إليه على أنه شخصيٌّ يُنظر إليه فيما يتعلق بخبرة ذلك الشخص ونواياه، فإن السلوك الذي يُنظر إليه على مستوى الكائن الحي لا يمكن أن يُنظر إليه إلا على أنه تقلُّص أو استرخاء في عضلات معينة، إلخ. بدلًا من خبرة التسلسل، يهتم المرء بسلسلة من العمليات. لذلك، في الإنسان الذي يُنظر إليه على أنه كائنٌ حي، لا يوجد مكانٌ لرغباته أو مخاوفه أو أمله أو يأسه بهذا الشكل. إن تفسيراتنا لا تستهدف نواياه تجاه عالمه بل كمية الطاقة في جهاز الطاقة.

بالنظر إلى الإنسان باعتباره كائنًا حيًّا، لا يمكن أن يكون إلا مجموعة معقدة من الأشياء، أشيائه، والعمليات التي تشكِّل الكائن الحي في النهاية عملياته.(١) هناك وهمٌ شائعٌ بأن المرء يزيد بطريقة ما من فهمه للشخص إذا استطاع ترجمة فهمه الشخصي له إلى مصطلحاتٍ غير شخصية لتسلسل أو جهاز لعملياته. حتى في حالة عدم وجود مبررات نظرية، يظل هناك ميلٌ إلى ترجمة خبرتنا الشخصية

(١) حين يتحدث لانج عن الكائن الحي، يستخدم ضمير المفرد غير العاقل *it* (المترجم).

بالآخر بوصفه شخصًا إلى رواية له مموهة الشخصية. ونحن نفعل هذا بشكلٍ ما سواء استخدمنا تشبيهًا آليًا أو تشبيهًا بيولوجيًا في «تفسيرنا». وتجدر الإشارة إلى أنني لا أعترض هنا على استخدام المقارنات الآلية أو البيولوجية بهذا الشكل، ولا في الواقع على الفعل المتعمد المتمثل في رؤية الإنسان باعتباره آلة معقدة أو حيوانًا. تقتصر أطروحتي على الزعم القائل بأن نظرية الإنسان بوصفه شخصًا تفقد طريقها إذا وقعت في رواية للإنسان باعتباره آلة أو الإنسان باعتباره نظامًا عضويًا لعملياته. والعكس صحيح أيضًا (انظر Brierley, 1951).

يبدو من غير العادي أنه في حين أن العلوم الفيزيائية والبيولوجية لعمليات الكائن الحي تفوقت اليوم عمومًا على الميول لشخصنة عالم الأشياء أو نقل النوايا البشرية إلى عالم الحيوان، فإن علمًا حقيقيًا للشخصية لم يبدأ نتيجة الميل الراسخ إلى تموه الشخصية أو تجسيد الأشخاص.

في الصفحات التالية، نهتم تحديدًا بالأشخاص الذين يشعرون بأنهم آلات، أو روبوتات، أو أجزاء من آلة، أو حتى حيوانات. هؤلاء الأشخاص يعتبرون مجانين بحقٍّ. ومع ذلك، لماذا لا نعتبر النظرية التي تسعى إلى تحويل الأشخاص إلى آليَّات أو حيوانات مجنونة بالقدر نفسه؟ إن خبرة المرء بنفسه وبالآخرين بوصفهم أشخاصًا خبرة أولية لا تحتاج إلى برهان. إنها سابقة على الصعوبات العلمية أو الفلسفية بشأن ما يجعل هذه الخبرة ممكنة أو كيف يمكن تفسيرها.

في الواقع، من الصعب تفسير الإصرار في كل تفكيرنا في عناصر ما

أسماه ماكموري[1] «القياس البيولوجي». يكتب ماكموري (١٩٥٧): «يجب أن نتوقع أن ظهور علم النفس العلمي سوف يوازيه انتقالٌ من مفهوم عضوي ... للوحدة إلى مفهوم شخصي» (ص ٣٧)، بحيث نستطيع **التفكير** في الإنسان الفرد بالإضافة إلى خبرته ليس بوصفه شيئًا ولا كائنًا حيًّا بل بوصفه شخصًا ويجب أن تتوفر لنا طريقة للتعبير عن هذا الشكل من أشكال الوحدة، شكل شخصي على وجه التحديد. وبالتالي، فإن المهمة في الصفحات التالية مهمة هائلة لمحاولة تقديم رواية لشكلٍ شخصـيٍّ محدد تمامًا من تموه الشخصية والتفكك بينما اكتشاف «الشكل المنطقي الذي يمكن من خلاله تَصوُّر وحدة الفرد بشكلٍ متماسكٍ» (المرجع نفسه) لا يزال مهمة ضرورية من أجل المستقبل.

هناك، بالطبع، أوصافٌ كثيرة لتموه الشخصية والانقسام في السيكوباثولوجيا. ومع ذلك، لا توجد نظرية سيكوباثولوجية قادرة تمامًا على التغلب على تشوُّه الشخص الذي تفرضه فرضياتها مع أنها قد تسعى إلى إنكار هذه الفرضيات ذاتها. يجب أن تفترض سيكوباثولوجيا تستحق اسمها «نفسًا psyche» (جهازًا عقليًّا أو بنية نفسية داخلية). يجب أن تفترض مسبقًا أن التشيؤ، مع التجسيد أو من دون التجسيد الذي يفرضه التفكير في «شيء» أو جهاز خيالي، هو ارتباط تصوري مناسب للآخر بصفته شخصًا يتفاعل مع الآخرين. بالإضافة إلى ذلك، يجب أن تفترض مسبقًا أن لنموذجها التصوري طريقة عمل تماثل

(١) جون ماكموري MacMurray (١٨٩١-١٩٧٦): فيلسوف إسكتلندي (المترجم).

الطريقة التي يعمل بها الكائن الحي حين يكون بصحة جيدة وطريقة عمل تشبه طريقة عمل الكائن الحي حين يكون مريضًا جسديًّا. ورغم أن مثل هذه المقارنات حبلى بالتشابهات، فإن السيكوباثولوجيا بطبيعة مقاربتها الأساسية تحول دون إمكانية فهم اختلال نظام المريض باعتباره فشلًا في تحقيق شكل شخصي محدد من أشكال الوحدة. إنه أمرٌ يشبه محاولة صنع الثلج بغليان الماء. إن وجود السيكوباثولوجيا بحد ذاته يديم الثنائية ذاتها التي يرغب معظم علماء النفس في تجنُّبها ومن الواضح أنها خاطئة. ومع ذلك، لا يمكن تجنب هذه الثنائية ضمن إطار السيكوباثولوجيا للمراجع إلا بالوقوع في وحدانية monism تدمر المصطلح، وهي ببساطة انحراف آخر إلى دوامة من الزيف.

يمكن التأكيد على أنه لا يمكن للمرء أن يكون علميًّا من دون أن يحافظ على «موضوعيته». ينبغي لعلم حقيقي يتناول الوجود الشخصي أن يحاول أن يكون غير متحيزٍ قدر الإمكان. يجب أن تمنح الفيزياء وعلوم الأشياء الأخرى علم الشخصية الحق في أن يكون غير متحيزٍ بطريقة تتوافق مع مجال دراسته. إذا اعتقدنا أنه ليكون المرء غير متحيز فعليه أن يكون «موضوعيًّا» فيما يتعلق بتمويه شخصية الشخص الذي هو «موضوع» دراستنا، فإن أي إغراء للقيام بذلك مع الانطباع بأن المرء علمي يجب أن يقاوم بقوة. إن تموه الشخصية في نظرية يُقصد منها أن تكون نظرية للشخصية خطأ مثل تمويه الشخصية شبه الفصامية للآخرين وهو في النهاية فعلٌ متعمدٌ إلى حدٍّ بعيد. ورغم إجراء هذا التجسيد باسم العلم، فإنه ينتج «معرفة» زائفة. إنها مغالطة تدعو للشفقة مثل الشخصنة الزائفة للأشياء.

من المؤسف أن الشخصي والذاتي كلمتان يُساء استخدامهما لدرجة أنهما تفتقران إلى القدرة على نقل أي تصـرف حقيقي لاعتبار الآخر شخصًا (إذا كنَّا نعني هذا، فعلينا العودة إلى «الموضوعية»)، لكننا نعني بشكلٍ مباشر أن المرء يدمج المشاعر والمواقف الخاصة في دراسته للآخر بطريقة تشوِّه إدراكنا له. على النقيض من «الموضوعية» أو «العلمية» ذات السمعة الطيبة، لدينا «ذاتية» أو «حدسية»، أو الأسوأ من ذلك «صوفية» سيئة السمعة. ومن المهم، على سبيل المثال، أن يصادف المرء كثيرًا كلمة «مجرد merely» قبل ذاتي، بينما من غير المتصور تقريبًا أن نتحدث عن أي شخص بأنه موضوعي «مجرد». كان فرويد أعظم عالم نفس. كان فرويد بطلًا. نزل إلى «العالم السفلي» حيث قابل أهوالًا رهيبة. حمل معه نظريته مثل رأس ميدوسا التي حوَّلت هذه الأهوال إلى حجرٍ. ونحن الذين نتبع فرويد نستفيد من المعرفة التي جلبها معه ونقلها إلينا. وقد نجا. يجب أن نرى ما إذا كنَّا نستطيع الآن أن ننجو من دون استخدام نظرية هي إلى حدٍّ ما أداة دفاعية.

العلاقة مع المريض باعتباره شخصًا أو باعتباره شيئًا:

في الفينومينولوجيا الوجودية، قد يكون الوجود المعني وجود المرء أو الآخر. حين يكون الآخر مريضًا، تصبح الفينومينولوجيا الوجودية محاولة لإعادة بناء أسلوب المريض ليكون على طبيعته في عالمه، مع أن التركيز في العلاقة العلاجية، قد يكون على أسلوب المريض في وجوده معي.

يأتي المرضى إلى طبيب نفسي بشكاوى قد تكون في أي موضع في النطاق بين الصعوبة المحدَّدة ظاهريًا إلى أقصى حدٍّ («أتردد في القفز من طائرة»)، إلى الصعوبة غير المحددة إلى أقصى حدٍّ ممكن («لا أعرف لماذا أتيت حقًا؛ أعتقد فقط أنني لسْتُ على ما يرام»). ومع ذلك، بغض النظر عن مدى تحديد الشكوى الأولية أو عدم تحديدها، يعلم المرء أن المريض يجلب إلى الوضع العلاجي، سواء عن قصدٍ أو عن غير قصدٍ، وجوده، كيانه كله في عالمه. يعرف المرء أيضًا أن كلَّ جانب من جوانب كيانه يرتبط بطريقة ما بكل جانبٍ آخر، بالرغم من أن طريقة التعبير عن هذه الجوانب قد لا تكون واضحة تمامًا. إن مهمة الفينومينولوجيا الوجودية هي التعبير عن ماهية «عالم» الآخر وطريقته في الوجود فيه. في البداية، قد لا تتطابق فكرتي الخاصة عن نطاق كيان إنسان أو امتداده مع فكرته، ولا مع أفكار الأطباء النفسيين الآخرين. إنني، على سبيل المثال، أنظر إلى أي إنسان على أنه محدودٌ، على أنه شخصٌ له بداية وستكون له نهاية. وُلِد وسوف يموت. في هذه الأثناء، له جسدٌ يغرسه بعمقٍ في هذا الزمان وهذا المكان. أعتقد أن هذه التصريحات تنطبق على كل إنسان بعينه. لا أتوقع إعادة التحقق منها كلما قابلْتُ شخصًا آخر. في الواقع، لا يمكن إثباتها أو نفيها. كان لديَّ مريضٌ امتدَّ مفهومه عن آفاق كيانه إلى ما بعد الولادة والموت: «في الحقيقة» وليس «في الخيال» فقط قال إنه لم يرتبط أساسًا بزمانٍ واحدٍ ومكانٍ واحدٍ. لم أعتبره مصابًا بالذهان، ولا أستطيع إثبات خطئه، حتى لو اهتممت بذلك. ومع ذلك، من الأهمية العملية أن يكون المرء قادرًا

على رؤية أن المفهوم و/ أو الخبرة التي قد تكون لدى الإنسان عن كيانه قد تكون مختلفة تمامًا عن مفهوم الفرد لكيانه أو خبرته به. وفي هذه الحالات، يجب أن يكون المرء قادرًا على توجيه نفسه بصفته شخصًا في مخطط أشياء الآخر بدلًا من مجرد رؤية الآخر بصفته كائنًا في عالمه الخاص، أي ضمن النظام الكلي لمرجع المرء نفسه. يجب أن يكون المرء قادرًا على تنفيذ عملية إعادة التوجيه هذه من دون الحكم سلفًا على من المصيب ومن المخطئ، والقدرة على تنفيذ ذلك شرطٌ أساسي واضح في التعامل مع مرضى الذهان.

هناك جانبٌ آخر لوجود الإنسان وهو الجانب الحاسم في العلاج النفسي مقارنة بالعلاجات الأخرى. وهو أن كلَّ إنسان منفصلٌ عن زملائه ومرتبطٌ بهم في الوقت نفسه، ومثل هذا الانفصال والارتباط افتراضان ضروريان بشكلٍ متبادل. لا يمكن أن توجد العلاقات الشخصية إلا بين كائناتٍ منفصلة لكنها غير منعزلة. لسنا منعزلين ولسنا أجزاء من جسدٍ مادي واحد، وهنا تكمن المفارقة، المفارقة المأساوية المحتملة، وتتمثل في أن علاقتنا بالآخرين جانبٌ أساسي من كياننا، مثل انفصالنا عنهم، لكن لا يوجد شخص معين يمثِّل جزءًا ضروريًّا من كياننا.

والعلاج النفسي نشاطٌ يستخدم هذا الجانب من كيان المريض وعلاقته بالآخرين لأغراضٍ علاجية. يعمل المعالِج بمبدأ أنه نظرًا لاحتمال وجود الارتباط في الجميع، فعليه ألا يضيع وقته في الجلوس لساعاتٍ مع متخشبٍ صامتٍ يقدِّم كل الأدلة على أنه لا يعترف بوجوده.

٢

الأسس الفينومينولوجية الوجودية لفهم الذهان

هناك خاصية أخرى للرطانة الحالية في الطب النفسـي. إنه يتحدث عن الذهان على أنه **فشلٌ** اجتماعي أو بيولوجي في التكيُّف، أو سوء تكيف من نوع راديكالي جدًّا، من **فقد** الاتصال بالواقع، **وانعدام** البصيرة. كما قال فان دن برج[1] (١٩٥٥)، هذه الرطانة «معجم لتشويه السمعة» تمامًا. التشويه ليس أخلاقيًّا، على الأقل بمفهوم القرن التاسع عشـر. إن هذه اللغة، في نواحٍ كثيرة، نتيجة الجهود لتجنب التفكير من منظور الحرية والاختيار والمسؤولية. لكنها تعني ضمنًا طريقة معيارية معينة لكينونة الإنسان لا يمكن لمريض الذهان أن يرقى إليها. وأنا، في الواقع، لا أعترض على كل الآثار في «معجم التشويه». إنني أشعر، في الواقع، بأننا يجب أن نكون أكثر صراحة بشأن الأحكام التي نتخذها ضمنيًّا حين نصف شخصًا ما بأنه ذهانيٌّ. حين أشهد على شخص بأنه مجنونٌ، لا أراوغ حين أكتب أن عقله غير سليمٍ، وقد يكون خطيرًا على نفسه

---

(١) يان هندريك فان دن برج van den Berg (١٩١٤-٢٠١٢): طبيب نفسي هولندي اشتهر بعمله في العلاج النفسي الفينومينولوجي (المترجم).

والآخرين، ويتطلَّب رعاية واهتمامًا في مستشفى للأمراض النفسية. ومع ذلك، في الوقت نفسه، أدرك أيضًا أن هناك، في رأيي، أشخاصًا آخرين يُعتَبرون عقلاء، وعقولهم غير سليمة تمامًا، وقد يكونون خطرين على أنفسهم والآخرين، أو أكثر خطورة، والمجتمع لا يعتبرهم مرضى ذهان جديرين بالحجز في المصحات النفسية. إنني أدرك أن الإنسان الذي يقال إنه يهذي قد يخبرني في هذائه بالحقيقة، وهذا ليس بمعنى ملتبس أو مجازي، ولكن بالمعنى الحرفي تمامًا، وأن العقل المتصدع لمريض الفصام قد يسمح لضوءٍ لا يدخل عقول عقلاء كثيرين ممن أغلقت عقولهم. كان حزقيال، في رأي ياسبرز، مريض فصام.

يجب أن أعترف هنا بصعوبةٍ شخصيةٍ معينةٍ تكمن في أنني طبيبٌ نفسي، وتقف خلف قدرٍ كبيرٍ من هذا الكتاب، وتتمثَّل في أنه باستثناء حالة مرضى الفصام المزمن، أجد صعوبة في اكتشاف «علامات وأعراض» الذهان لدى الأشخاص الذين أقابلهم بنفسي. كنت أعتقد أن هذا قصورٌ مني، وأنني لستُ ماهرًا بما يكفي للتعامل مع الهلوسة والهذاء، إلخ. إذا قارنتُ خبرتي بالذهان بالتقارير المقدمة عن الذهان في الكتب الدراسية المعيارية، وجدتُ أن المؤلفين لم يقدموا وصفًا لطريقة تصرف هؤلاء الأشخاص معي. ربما كانوا على حقٍّ وأنا مخطئ. ثم ظننتُ أنهم ربما كانوا مخطئين، لكنه ظنٌّ لا يمكن الدفاع عنه تمامًا. يبدو أن ما يلي بيانٌ للحقيقة:

تحتوي النصوص المعيارية على أوصافٍ لسلوك الأشخاص في مجال سلوكي يشمل الطبيب النفسي. إن سلوك المريض إلى حدٍّ

ما تابعٌ لسلوك الطبيب النفسي في المجال السلوكي نفسه. المريض النفسي المعياري تابع للطبيب النفسي المعياري والمستشفى النفسي المعياري. القاعدة البارزة، إذا جاز التعبير، التي تؤكد الوصف الرائع الذي قدمه بلولر[1] لمرضى الفصام في ملاحظته بأنهم بنظرة شاملة أغرب بالنسبة إليه من الطيور في حديقته.

كما نعلم، تعامل بلولر مع مرضاه كما يمكن أن يتعامل إكلينيكي ليس طبيبًا نفسيًّا مع حالة إكلينيكية باحترامٍ ومجاملة ومراعاة وفضولٍ علمي. إن المريض، مهما يكن، معتلٌّ من منظور طبي، والمهم تشخيص حالته، بملاحظة علامات مرضه. ويعتبر الكثير جدًّا من الأطباء النفسيين أن هذه المقاربة قابلة للتبرير بشكل بدهيٍّ لدرجة أنهم قد يجدون صعوبة في معرفة ما أسعى إليه. توجد الآن، بالطبع، مدارس فكرية أخرى كثيرة، لكن هذه المدرسة لا تزال الأكثر انتشارًا في هذا البلد. إنها بالتأكيد المقاربة التي يعتبرها من لا يعملون في مجال الطب أمرًا مفروغًا منه. أتحدث هنا طول الوقت عن مرضى الذهان (أي كما يقول معظم الناس لأنفسهم على الفور، ليس أنت أو أنا). ولا يزال الأطباء النفسيون متمسكين بهذه المقاربة في الممارسة العملية رغم أنهم يتشدقون بآراء وتوقعات وأساليب متنافرة. الآن، فيها الكثير مما هو جيد وقَيِّم، وفيها أيضًا الكثير من الأمان، بحيث يحق لأي شخص أن يفحص بدقة أي وجهة نظر ترى أن موقفًا مهنيًّا إكلينيكيًّا من هذا النوع قد لا يكون كل

---

(١) يوجين بلولر Bleuler (١٨٥٧-١٩٣٩): طبيب نفسي سويسري اشتهر بإسهاماته في فهم الأمراض النفسية، لقد صاغ العديد من المصطلحات النفسية بما في ذلك «شبه الفصام» و«الفصام» و «التوحد» وعلم نفس العمق (المترجم).

ما هو مطلوب، أو قد يكون في غير محلِّه في ظروف معينة. لا تكمن الصعوبة في مجرد ملاحظة الأدلة على مشاعر المريض لأنها تنكشف في سلوكه. سوف يضع الإكلينيكي الجيد في اعتباره حقيقة أنه إذا كان مريضه قلقًا، فقد يكون ضغط دمه أعلى إلى حدٍّ ما من المعتاد، وقد يكون نبضه أسرع من الطبيعي، إلخ. ويتمثل جوهر الأمر في أن المرء حين يفحص «القلب»، أو حتى الإنسان كله بوصفه كائنًا حيًّا، لا يهتم بطبيعة مشاعره الشخصية تجاهه، ومهما تكن غير ذات صلة، تُهمَل. يحتفظ المرء بنظرة وطريقة مهنية معيارية إلى حدٍّ ما.

لم يتغير موقف الطب النفسي الإكلينيكي الكلاسيكي من حيث المبدأ منذ تمكنا من رؤية كريبلين بمقارنة ما يلي مع الموقف المماثل في أي كتاب دراسي بريطاني حديث في الطب النفسي (على سبيل المثال، Mayer-Gross, Slater and Roth)[١].

هذا ما يقصُّه كريبلين (١٩٠٥) في قاعة المحاضرات لطلابه عن مريضٍ يظهر علامات الهياج التخشبي catatonic excitement:

> المريض الذي سأعرضه عليكم اليوم ينبغي له أن يُحمل إلى الغرف تقريبًا، حيث إنه يمشي وساقاه متباعدتان، على الجزء الخارجي من قدميه. عند دخوله، يخلع شبشبه، ويغني ترنيمة بصوتٍ عالٍ، ثم يصرخ مرتين (باللغة الإنجليزية)، «أبي، أبي الحقيقي!» عمره ثمانية عشر عامًا، وهو تلميذٌ في مدرسة ثانوية (مدرسة حديثة عالية الجودة)، طويل القامة، ببنية قوية إلى

(١) الإشارة إلى كتاب **الطب النفسي الإكلينيكي** *Clinical Psychiatry*، صدرت طبعته الأولى في ١٩٦٠ (المترجم).

حدٍّ ما، لكن وجهه شاحبٌ، وغالبًا ما يظهر عليه احمرار عابر. يجلس المريض وعيناه مغمضتان ولا يلتفت إلى ما يحيط به. إنه لا ينظر حتى حين يُوجَّه الحديث إليه، لكنه يجيب مبتدئًا بصوتٍ منخفضٍ، ويصرخ بصوتٍ يرتفع تدريجيًّا. وحين سُئل عن مكانه، قال: «هل تريد أن تعرف ذلك أيضًا؟ أقول لك من يخضع للقياس ويقاس وسوف يقاس، أعرف كل ذلك، ويمكن أن أخبرك، لكني لا أريد». وحين سئل عن اسمه صرخ: «ما اسمك؟ ماذا يغلق؟ يغلق عينيه. ماذا يسمع؟ إنه لا يفهم، لا يفهم. كيف؟ من؟ أين؟ متى؟ ماذا يقصد؟ حين أطلب منه أن ينظر لا ينظر بشكلٍ مناسبٍ. أنت هناك، انظر فقط! ما هذا؟ ما المشكلة؟ انتبه، لا ينتبه. أقول ما هو إذن؟ لماذا لا تعطيني إجابة؟ هل أصبحت وقحًا مرة أخرى؟ كيف يمكن أن تكون بهذه الوقاحة؟ أنا قادم! سأريكَ! إنك لا تمارس العهر من أجلي. لا بُدَّ من أنك لست ذكيًّا أيضًا؛ أنت رجلٌ وقحٌ، رديء، رجل وقح، رجل رديء لم أقابله من قبل. هل يبدأ مرة أخرى؟ إنكَ لا تفهم أي شيء على الإطلاق، أي شيء على الإطلاق، وهو لا يفهم أي شيء على الإطلاق. إذا تابعت الآن، لن يتابع، لن يتابع. هل ما زلْتَ أكثر وقاحة؟ هل تزداد وقاحة؟ كيف ينتبهون، إنهم ينتبهون» إلخ. وفي النهاية، يوبخ بأصوات غير واضحة تمامًا.

يلاحظ كريبلين هنا من بين أمور أخرى «استحالة فهم» المريض:

على الرغم من أنه فهم جميع الأسئلة بلا شك، **فإنه لم يعطنا معلومة مفيدة. كان حديثه ... فقط سلسلة من الجمل المنفصلة التي لا علاقة لها على الإطلاق بالوضع العام** (١٩٠٥، ص ٧٩–٨٠، التأكيد للمؤلف).

الآن ليس هناك شكٌّ في أن هذا المريض يظهر «علامات» الهياج التخشبي، ومع ذلك، فإن التفسير الذي نضعه لهذا السلوك يعتمد على العلاقة التي نؤسسها مع المريض، ونحن مدينون لوصف كريبلين الحي الذي يمكِّن المريض من القدوم، على ما يبدو، حيًّا أمامنا عبر خمسين عامًا من خلال صفحاته. ماذا يفعل هذا المريض على ما يبدو؟ من المؤكد أنه يجري حوارًا بين نسخته الساخرة في نظر كريبلين وبين ذاته المتمردة الجريئة. «هل تريد أن تعرف ذلك أيضًا؟ أقول لك من يخضع للقياس ويقاس وسوف يقاس. أعرف كل ذلك، ويمكن أن أخبرك، لكني لا أريد». يبدو هذا الكلام واضحًا بما فيه الكفاية. ومن المفترض أن يشعر بالاستياء الشديد من هذا النوع من الاستجواب الذي يجرى أمام طلاب في قاعة المحاضرات. من المحتمل أنه لا يرى ما يجب أن يفعله بأشياء لا بُدَّ أنها تضايقه بشدة. لكن هذه الأشياء لن تكون «معلومات مفيدة» في نظر كريبلين إلا بوصفها «علامات» أخرى «لمرض».

يسأله كريبلين عن اسمه، يرد المريض بنوبة غضب يقول فيها الآن إن ما يشعر به هو الموقف الضمني في تصرف كريبلين تجاهه: ما اسمك؟ ماذا يغلق؟ يغلق عينيه. لماذا لا تعطيني إجابة؟ هل أصبحت وقحًا مرة أخرى؟ إنك لا تمارس العهر من أجلي؟ (أي أنه يشعر أن كريبلين يعترض لأنه غير مستعدٍّ لممارسة العهر معه أمام فصل دراسي كامل من الطلاب)، وهكذا ... مثل هذا الرجل الوقح، الوقح، البائس، الرديء الذي لم أقابله قطٌّ، إلخ.

من الواضح الآن أن سلوك هذا المريض يمكن رؤيته بطريقتين على الأقل، كما رأينا المزهرية أو الوجه. قد يرى المرء سلوكه «علامات لمرض»، وقد يرى المرء سلوكه تعبيرًا عن وجوده. والتفسير الفينومينولوجي الوجودي استنتاج للطريقة التي يشعر بها الآخر ويتصرف. ما شعور الصبي تجاه كريبلين؟ يبدو أنه معذَّب ويائسٌ. ماذا «عن» حديثه عنه وتصـرفه بهذه الطريقة؟ إنه يعترض على تعرضه للقياس والاختبار. يريد أن يُسمَع.

التفسير بوصفه وظيفة من وظائف العلاقة مع المريض:

قد يقترح الطبيب النفسـي الإكلينيكي، الذي يرغب في أن يكون «علميًّا» أو «موضوعيًّا» أكثر، أن يقتصـر اهتمامه بالمريض على سلوكه «الموضوعي» القابل للملاحظة. وأبسط ردٍّ على هذا أنه مستحيلٌ. أن ترى «علامات المرض» لا يعني أنك ترى بشكلٍ محايد. كما أنه ليس من الحياد أن ترى الابتسامة تقلُّصًا في العضلات المحيطة بالفم (Merleau-Ponty, 1953). لا يسعنا إلا أن نرى الشخص بطريقة أو بأخرى ونضع تفسيراتنا أو تأويلاتنا لسلوكه بمجرد أن نقيم علاقة معه. ويصح هذا، حتى في الحالة السلبية حيث نحتار أو نرتبك لغياب المعاملة بالمثل من جانب المريض، حيث نشعر أنه لا أحد هناك يستجيب لمقارباتنا. وهذا الأمر قريب جدًّا من جوهر مشكلتنا.

والصعوبات التي نواجهها هنا تشبه إلى حدٍّ ما الصعوبات التي يواجهها مفسـر الهيروغليفية، وهو تشبيه كان فرويد مغرمًا به، إنها أكبر، على أي حال. دفعت نظرية تفسير الهيروغليفية والنصوص القديمة الأخرى أو فك رموزها إلى الأمام وصارت أكثر وضوحًا على

يد ديلثي[1] في القرن الماضي أكثر من نظرية تفسير الكلام والتصرفات «الهيروغليفية» الذهانية. قد يكون من المفيد توضيح موقفنا إذا قارنَّا مشكلتنا بمشكلة المؤرخ كما شرحها ديلثي.[2] والمهمة الأساسية في الحالتين هي التفسير.

يمكن أن تخضع الوثائق القديمة لتحليلٍ رسميٍّ من حيث البنية والأسلوب، والسمات اللغوية، والخصائص المميزة لبناء الجملة syntax، إلخ. يحاول الطب النفسي الإكلينيكي إجراء تحليلٍ شكلي مماثل لكلام المريض وسلوكه. من الواضح أن هذه النزعة الشكلية formalism، التاريخية أو الإكلينيكية، محدودة النطاق للغاية. وبجانب هذا التحليل الرسمي، قد يكون من الممكن إلقاء الضوء على النص بمعرفة العلاقة بين الظروف الاجتماعية والتاريخية التي نشأ منها. وبالمثل، نرغب عادةً في توسيع نطاق تحليلنا الرسمي والثابت «للعلامات» الإكلينيكية المعزولة قدر الإمكان لفهم مكانها في تاريخ حياة الشخص، وينطوي هذا على إدخال فرضيات جينية ديناميكية. ومع ذلك، لا تساعدنا المعلومات التاريخية، في حد ذاتها، عن النصوص القديمة أو عن المرضى، على فهمها بشكلٍ أفضل إلا إذا استطعنا أن نفعِّل ما يُسمَّى غالبًا الشفقة، أو بشكلٍ أكثر كثافة، التعاطف.

---

(١) فيلهلم ديلثي Dilthey (١٨٣٣-١٩١١): مؤرخ وعالم نفس وعالم اجتماع وفيلسوف ألماني (المترجم).

(٢) المصدر المباشر لاقتباسات ديلثي Dilthey في المقطع التالي هو «مشكلة التأويل» لبلتمان Bultmann's The problem of hermeneutics (**مقالات** *Essays*، ١٩٥٥، ص ٢٣٤ - ٢٦١).

وبالتالي حين يصف ديلثي **العلاقة بين المؤلف والمفسر** بأنها العامل الشَّـرْطي لإمكانية فهم النص، فقد كشف في الواقع عن الافتراض المسبق لكل التفسير الذي يكون الفهم أساسه (Bultmann, op. cit.).

> [يكتب ديلثي] إننا نوضح بعمليات فكرية بحتة، لكننا نفهم بتعاون كل قدرات العقل في الاستيعاب. في الفهم، نبدأ من ارتباطِ كلِّ معطى حي، لجعل الماضي قابلًا للفهم من منظوره.

الآن، تعتمد نظرتنا إلى الآخر على رغبتنا في تجنيد كل قدرات كل جوانب أنفسنا في عملية الاستيعاب. يبدو أيضًا أننا نحتاج إلى توجيه أنفسنا إلى هذا الشخص بطريقة تترك لنا إمكانية فهمه مفتوحة. إن فن فَهْم تلك الجوانب من كيان الفرد التي يمكن أن نلاحظها، باعتبارها معبرة عن نمط كيانه في العالم، يتطلب منَّا ربط أفعاله بالطريقة التي يشعر بها بالوضع الذي يوجد فيه معنا. وبالمثل، من منظور حاضره علينا أن نفهم ماضيه، وليس العكس بشكلٍ حصـريٍّ. ويصح هذا مرة أخرى حتى في الحالات السلبية حين يكون من الواضح من سلوكه أنه ينكر وجودَ أي موقف قد يكون فيه معنا، على سبيل المثال، حين نشعر بأننا نُعامل كما لو كنَّا غير موجودين، أو لا نوجد إلا من منظور رغبات المريض أو مخاوفه. لا يتعلق الأمر هنا بوضع معانٍ محددة سلفًا لهذا السلوك بطريقة جامدة. إذا نظرنا إلى أفعاله باعتبارها «علامات مرض»، فإننا نفرض بالفعل أطرَ تفكيرنا على المريض، بطريقة مماثلة للطريقة التي قد نرى أنه يعاملنا بها، وسنفعل الشـيء نفسه إذا تخيلنا أننا نستطيع «تفسير» حاضره باعتباره نتيجة آلية «لماضٍ» لا يتغير.

إذا تبنَّى المرء مثل هذا الموقف تجاه مريض، فمن المستحيل في الوقت نفسه فهم ما قد يحاول توصيله إلينا. وبالنظر مرة أخرى في حالة الاستماع إلى شخصٍ يتحدث، إذا كنْتُ جالسًا أمامك وأتحدث إليك، فقد تحاول (١) تقييم أي شذوذٍ في كلامي، أو (٢) تفسير ما أقوله من منظور الكيفية التي تتخيل بها خلايا دماغي وهي تقوم بعملية التمثيل الغذائي للأكسجين، أو (٣) اكتشاف ما يدفعني إلى قول هذه الأشياء في هذا الوقت، من منظور تاريخ الماضي والخلفية الاجتماعية والاقتصادية. ولا توجد إجابة من الإجابات التي يمكن أن تقدمها، أو لا يمكن أن تقدمها، لهذه الأسئلة يمكن أن تزودك في حد ذاتها بفهم بسيطٍ لما أعنيه.

من الممكن أن تعرف تمامًا ما اكتُشِف عن نسبة الإصابة الوراثية أو العائلية في ذهان الهوس الاكتئابي أو الفصام، وأن تكون لديك وسيلة للتعرُّف على «تشوه الأنا» شبه الفصامية وعيوب الأنا الفصامية، بالإضافة إلى مختلف «اضطرابات» التفكير والذاكرة والإدراك، إلخ، وأن تعرف تمامًا كل ما يمكن معرفته عن سيكوباثولوجيا الفصام أو عن مرض الفصام ولا تستطيع فهم مريض فصام. كل هذا النوع من البيانات طرق لعدم فهمه. أن تنظر وتستمع إلى مريض وترى «علامات» الفصام (باعتباره «مرضًا») وتنظر إليه وتستمع إليه ببساطة بصفته إنسانًا يعني أن ترى وتسمع بطرق مختلفة اختلافًا جذريًا، كما هو الحال حين يرى المرء المزهرية أولًا ثم يرى الوجهين في الصورة الغامضة.

بالطبع، كما يقول ديلثي، يحق لشارح النص أن يفترض أنه، على الرغم من مرور الوقت، والاختلاف الواسع في رؤية العالم بينه وبين المؤلف القديم، فإنه يقف في سياقٍ لا يختلف تمامًا عن الخبرة الحية للكاتب الأصلي. إنه يوجد في العالم، مثله مثل الآخر، بصفته كائنًا دائمًا في الزمان والمكان، مع آخرين مثله. **وهذه الفرضية بالضبط هي الفرضية التي لا يمكن للمرء أن يفترضها مع الذهاني**. وفي هذا الصدد، قد توجد صعوبة أكبر في فهم الذهاني الذي نوجد معه هنا والآن، من الصعوبة التي توجد في فهم كاتب بالهيروغليفية مات منذ آلاف السنين. ومع ذلك، فإن التمييز ليس أساسيًّا. إن الذهاني، رغم كل شيء، كما قال هاري ستاك سوليفان، فإنه في المقام الأول «إنسان ببساطة». إن شخصيتي الطبيب والذهاني، بدرجة لا تقل عن شخصيتي المفسر والمؤلف، لا تقف كلٌّ منهما موقفًا معارضًا للأخرى مثل حقيقتين خارجيتين لا تتقابلان ولا يمكن المقارنة بينهما. مثل الشارح، يجب أن يتمتع المعالج بالمرونة للتحول إلى منظور الآخر الغريب وحتى الغريب عن العالم. وهو في هذا يعتمد على إمكانياته الذهانية، من دون التخلي عن عقله. وبهذه الطريقة فقط يمكن أن يتوصل إلى فهم **الموقف الوجودي** للمريض.

أعتقد أنه من الواضح أنني لا أعني بكلمة «الفهم» عملية فكرية بحتة، بدل الفهم يمكن أن أقول الحب. لكن لا توجد كلمة تعرضت لسوء الاستخدام أكثر منها. والقدرة على معرفة كيف يشعر المريض بنفسه والعالم، بما فيه نفسه، ضرورية، وإن لم تكن كافية. ولن

نكون في وضع يسمح لنا بالبدء في «حبه» بأي طريقة فعالة إذا لم نستطع فهمه. إننا مأمورون بحب جارنا، ومع ذلك، لا يمكن للمرء أن يحب جارًا معينًا من دون أن يعرفه. يمكن للمرء فقط أن يحب إنسانيته المجردة. لا يمكن للمرء أن يحب كتلة «علامات الفصام». لا أحد **يصاب** بالفصام، كما يصاب بنزلة برد. المريض لا «يصاب» بالفصام. إنه مريضٌ بالفصام. يجب معرفة مريض الفصام من دون تدميره. ويكون عليه أن يكتشف أن هذا ممكن. وبالتالي تكون لكراهية المعالج وكذلك حبه صلة وثيقة جدًّا بالموضوع. ما يعنيه مريض الفصام بالنسبة إلينا يحدد بشكلٍ كبيرٍ ما نعنيه بالنسبة إليه، وبالتالي تصرفاته. تختلف «علامات» كثيرة من علامات الفصام في الكتاب الدراسي من مستشفى إلى آخر وتبدو إلى حدٍّ كبير من وظائف التمريض. يلاحظ بعض الأطباء النفسيين «علامات» فصامية معينة أقل بكثيرٍ من غيرهم.(١)

لذلك أعتقد أن التصريح التالي لفريدا فروم ريخمان صحيحٌ بالفعل، مهما كان مزعجًا:(٢)

> ... يمكن للأطباء النفسيين التسليم الآن بأنه من حيث المبدأ يمكن ترسيخ العلاقة العملية بين الطبيب والمريض مع مريض الفصام، وإذا بدا هذا مستحيلًا، فهو يرجع إلى مشاكل في شخصية الطبيب، وليس إلى سيكوباثولوجيا المريض (١٩٥٢، ص ٩١).

---

(١) توجد الآن مؤلفات مستفيضة تدعم هذا الرأي. انظر، على سبيل المثال، «In the Mental Hospital» (**مقالات** من *The Lancet*، ١٩٥٥-١٩٥٦).

(٢) فريدا فروم ريخمان Fromm-Reichmann (١٨٨٩-١٩٥٧): طبيبة نفسية ألمانية (المترجم).

بالطبع، كما كان حال الشاب المتخشب مع كريبلين، يتفاعل الفرد ويشعر تجاه نفسه جزئيًّا فقط من منظور الشخص الذي يفترض أنه يمثل حقيقته وجزئيًّا من منظور تخيله لما هو عليه. يحاول المرء أن يجعل المريض يرى أن طريقة تصـرفه تجاه نفسه تنطوي على فانتازيا من نوعٍ ما، لا يدركها تمامًا على الأرجح (لا يعيها)، لكنها، مع ذلك، فرضية ضرورية إذا كان للمرء أن يفهم أي معنى لهذه الطريقة من طرق تصـرفه. حين يكون هناك شخصان عاقلان معًا، يتوقع المرء أن يتعرف أ على أن ب هو إلى حدٍّ ما الشخص الذي يفترض ب أنه هو، والعكس صحيح. أي إنني أتوقع، من جانبي، أن تعريفي الخاص لنفسـي يجب، إلى حدٍّ كبيرٍ، أن يؤيده الشخص الآخر، بافتراض أنني لا أنتحل صفة شخص آخر عمدًا، أو نفاقًا، أو كذبًا، إلخ.[1] ومع ذلك، يوجد في سياق العقل المتبادل هامشٌ واسعٌ جدًّا للنزاع، والخطأ، والتصور الخطأ، وباختصارٍ، لانفصال من نوع ما بين ما يكون عليه الشخص في نظر نفسه (وجود المرء بالنسبة إلى نفسه) وما يكون عليه الشخص في نظر الآخر (وجود المرء بالنسبة إلى الآخر)، وعلى العكس، بين حقيقته أو ما يمثِّله بالنسبة إليَّ وحقيقته أو ما يمثِّله بالنسبة إلى نفسه؛ أخيرًا، بين ما يتخيل المرء أنها صورته عن نفسه وموقفه ونواياه تجاه نفسه، وبين صورته وموقفه ونواياه في الواقع تجاه نفسه، والعكس صحيح.

وهذا يعني أنه حين يلتقي شخصان عاقلان، يبدو أن هناك اعترافًا

(١) تُحكى قصة عن مريض سُئل وهو على جهاز كشف الكذب إن كان نابليون. فقال: لا. وسجل جهاز كشف الكذب أنه يكذب.

متبادلًا من كل منهما بهوية الآخر، في هذا الاعتراف المتبادل يوجد العنصران الأساسيان التاليان:

(أ) أدرك أن الآخر هو الشخص الذي يَفترِض أنه هو.

(ب) يعرف أنني الشخص الذي أفترض أنني هو.

لكل شخصٍ إحساسه المستقل بالهوية وتعريفه الخاص لمن يكون وما يكون. من المتوقع أن تكون قادرًا على التعرف عليَّ. وهذا يعني أنني معتادٌ على توقع أن الشخص الذي تفترض أنني هو، والهوية التي أعتقد أنها هويتي، سوف يتطابقان عمومًا: لنَقُلْ ببساطة «عمومًا»، حيث توجد مساحة كبيرة من التناقضات بشكلٍ واضحٍ.

ومع ذلك، إذا بقيت هناك تناقضات جذرية بعد فشل محاولات المواءمة بينهما، فلا يوجد بديلٌ إلا أن يكون أحدنا مجنونًا. لا أجد صعوبة في اعتبار الشخص الآخر مصابًا بالذهان، إذا كان على سبيل المثال:

يقول إنه نابليون بينما أقول إنه ليس نابليون.

أو إذا قال إنني نابليون وأنا أقول إنني لسْتُ نابليون.

أو إذا كان يعتقد أنني أرغب في إغرائه، بينما أعتقد أنني لم أعطه أي أساس في الواقع لافتراض أن هذه نيَّتي.

أو إذا كان يعتقد أنني أخشى أن يقتلني، وأنا لا أخشى ذلك، ولم أعطه أي سبب للاعتقاد بأنني كذلك.

لذلك، أقترح أن **يُختبَر العقل أو الذهان بدرجة الاقتران أو الانفصال بين شخصين حين يكون المرء عاقلاً بموافقة مشتركة.**

الاختبار الحاسم لمعرفة إن كان المريض ذهانيًّا أم لا هو وجود عدم تطابق، تنافر، صدام، بيني وبينه.

«الذهاني» هو الاسم الذي نطلقه على الشخص الآخر حين يكون في علاقة منفصلة من نوعٍ معين. وبسبب هذا الانفصال الشخصي وحده نبدأ بفحص بوله، والبحث عن الشذوذ في الرسوم البيانية للنشاط الكهربائي لدماغه.

ويجدر بنا في هذه المرحلة أن نفحص أكثر طبيعة الحاجز أو الانفصال بين العاقل والذهاني.

إذا أخبرَنا إنسانٌ، على سبيل المثال، أنه «إنسان غير واقعي»، وإذا لم يكن يكذب أو يمزح أو يراوغ بطريقة خفية، فلا شك في أنه سيُنظر إليه على أنه يهذي. لكن، وجوديًّا، ماذا يعني هذا الهذاء؟ إنه في الواقع، لا يمزح ولا يتظاهر، على العكس من ذلك، يقول إنه يتظاهر منذ سنوات بأنه شخصٌ حقيقي ولكن لا يمكنه أن يبقى مخادعًا بعد الآن.

كانت حياته كلها ممزقة بين رغبته في الكشف عن نفسه ورغبته في التستُّر على نفسه. ونحن جميعًا نشاركه في هذه المشكلة وقد توصلنا جميعًا إلى حلٍّ مُرْضٍ إلى حدٍّ ما. لدينا أسرارنا وحاجتنا إلى الاعتراف. قد نتذكر كيف كان الكبار، في الطفولة، قادرين في البداية على النظر إلينا متظاهرين بأنهم يعرفون ما نخبئه، والإنجاز الذي يتحقق حين نستطيع، في خوف ورجفة، أن نعلن عن كذبتنا الأولى، ونكتشف بأنفسنا أننا وحدنا بشكلٍ لا يقبل الإصلاح في بعض النواحي، ونعلم أنه لا يمكن أن يكون في داخل مقاطعتنا سوى آثار أقدامنا. ومع ذلك، هناك

بعض الأشخاص الذين لم يدركوا قط أنفسهم تمامًا في هذا الموقف. إن هذه الخصوصية الحقيقية أساس العلاقة الحقيقية، لكن الشخص الذي نصفه بأنه «شبه فصامي» يشعر أكثر منَّا بأنه عرضة لخطر الآخرين وأكثر هشاشة أمامهم وأنه أكثر عزلة. وهكذا قد يقول مريض الفصام إنه مصنوعٌ من الزجاج، من مادة شفافة وهشَّة لدرجة أن النظرة الموجهة إليه تحطمه إلى شظايا وتخترقه مباشرة. قد نفترض أنه يشعر بنفسه بهذا الشكل تحديدًا.

ونقترح أن الإنسان غير الواقعي، على أساس هذه الهشاشة الشديدة، أصبح بارعًا جدًّا في إخفاء الذات لدرجة أنه تعلَّم أن يبكي حين يكون مستمتعًا، وأن يبتسم حين يكون حزينًا. عبس لاستحسانه وصفَّق للاستياء منه. يقول لنفسه: «كل ما يمكن أن تراه ليس أنا». لكن فقط في كل ما نراه ومن خلاله يمكن أن يكون أي شخص (في الواقع). إذا لم تكن هذه التصرفات حقيقته، فهو غير واقعي؛ رمزي وملتبس تمامًا؛ شخص افتراضي ومحتمل وخيالي تمامًا، إنسان «أسطوري»؛ لا شيء «في الواقع». إذا توقف، إذن، عن التظاهر بغير حقيقته، وخرج بالصورة التي وُلِد بها، يظهر مثل مسيح، أو مثل شبح، وليس مثل إنسان: لا أحد، من خلال الوجود بلا جسدٍ.

تظهر «الحقيقة» بشأن «وضعه الوجودي». ما هو حقيقي «وجوديًّا» يُعاش على أنه حقيقي «في الواقع».

مما لا شك فيه، أن معظم الناس يعتبرون أن ما هو حقيقي «في الواقع» يتعلق فقط بقواعد النحو والعالم الطبيعي. يقول إنسان إنه ميت لكنه حي.

لكنه «في الحقيقة» ميت. ربما يعبر عن ذلك بالطريقة الوحيدة التي يسمح بها الحس المشترك (أي الحس الجماعي). إنه يعني أنه ميت «في الواقع» وبشكل «حرفي» تمامًا، وليس مجرد رمز أو «بمعنى ما» أو «كأن»، وهو عازم بشدة على إيصال حقيقته. ومع ذلك، فإن الثمن الذي يجب دفعه مقابل إعادة تقييم الحقيقة الجماعية بهذه الطريقة هو «الجنون»، لأن الموت **الحقيقي** الوحيد الذي نعترف نحن به هو الموت البيولوجي.

إن مريض الفصام يائسٌ، إنه ببساطة بلا أملٍ. لم أعرف قطٌّ مريضَ فصام يمكن أن يقول إنه كان محبوبًا كإنسان، من الرب الأب أو من أم الرب أو من إنسان آخر. إما أن يكون الرب، أو الشيطان، أو في الجحيم، مغتربًا عن الرب. حين يقول شخصٌ ما إنه إنسان غير واقعي أو إنه ميت، بكل جدية، يعبِّر بعبارات جذرية عن الحقيقة الصارخة لوجوده كما يشعر به، أي - الجنون.

ما المطلوب منَّا؟ أن نفهمه؟ يجب أن يظل جوهر خبرة مريض الفصام مع نفسه غير مفهوم بالنسبة إلينا. ما دمنا عقلاء وهو مجنون يبقى الوضع على حاله. لكن الاستيعاب في محاولة للوصول إليه وإدراكه، مع البقاء داخل عالمنا والحكم عليه بتصنيفاتنا التي لا يلبي متطلباتها حتمًا، ليس ما يريده مريض الفصام أو يطلبه. علينا أن ندرك طول الوقت تميزه واختلافه وانفصاله ووحدته ويأسه[1].

---

(١) لا يمكن فهم الفصام من دون فهم اليأس. انظر بشكل خاص كيركجارد، المرض حتى الموت The sickness unto death، ١٩٥٤؛ بينسوانجر، «حالة إلين ويست The case of Ellen West»، ١٩٤٤-١٩٤٥؛ ليزلي فاربر Farber، «اليأس العلاجي The therapeutic despair»، ١٩٥٨.

٣

انعدام الأمان الأنطولوجي

يمكننا الآن تحديد طبيعة استفسارنا الإكلينيكي بدقة أكبر. قد يشعر الإنسان بكيانه في العالم بوصفه شخصًا حقيقيًّا، حيًّا، كاملًا، وبمعنى زمني، مستمرًّا. على هذا النحو، يمكنه أن يعيش في العالم ويلتقي بالآخرين: عالم وآخرين حقيقيين وأحياء وكاملين ومستمرين بالقدر نفسه.

سيواجه مثل هذا الشخص الآمن **أنطولوجيًّا**[١] بشكلٍ أساسي جميع مخاطر الحياة، الاجتماعية والأخلاقية والروحية والبيولوجية، بإحساسٍ راسخٍ مركزيًّا بواقعه وهويته وواقع الآخرين وهويتهم. وغالبًا ما يكون من الصعب على أي شخص يتمتع بمثل هذا الإحساس بذاته المتكاملة وهويته الشخصية، وديمومة الأشياء، ودقة العمليات الطبيعية، وجوهر العمليات الطبيعية، وجوهر الآخرين، أن ينتقل إلى عالم الفرد الذي قد تكون خبراته ناقصة تمامًا وبقناعات مقبولة ذاتيًّا بشكلٍ لا يقبل الشك.

---

(١) على الرغم من الاستخدام الفلسفي «للأنطولوجيا» (هايدجر وسارتر وتيليش خاصة)، فإنني استخدمت المصطلح بمعناه التجريبي الحالي لأنه يبدو أفضل صفة أو اشتقاق لصفة من «الوجود».

تهتم هذه الدراسة بالقضايا المطروحة حين يوجد الغياب الجزئي أو شبه الكامل للتأكيدات المستمدة من الموقف الوجودي لما أسميه **الأمان الأنطولوجي الأساسي**: مع المخاوف والمخاطر التي أقترحها تنشأ **فقط** من منظور **الأمان الوجودي الأولي**، وما يترتب على ذلك من محاولات للتعامل مع مثل هذه المخاوف والمخاطر.

يشير الناقد الأدبي، ليونيل تريلينج (١٩٥٥)، إلى التناقض الذي أرغب في توضيحه بين **الموقف الوجودي الأساسي للأمان الأنطولوجي** وموقف **انعدام الأمان الوجودي** بوضوحٍ شديدٍ في مقارنة عوالم شكسبير وكيتس من ناحية، وعوالم كافكا من ناحية أخرى:

> ... بالنسبة لكيتس، يوجد إدراك الشر جنبًا إلى جنبٍ مع إحساس قوي جدًّا بالهوية الشخصية ولهذا يكون أقل وضوحًا من النظرة الأولى. بالنسبة إلى بعض القراء المعاصرين، يبدو للسبب نفسه أقل حدة. وبالطريقة نفسها قد يبدو للقارئ المعاصر أننا إذا قارنًّا شكسبير بكافكا، وتركنا درجة العبقرية التي يتمتع بها كلٌّ منهما جانبًا، واعتبرناهما فقط شارحين لمعاناة الإنسان والاغتراب الكوني، يكون كافكا هو من يقدم شرحًا أكثر كثافة واكتمالًا. وبالفعل، قد يكون الحكم صحيحًا، لأن الإحساس بالشر بالنسبة إلى كافكا لا يتعارض مع الإحساس بالهوية الشخصية. إن عالم شكسبير، مثل عالم كافكا تمامًا، هو تلك الزنزانة التي يقول باسكال إنها العالم، التي يُقاد السجناء منها إلى الموت يوميًّا؛ ويفرض علينا شكسبير بدرجة لا تقل عن كافكا اللا عقلانية القاسية لظروف حياة البشر، الحكاية التي يرويها أحمق، الآلهة الصبيانية الذين يعذبوننا ليس من أجل العقاب

ولكن من أجل الرياضة. وبدرجة لا تقل عن كافكا، تقزَّز شكسبير من قذارة سجن هذا العالم، ولا شيء يميزه أكثر عن تصويره للاشمئزاز. لكن الشـراكة، في زنزانة شكسبير، أفضل بكثيرٍ مما هي عليه في زنزانة كافكا، القادة والملوك والعشَّاق والمهرجون في أعمال شكسبير أحياء وكاملون قبل أن يموتوا. وفي أعمال كافكا، يحدث شيء رهيب للمتهم قبل وقتٍ طويل من تنفيذ الحكم، وحتى قبل بدء الإجراءات القانونية الخبيثة بوقتٍ طويل. نعلم جميعًا هذه الحقيقة - تجرد من كل ما يجعل الإنسان إنسانًا باستثناء إنسانيته المجردة، وهي، مثل هيكله العظمي، لا تصبح إنسانًا قط. عدم وجود أبوين أو منزل أو زوجة أو طفل أو التزام أو شهية، لا علاقة للإنسان بالقوة أو الجمال أو الحب أو الذكاء أو الشجاعة أو الولاء أو الشهرة، والفخر الذي يمكن أن ينتج عن ذلك. وبالتالي يمكن أن نقول بينما توجد معرفة كافكا بالشـر من دون المعرفة المتناقضة للذات في صحتها وصلاحيتها، توجد معرفة شكسبير بالشر مع هذا التناقض بأقصى قوة ممكنة (ص ٣٨-٣٩).

نجد، كما يشير تريلينج، أن شكسبير يصوِّر الشخصيات التي تشعر بوضوح بأنها حقيقية وحيوية وكاملة مهما حطَّمتها الشكوك أو مزَّقتها الصـراعات، والأمر ليس كذلك مع كافكا. في الواقع، يبدو أن الجهد المبذول لتوصيل شكل الحياة في غياب مثل هذه التأكيدات يميز عمل عددٍ من الكُتَّاب والفنانين في عصرنا. الحياة من دون الشعور بأنك حي.

مع صمويل بيكيت، على سبيل المثال، يدخل المرء عالمًا لا يوجد فيه إحساسٌ متناقض بالذات في «صحتها وصلاحيتها» للتخفيف

من اليأس والرعب والملل من الوجود. بهذه الطريقة، يُحكَم على المتشردين اللذين ينتظران جودو بالعيش:

إستراجون: دائمًا ما نجد شيئًا، يا ديدي، يمنحنا الانطباع بأننا موجودون؟

فلاديمير (بفارغ الصبر): نعم، نعم، إننا ساحران. لكن دعنا نثابر على ما عزمنا عليه قبل أن ننسى.

في الرسم، يبدو أن فرانسيس بيكون، من بين آخرين، يتعامل مع قضايا مماثلة. عمومًا، من الواضح أن ما نناقشه هنا إكلينيكيًّا ليس إلا عينة صغيرة من شيء تتورط فيه الطبيعة البشـرية بعمقٍ ولا يمكن أن نساهم فيه إلا بفهم جزئي جدًّا.

لنبدأ من البداية:

الولادة البيولوجية فعلٌ حاسمٌ بموجبه يُقذَف الكائن الرضيع إلى العالم. إنه هناك، وليدٌ جديدٌ، كيانٌ بيولوجي جديد، بطريقته الخاصة بالفعل، حقيقيٌّ وحيٌّ، من وجهة نظرنا. لكن ماذا عن وجهة نظر الوليد؟ في الظروف المعتادة، تؤدي الولادة الفيزيائية لكائن حي جديد في العالم إلى عمليات مستمرة بسـرعة حيث يشعر الرضيع في فترة زمنية قصيرة بشكلٍ مدهشٍ بأنه حقيقي وحيٌّ ولديه إحساسٌ بأنه كيان، مع استمرارية في الزمان والتواجد في فضاء. وباختصار، الولادة الفيزيائية والحياة البيولوجية يتبعهما الطفل الذي يصبح مولودًا حقيقيًّا وحيًّا من المنظور الوجودي. عادةً ما يعتبر هذا التطور أمرًا مفروغًا منه ويوفر اليقين الذي

تعتمد عليه جميع التأكيدات الأخرى. وهذا يعني أن البالغين لا يرون فقط أن الأطفال كيانات حقيقية قابلة للحياة بيولوجيًا ولكنهم يشعرون بأنهم أشخاصٌ حقيقيون وأحياء، ويشعرون بشكلٍ مشترك أن البشر الآخرين حقيقيون وأحياء. هذه بيانات خبرة لا تحتاج إلى دليلٍ.

عندئذٍ يمكن للفرد أن يشعر بأن كيانه حقيقيٌّ وحيٌّ وكاملٌ، متميز عن بقية العالم في الظروف العادية بشكلٍ واضح لدرجة أن هويته واستقلاليته لا تكونان موضع شك؛ سلسلة متصلة في الزمن؛ ويتمتع باتساقٍ داخلي وجوهر وأصالة وقيمة كما يتطابق مكانيًا مع الجسم، وعادة ما يكون قد بدأ عند الولادة أو بالقرب منها ويكون عرضة للانقراض مع الموت. وبالتالي فهو يتمتع بجوهرٍ ثابت من الأمان الأنطولوجي.

ومع ذلك، قد لا يكون هذا هو الحال. قد يشعر الفرد في ظروف المعيشة العادية بأنه غير حقيقي أكثر من شعوره بأنه حقيقي، بالمعنى الحرفي، ميت أكثر مما هو حي، مختلف بشكلٍ غير مستقر عن بقية العالم، بحيث تكون هويته واستقلاليته دائمًا موضع شك. قد يفتقر إلى الشعور باستمراريته الزمنية. وقد لا يتمتع بإحساس مهيمن بالاتساق أو التماسك الشخصي. وقد يشعر بأنه غير جوهري أكثر من شعوره بأنه جوهري، وغير قادر على افتراض أن الأشياء التي صنعها أصلية وجيدة وقيِّمة. وقد يشعر بانفصال جزئي عن جسده.

من الحتمي، بالطبع، ألا يستطيع الفرد الذي تكون خبرته بنفسه بهذا الشكل أن يعيش في عالم أكثر «أمنًا» من الأمان الذي يمكن أن

يشعر به «في نفسه». ستكون كل «الفراسة»[1] لعالمه مختلفًا في المقابل عن الفرد الذي تأسس إحساسه بذاته بشكل آمن فيما يتعلق بصحته وصلاحيته. سوف يعتبر أن للارتباط بأشخاص آخرين أهمية ووظيفة مختلفة اختلافًا جذريًّا. بالتنبؤ، يمكن أن نقول عن الفرد الذي يكون وجوده آمنًا بهذا المعنى التجريبي الأساسي، من المحتمل أن يكون الارتباط بالآخرين مُرْضيًّا، بينما ينشغل الشخص غير الآمن أنطولوجيًّا بالحفاظ على نفسه بدلًا من إرضاء نفسه: تهدد ظروف المعيشة العادية **العتبة المنخفضة** لأمانه[2].

إذا وصل المرء إلى وضع الأمان الأنطولوجي الأساسي، فإن الظروف العادية للحياة لا توفر تهديدًا دائمًا لوجوده. وإذا لم يصل إلى مثل هذا الأساس للعيش، فإن الظروف العادية للحياة اليومية تشكل تهديدًا مستمرًّا وقاتلًا.

ولا يمكن أن نفهم كيف يمكن أن تتطور بعض أنواع الذهان إلا حين يتحقق هذا.

إذا لم يستطع الفرد أن يسلِّم بواقعية نفسه وحيويتها واستقلاليتها وهويتها وبواقعية الآخرين وحيوتهم واستقلاليتهم وهوياتهم، فعليه الانغماس في ابتكار طرقٍ يحاول بها أن يكون حقيقيًّا، ويحافظ بها

---

(١) الفراسة physiognomy: أو علم الفراسة، فن اكتشاف المزاج والشخصية من المظهر الخارجي (المترجم).

(٢) هذه الصيغة تشبه إلى حدٍّ بعيدٍ صياغات سوليفان ول. ب. هيل Hill وفريدا فروم ريخمان وسيلفانو أريتي على وجه الخصوص. ويبدو أن بول فيدرن، على الرغم من أنه عبر عن نفسه بشكل مختلف تمامًا، فإنه قدَّم وجهة نظر مؤيدة بشكلٍ كبيرٍ.

على نفسه أو الآخرين أحياء، ويحافظ بها على هويته، بجهدٍ، على حد تعبيره غالبًا، لكيلا يفقد نفسه. قد تصبح الأحداث اليومية لمعظم الناس، التي نادرًا ما تلاحظ لأنها لا تتمتع بأهمية خاصة، ذات أهمية كبيرة بقدر ما تساهم في تغذية وجود الفرد أو تهدده بعدم الوجود. مثل هذا الفرد، سيدرك، أو أدرك، أن عناصر العالم، تتسم بتسلسلٍ هرمي للأهمية مختلف عن تسلسلها لدى الشخص العادي، كما نقول، ويبدأ، كما نقول، «العيش في عالمه الخاص»، أو قد أوشك بالفعل على ذلك. ليس صحيحًا أن نقول، من دون مبررات دقيقة، إنه يفقد «الاتصال» بالواقع، ويتقوقع في نفسه. لم تعد الأحداث الخارجية تؤثر عليه بالطريقة نفسها التي تؤثر بها على الآخرين، لا يعني أن تأثيرها عليه أقل، على العكس، كثيرًا ما يكون تأثيرها عليه أكبر. ولا يرجع ذلك غالبًا إلى أنه أصبح «غير مبالٍ» و«متقوقعًا». ومع ذلك، قد يصبح عالم خبرته عالمًا لم يعد يستطيع مشاركته مع الآخرين. ولكن قبل استكشاف هذه التطورات، من المفيد أن نصِف تحت ثلاثة عناوين ثلاثة أشكال من القلق يواجهها الشخص غير الآمن أنطولوجيًا: الابتلاع engulfment والانهيار implosion والتحجر petrification.

١- الابتلاع:

حدث جدلٌ بين مريضين في جلسة في مجموعة تحليلية. وفجأة، قطع أحدهما الجدل ليقول: «لا يمكن الاستمرار، إنك تجادل لتستمتع بالانتصار عليَّ، إنك في أحسن الأحوال تكسب جدلًا، وفي أسوأ الأحوال تخسر جدلًا. **وأنا أجادل لأحافظ على وجودي**».

كان هذا المريض شابًّا يمكن أن أصفه بأنه عاقلٌ، لكن نشاطه، كما قال، في الجدل وفي بقية حياته، لم يُصمَّم للحصول على إشباعٍ بل «للحفاظ على وجوده». الآن، يمكن للمرء أن يقول إنه إذا كان يتخيل، بالفعل، أنه إذا فقد الجدل فسوف يعرِّض وجوده للخطر، يكون «بعيدًا تمامًا عن الواقع» ويكون ذهانيًّا حقًّا. لكن هذا يعني ببساطة طرح سؤال من دون تقديم أي مساهمة في فهم المريض. ومع ذلك، من المهم أن تعرف أنك إذا أخضعْتَ هذا المريض لنوعٍ من الاستجواب النفسي الذي توصي به كتبٌ دراسية كثيرة في الطب النفسي، فسوف يكشف سلوكه وخطابه في غضون عشر دقائق عن «علامات» الذهان. من السهل جدًّا استخراج مثل هذه «العلامات» من مثل هذا الشخص الذي تكون عتبة الأمان الأساسية لديه منخفضة جدًّا لدرجة أن أي علاقة مع شخص آخر، مهما كانت ضعيفة أو «غير ضارة» على ما يبدو، تهدده بالسحق.

يتطلَّب الأمر إحساس المرء إحساسًا راسخًا بهوية مستقلة ليرتبط بصفته إنسانًا بإنسان آخر. ومن دون ذلك، تهدد أي علاقة الفرد بفقد الهوية. يمكن أن يُسمى أحد الأشكال التي يتخذها الابتلاع engulfment. وفيه يخشى الفرد ارتباطًا بهذا الشكل، مع أي شخص أو أي شيء أو، في الواقع، حتى مع نفسه، لأن عدم يقينه بشأن استقرار استقلاليته يجعله عرضة للرهبة خشية أن يفقد استقلاليته وهويته في أي علاقة. لا يُنظر إلى الابتلاع ببساطة على أنه شيء من المحتمل أن يحدث طوعًا أو كرهًا على الرغم من أقصى جهد يبذله الفرد ليتجنبه.

يشعر الفرد بأنه إنسان ينقذ نفسه من الغرق بالنشاط الأكثر ثباتًا وشدة ويأسًا. يُنظر إلى الابتلاع على أنه خطر يتمثل في أن تُفهَم (وبالتالي تُدرَك وتستوعب)، أو في أن تُحَب، أو حتى مجرد أن تُرَى. قد تخشى احتمال الكراهية لأسباب أخرى، لكن الكراهية على هذا النحو تكون غالبًا أقل إزعاجًا من أن تتعرض للتدمير، طبقًا لشعورك، بالابتلاع في الحب.

العزلة هي المناورة الرئيسية المستخدمة للحفاظ على الهوية تحت ضغط الخوف من الابتلاع. وبالتالي، بدلًا من قطبي الانفصال والارتباط القائمين على استقلالية الفرد، هناك التناقض بين الخسارة الكاملة للكيان بالامتصاص في الشخص الآخر (الابتلاع)، والوحدة الكاملة (العزلة). لا توجد إمكانية ثالثة آمنة لعلاقة جدلية بين شخصين، واثقين بخلفيتيهما، وعلى هذا الأساس ذاته، قادرين على أن «يفقد» كلٌّ منهما «نفسه» في الآخر. ولا يمكن أن يحدث هذا الاندماج للكيان بطريقة «أصيلة» إلا حين يثق الفردان بنفسيهما. إذا كره الإنسان نفسه، فقد يرغب في أن يفقد نفسه في الآخر: وبالتالي يكون ابتلاعه في الآخر هروبًا من نفسه. وفي هذه الحالة يوجد احتمالٌ دائمٌ للرهبة. وسوف يتضح لاحقًا، مع ذلك، أن ما هو مرعب جدًّا في إحدى اللحظات ويتم تجنبه بشدة يمكن أن يصبح أكثر ما يُبحَث عنه.

يدحض هذا القلق أحد أشكال ما يُسمَّى «رد الفعل العلاجي السلبي» لتفسير يبدو صحيحًا في العلاج النفسي. لكي تُفهَم بشكلٍ صحيحٍ، يجب أن تنغمس، أو تُحاصر، أو تُبتلَع، أو تُغرق، أو تُلتهم،

أو تُخنق، أو تختنق في الاستيعاب الشامل المفترض لشخص آخر أو بواسطته. أن يُساء فهمك دائمًا يعني أن تشعر بالوحدة والألم، لكن هناك على الأقل من هذا المنظور قدرًا من الأمان في العزلة.

وبالتالي يُخشى حب الآخر أكثر من كراهيته، أو بالأحرى يفهم كل الحب باعتباره نسخة من الكراهية. أن تُحَب يعني أن توضع تحت التزام غير مرغوب فيه. في العلاج مع مثل هذا الشخص، آخر ما يُطلب هو أن يتظاهر بأكثر مما لديه من «حب» أو «اهتمام». كلما زادت دوافع المعالج المعقدة للغاية بشكل ضروري لمحاولة «مساعدة» شخص من هذا النوع يقترب بشكلٍ حقيقي من الاهتمام به ويكون مستعدًّا «لتركه في حاله» ولا يبتلعه **في الواقع** أو يكتفي باللا مبالاة، زاد الأمل في الأفق.

هناك صورٌ كثيرة تُستخدم لوصف الطرق ذات الصلة التي تهدِّد الهوية، ويمكن ذكرها هنا، باعتبارها مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالرهبة من الابتلاع، على سبيل المثال، أن يدفن، أن يغرق، أن يقبض عليه ويُسحَب إلى الرمال المتحركة. تتكرر صورة النار كثيرًا. قد تكون النار هي الخفقان غير المؤكد لحيوية الفرد الداخلية، وقد تكون قوة غريبة مدمرة تحطمه. يقول بعض مرضى الذهان في المرحلة الحادة إنهم في النار، وأجسادهم تحترق. يصف المريض نفسه بالبرودة والجفاف، لكنه يخشى أي دفء أو رطوبة. سوف تجتاحه النار أو الماء، ويُدمَّر في الحالتين.

٢- الانهيار:

هذه أقوى كلمة[١] يمكن أن أجدها للصيغة المتطرفة لما يُسمِّيه وينيكوت **الارتطام** *impingement* بالواقع، ومع ذلك، لا تعبر كلمة الارتطام عن كل رعب الشعور بالعالم باعتباره عرضة في أي لحظة للانهيار ومحو كل هوية لأن الغاز يندفع ويطمس الفراغ. يشعر الفرد أنه خاوٍ مثل الفراغ، لكن هذا الخواء هو الفرد. وعلى الرغم من أنه يتوق إلى ملء الفراغ بطرق أخرى، فإنه يخشى احتمال حدوث ذلك لأنه يشعر أن كل ما يمكن أن يكون عليه هو العدم المروع لهذا الفراغ نفسه. يشعر بأن أي «اتصال» بالواقع في حد ذاته يعتبر تهديدًا مروعًا لأن الواقع، كما يشعر به من هذا الموقف، **عرضة للانهيار** بالضرورة وبالتالي، كما كان الارتباط في الابتلاع، يمثل **في حد ذاته** تهديدًا للهوية التي يمكن للفرد أن يفترض أنه يتمتع بها.

وبالتالي يكون، مهدِّدًا بالابتلاع أو الانهيار، هو المضطهِد.

في الواقع، نحن جميعًا على بُعد درجتين أو ثلاث درجات فهرنهايت من الشعور بهذا النظام. حتى بتأثير حمى طفيفة، يمكن للعالم بأسره أن يبدأ في اتخاذ بعد اضطهادي ارتطامي.

---

(١) - الكلمة المستخدمة في الأصل implosion، وتعني الانهيار أو الانفجار الداخلي بقوة (المترجم).

٣- التحجر وتمويه الشخصية:

باستخدام مصطلح «التحجر petrification»، يمكن للمرء أن يتناول عدة معانٍ ضمنية لهذه الكلمة:

١- شكل خاص من أشكال الرعب، حيث يتحجَّر المرء، أي يتحوَّل إلى حجر.

٢- الرهبة من حدوث ذلك: الرهبة، أي إمكانية التحوُّل، أو التحوُّل، من شخص حي إلى شيء ميت، إلى حجر، إلى إنسان روبوت، إلى إنسان آلي، من دون استقلالية شخصية في العمل، إلى **شيء** *it* من دون ذاتية.

٣- العمل «السحري» الذي يمكن بواسطته محاولة تحويل شخص آخر إلى حجر بجعله «يتحجر»، وبالتبعية، الفعل الذي ينكر المرء به استقلالية الشخص الآخر، ويتجاهل مشاعره، ويعتبره شيئًا، ويقتل الحياة فيه. وبهذا المعنى، ربما يكون من الأفضل القول إن المرء يموِّه شخصيته أو يشيِّئه، لا يعامله المرء بوصفه شخصًا، عاملًا حرًّا، بل بوصفه شيئًا.

تمويه الشخصية تقنية تُستخدم بشكلٍ عام وسيلة للتعامل مع الآخر حين يصبح مملًّا جدًّا أو مزعجًا جدًّا. لم يعد المرء يسمح لنفسه بالاستجابة لمشاعره وقد يكون مستعدًّا لاعتباره بلا مشاعر ومعاملته كأنه كذلك. يميل الأشخاص موضع التركيز هنا إلى الشعور بأنهم مموِّهو الشخصية إلى حدٍّ ما ويميلون إلى تمويه شخصية الآخرين؛

ويخشون باستمرار تمويه الآخرين لشخصيتهم. إن عملية تحويله إلى شيء عملية تحجر بالفعل، **بالنسبة إليه**. في مواجهة معاملته على أنه «شيء it»، تختفي ذاتيته كما يختفي الدم من الوجه، إنه يحتاج أساسًا إلى تأكيدٍ ثابتٍ من الآخرين لوجوده بصفته شخصًا.

يُمارس تمويه شخصية الآخرين بشكلٍ جزئي على نطاقٍ واسع في الحياة اليومية ويُعتبر أمرًا طبيعيًّا إن لم يكن مرغوبًا فيه بدرجة كبيرة. تستند معظم العلاقات إلى نزعة ما لتمويه الشخصية بشكلٍ جزئي بقدر ما يتعامل المرء مع الآخر ليس من منظور أي إدراك بمن هو أو ما هو في حد ذاته لكن كروبوت آلي بالفعل يلعب دورًا أو جزءًا في آلة كبيرة حيث يمكن للمرء أيضًا أن يلعب دورًا آخر.

من المعتاد أن نعتز إن لم يكن بالواقع، فعلى الأقل بالوهم بأن هناك مجالًا محدودًا للعيش خالٍ من هذا التجريد لإنسانية الإنسان. ومع ذلك، قد يكون هناك شعور بخطر أكبر في هذا المجال، ويواجه الشخص غير الآمن أنطولوجيًّا هذا الخطر بشكلٍ قوي للغاية.

الخطر المتمثل في هذا: إذا شعر المرء بالآخر بصفته عاملًا حرًّا، يكون المرء منفتحًا على إمكانية الشعور بالذات بوصفها **موضوعًا** لخبرته وبالتالي الشعور باختفاء ذاتية المرء. إن المرء مهدد باحتمال أن يصبح مجرد شيء في عالم الآخر، من دون أي حياة تخصه، ومن دون أي وجود يخصه. ومن منظور مثل هذا القلق، تبدو عملية الشعور بالآخر بصفته شخصًا كأنها عملية انتحارية. يناقش سارتر هذه الخبرة ببراعة في الجزء الثالث من كتاب **الوجود والعدم**.

القضية بسيطة من حيث المبدأ، قد يجد المرء نفسه مفعمًا بالحيوية ويعزز الآخرُ إحساسَ المرء بوجوده، أو قد يشعر بأن الآخر يميته ويُفقِره. وقد يتوقع الشخص أن أي علاقة محتملة مع شخص آخر لها عواقب فيما بعد. وبالتالي يشكِّل أي شخص آخر تهديدًا «لذاته» (قدرته على التصرف بشكلٍ مستقل) ليس نتيجة لما قد يفعله أو لا يفعله تحديدًا، بل نتيجة وجوده ذاته.

بعض النقاط المذكورة أعلاه موضحة في حياة جيمس، الكيميائي، وكان في الثامنة والعشرين من عمره.

كانت شكواه طول الوقت أنه لا يمكن أن يصبح «شخصًا». «ليست» له «ذات». «لسْتُ سوى استجابة للآخرين، ليس لي هوية خاصة». (لدينا فرصة فيما بعد لنصِف بالتفصيل إحساسَ المرء بأنه ليس ذاته حقًّا، وأنه يعيش بذاتٍ زائفة [الفصلان ٥، ٦].) ازداد شعوره تدريجيًّا بأنه أصبح «شخصًا أسطوريًّا». شعر أنه بلا وزنٍ ولا جوهرٍ. «لسْتُ إلا سدادة من الفلين تطفو على المحيط».

كان هذا الرجل قلقًا جدًّا من ألا يصبح شخصًا: عاتب أمه على هذا الفشل. «كنت مجرد شعارٍ لها، لم تتعرَّف على هويتي قطٌّ». على النقيض من تقليله من شأن نفسه وعدم اليقين بشأنها، كان دائمًا على وشك الانهيار والسحق بسبب الواقع الهائل الذي يمثِّله الآخرون. على عكس وزنه الخفيف، وانعدام اليقين، وانعدام الجوهر، كانوا صلبين وحاسمين وواثقين وجوهريين. شعر أن الآخرين «أكبر» منه في كل النواحي التي تهمهم.

في الوقت نفسه، لم يكن من السهل أن يفزع عمليًّا، استخدم مناورتين رئيسيتين للحفاظ على الأمان. كانت إحداهما امتثالًا خارجيًّا للآخر (الفصل السابع)، وكانت الثانية رأس ميدوسا[1] المفكر الداخلي الذي قلبه على الآخر. حمت المناورتان معًا ذاتيته التي لم يَخُنْها قطٌّ علانية، وبالتالي لم تستطع قط أن تجد تعبيرًا مباشرًا وفوريًّا عن نفسها، لأنها سرية، كانت آمنة. صُمِّمت التقنيتان معًا لتجنُّب مخاطر الابتلاع أو تمويه الشخصية.

بسلوكه الخارجي استبعد الخطر الذي كان يتعرَّض له دائمًا، أي أن يصبح شيئًا لشخص آخر، بالتظاهر بأنه ليس أكثر من فلين. (رغم كل شيء، ما الشيء الأكثر أمانًا في المحيط؟) ومع ذلك، في الوقت نفسه، حوَّل الشخص الآخر إلى شيء في عينيه، وبالتالي أحبط بشكلٍ سحري أيَّ خطر على نفسه بنزع كل سلاح العدو سرًّا. بتدمير الشخص الآخر، في نظره، كشخصٍ، سلب من الآخر قدرته على سحقه. باستنزاف حياته الشخصية، أي برؤيته قطعة في آلة وليس إنسانًا، يقلل من مخاطر هذه الحياة على نفسه إما بغمره، أو انهياره في فراغه، أو تحويله إلى مجرد تابع.

---

(١) - رأس ميدوسا Medusa's head: في الميثولوجيا الإغريقية ميدوسا واحدة من ثلاثة وحوش، وُصفت عمومًا على أنها إناث مجنحات لها ثعابين حية سامة بدلًا من الشعر. من يحدق إلى عينيها يتحوَّل إلى حجرٍ. قطع رأسها البطل اليوناني بيرسيوس، واستخدمه، وقد احتفظ بقدرته على تحويل من يشاهده إلى حجر، سلاحًا حتى أعطاه للإلهة أثينا لتضعه على درعها. وقد كتب فرويد مقالًا قصيرًا جدًّا عن رأس ميدوسا في ١٩٢٢ ونشر بعد وفاته (المترجم).

كان هذا الرجل متزوجًا من امرأة نشيطة ومرحة، ومفعمة بالحيوية، وتتمتع بشخصية قوية وتتصرف بعقلٍ. وقد حافظ معها على علاقة متناقضة كان فيها، بمعنى ما، وحيدًا تمامًا ومعزولًا، وبمعنى آخر، طفيليًّا تقريبًا. كان يحلم، على سبيل المثال، بأنه بطلينوس[١] ملتصق بجسد زوجته.

فقط لأنه استطاع أن يحلم بهذه الطريقة، كان يحتاج بشكلٍ أكبر إلى إبقاء زوجته بعيدًا بتلفيق محاولة لرؤيتها على أنها مجرد آلة. وصف ضحكها، وغضبها، وحزنها، بدقة «إكلينيكية»، حتى إنه ذهب إلى حد الإشارة إليها بضمير المفرد غير العاقل «it»، وهي ممارسة كانت الأبدان تقشعر من تأثيرها. «ثم بدأت تضحك». كانت «شيئًا it» لأن كل ما تفعله استجابة متوقعة وحازمة. كان، على سبيل المثال، يحكي لها (it) نكتة مضحكة عادية وحين تضحك (it) يشير هذا إلى طبيعتها (its) «الشَّـرْطة» تمامًا، التي تشبه الروبوت، وقد رآها في الواقع بالمصطلحات نفسها المستخدمة في بعض نظريات الطب النفسـي. يمكن استخدام النظريات لتفسير كل أعمال البشر.

وقد فوجئْتُ بشكلٍ مقبول في البداية بقدرته الواضحة على رفض ما قلْتُه والاختلاف معه وكذلك بالاتفاق معي. يبدو أن هذا يشير إلى أنه يعيش بدماغه أكثر مما قد يدركه، وأنه لم يكن خائفًا بدرجة تجعله لا يظهر قدرًا من الاستقلالية. ومع ذلك، تبين أن قدرته الواضحة على التصـرف معي كشخصٍ مستقلٍّ كانت بسبب مناورته السـرية للتعامل

(١) بطلينوس clam: من الرخويات البحرية الصدفية (المترجم).

معي ليس كإنسان حي، كشخصٍ له الحق في أن تكون له ذاتٌ، ولكن كنوعٍ من روبوت جهاز الترجمة الذي زوده بالبيانات وأخرج بعد تبديل سريع برسالة شفهية إليه. بهذه النظرة السرية لي كشيء استطاع أن يبدو «شخصًا». ما لم يستطع تحمُّله هو علاقة مباشرة بشخصٍ يراه على هذا النحو.

الأحلام التي يُعبَّر فيها عن شكلٍ ما من أشكال الرهبة المذكورة من قبل شائعة في مثل هؤلاء الأشخاص. هذه الأحلام ليست أنواعًا في مخاوف الشخص من أن يؤكل، وهي أنواع تحدث في الأشخاص الآمنين أنطولوجيًّا. أن يؤكل المرء لا يعني بالضرورة أن يفقد هويته. لم يفقد يونس هويته إلى حدٍّ بعيد حتى وهو في بطن الحوت. تصل بعض الكوابيس إلى حد استدعاء المخاوف بشأن فقدان فعلي للهوية، عادة لأن معظم الناس، حتى في أحلامهم، لا يزالون يواجهون أي مخاطر يمكنهم مواجهتها كأشخاص قد يتعرضون للهجوم أو التشويه لكن جوهرهم الوجودي الأساسي نفسه ليس في خطر. في الكابوس الكلاسيكي، يستيقظ الحالم في حالة هلعٍ، لكن هذا الهلع ليس الخوف من فقدان «الذات». وهكذا يحلم مريضٌ بخنزيرٍ سمين يجلس على صدره ويهدده بالاختناق. يستيقظ في حالة هلع. في أسوأ الأحوال، في هذا الكابوس، يتعرض للتهديد بالاختناق، ولكن ليس بتلاشي وجوده الحقيقي.

في أحلام المرضى تحدث الطريقة الدفاعية التي تتمثَّل في تحويل صورة الأم المهدِّدة أو الثدي المهدِّد إلى **شيء**. كان أحد المرضى يحلم

بشكلٍ متكررٍ بمثلث أسود صغير ينشأ في زاوية من غرفته ويظل يكبر حتى يبدو كأنه على وشك أن يبتلعه – وحينها يستيقظ دائمًا في حالة هلعٍ شديدٍ. كان شابًّا مصابًا بالذهان ومكث مع عائلتي عدة أشهر، وبالتالي تمكَّنت من التعرف عليه جيدًا. في موقفٍ واحدٍ فقط بقدر ما يمكن أن أحكم كان يستطيع أن يترك نفسه «يمضي» من دون قلقٍ من عدم استعادة نفسه مرة أخرى بالاستماع إلى موسيقى الجاز.

حقيقة أنه حتى في الحلم يجب أن يكون شكل الثدي مموه الشخصية بهذه الدرجة مقياسًا لخطره المحتمل على الذات، ويفترض أن يكون ذلك على أساس الشخصنة الأصلية المخيفة وفشل **العملية المعتادة لتمويه الشخصية**.

يقدم مدارد بوس (1957a) أمثلة لعدة أحلام تنذر بالذهان، في إحداها تبتلع النارُ الحالمة:

> حلمتْ امرأة في الثلاثين من عمرها، وهي لا تزال تبدو بصحة جيدة، بأنها تشتعل في الإسطبلات. حولها، النار، وقشرة من الحمم البركانية تتشكَّل وتكبر باستمرارٍ. نصفها من الخارج ونصفها من داخل جسدها وكانت ترى كيف تخمد هذه القشرة النار ببطء. فجأة وجدت نفسها خارج هذا الحريق تمامًا، وهي تضرب النار، كأنها ممسوسة، بهراوة لكسر القشرة ليدخل بعض الهواء. لكن سرعان ما تعبت الحالمة وتنطفئ (النار) ببطء. بعد أربعة أيام من هذا الحلم بدأت تعاني من فصام حاد. في تفاصيل الحلم، توقعت الحالمة تمامًا مسار ذهانها. تجمَّدت في البداية، وفي الواقع، تحوصلت. بعد ستة أسابيع، دافعت عن نفسها مرة

أخرى بكل قوتها ضد الاختناق الذي أحدثته نيران حياتها، حتى خمدت في النهاية روحيًّا وعقليًّا. الآن، لعدة سنوات، كانت مثل فوهة بركانٍ مشتعل (ص ١٦٢).

في مثالٍ آخر، يحدث تحجر الآخرين، توقعًا لتحجر الحالمة نفسه:

حلمت فتاة في الخامسة والعشـرين أنها أعدَّت العشاء لعائلتها المكونة من خمسة أفراد. كانت قد جهزته للتوِّ، وكانت تنادي الآن والديها وأخويها وأختها لتناول العشاء. لم يرد أحد. ارتدَّ صوتها فقط كأنه صدى يأتي من كهفٍ عميقٍ. وجدت الفراغ المفاجئ للمنزل غريبًا. هرعت إلى الطابق العلوي للبحث عن عائلتها. في غرفة النوم الأولى، رأت أختيها جالستين على سريرين. رغم نداءاتها بنفاد صبرٍ، بقيتا جامدتين بشكلٍ غير طبيعي ولم تردَّا عليها. ذهبت إلى أختيها وأرادت أن تهزهما، فجأة لاحظت أنهما تمثالان حجريان. هربت الحالة في رعبٍ واندفعت إلى غرفة أمها. وكانت أمها أيضًا قد تحوَّلت إلى حجرٍ وتجلس خاملة في كرسيها وتحدق إلى الهواء بعينين خاليتين من التعبير. هربت الحالمة إلى غرفة أبيها، كان يقف في منتصفها. يائسة اندفعت إليه، رغبة في حمايته، وألقت بذراعيها حول رقبته، لكنه أيضًا كان من حجر، وأصابها رعبٌ شديدٌ بتحوله إلى رملٍ حين احتضنته. استيقظت في حالة هلعٍ مطلقٍ، وذهلت مما شعرت به في الحلم حتى إنها لم تستطع الحركة لبضع دقائق. حلمت المريضة بهذا الحلم الرهيب نفسه في أربع مناسبات متتالية في أيامٍ قليلة. وكانت حينها على ما يبدو في حالة صحية جيدة نفسيًّا وجسديًّا. اعتاد والداها على وصفها بأنها نور الشمس لجميع أفراد الأسرة. بعد عشـرة أيام من التكرار الرابع للحلم،

> أصيبت المريضة بفصامٍ حاد في صورة أعراض تخشبية شديدة. وقعت في حالة تشبه بشكلٍ ملحوظ التحجر الجسدي لعائلتها في الحلم، وقد تغلبت عليه الآن في حياة اليقظة بأنماطٍ سلوكية لم تلاحظها إلا في أحلامها في أشخاص آخرين (ص ١٦٢-١٦٣).

يبدو قانونًا عامًّا أنه يمكن في وقت ما تطويق تلك الأخطار الأكثر رعبًا لمنع حدوثها الفعلي. وبالتالي، يصبح تخلي المرء عن استقلاليته وسيلة للحفاظ عليها سرًّا؛ يصبح تظاهر المرء بعدم الوعي، التظاهر بالموت، وسيلة للحفاظ على حياته (انظر Oberndorf, 1950). إن تحوُّل المرء إلى حجرٍ يصبح وسيلة تمنع شخصًا آخر من تحويله إلى حجرٍ. ينصح نيتشه: «كن صلبًا». أي أن نيتشه لم يكن، كما أعتقد، هو نفسه ينوي أن يكون صلبًا كالصخر، وبالتالي فإن الموت حتى الآن يحبط خطر أن يحوِّله شخصٌ آخر إلى شيء ميت. إن فهم المرء لذاته تمامًا (ينغمس في نفسه) دفاعٌ ضد المخاطر التي ينطوي عليها الانجراف في دوامة أسلوب شخص آخر ليفهم نفسه. إن استهلاك المرء لنفسه بحبه يمنع إمكانية أن يستهلكه الآخر.

يبدو أيضًا أن الطريقة المفضلة للهجوم على الآخر تستند إلى المبدأ نفسه حيث يبدو الهجوم ضمنيًّا في علاقة الآخر بذاته. وهكذا، فإن الإنسان الذي يخاف من أن يغرق ذاتيته، أو يعتدي عليه شخصٌ آخر، أو يجمده، كثيرًا ما يوجد وهو يحاول إغراق الشخص الآخر، أو التعدي عليه، أو قتل ذاتيته. تتضمن العملية حلقة مفرغة؛ كلما حاول المرء الحفاظ على استقلاليته وهويته بإحباط التفرد الإنساني المحدد للآخر، ازداد شعوره بضرورة الاستمرار في القيام بذلك، لأنه مع كل إنكار

للوضع الأنطولوجي للشخص الآخر، ينخفض الأمان الأنطولوجي للمرء، ويزداد التهديد على الذات من الطرف الآخر قوة وبالتالي يجب إنكاره بشدة.

في هذا الخلل في الإحساس بالاستقلالية الشخصية يوجد فشلٌ في الحفاظ على الإحساس بالذات باعتبارها شخصًا مع الآخر، وفشل في الحفاظ عليها وحيدة. هناك فشل في الحفاظ على إحساس المرء بوجوده من دون وجود الآخرين. إنه فشلٌ في أن **يتحقَّق** بذاته، فشل في أن يوجد وحيدًا. كما قال جيمس، «يزودني الآخرون بوجودي». ويبدو أن هذا يتناقض تناقضًا مباشرًا مع الرهبة المذكورة من قبل من أن يجرده الآخرون من وجوده. لكن رغم التناقض أو العبثية، وُجِد فيه هذان الموقفان معًا، وهما في الواقع سمة مميزة تمامًا لهذا النوع من الأشخاص.

إن القدرة على الشعور باستقلالية الذات تعني أن المرء يدرك حقًّا أنه شخصٌ منفصلٌ عن أي شخصٍ آخر. وبصرف النظر عن مدى عمق التزامي بالبهجة أو المعاناة تجاه شخص آخر، فهو ليس أنا، وأنا لسْتُ هو. وبصرف النظر عن الشعور بالوحدة أو الحزن، يمكن للمرء أن يعيش وحيدًا. وتتعارض حقيقة أن الشخص الآخر في حقيقته ليس أنا مع الحقيقة الواقعية بالقدر نفسه، وهي أن الارتباط به جزءٌ مني. إذا مات أو ابتعد، فقد رحل، لكن ارتباطي به يستمر. لكنني في النهاية لا يمكن أن أموت موت شخص آخر من أجله، ولا يمكن أن يموت موتي. ولهذا، وكما يعلق سارتر على فكرة هايدجر، لا يمكن أن يحب من أجلي أو

يتخذ قراراتي، وأنا أيضًا لا يمكن أن أفعل ذلك من أجله. باختصار، لا يمكن أن يكون أنا، ولا يمكن أن أكون هو.

إذا كان الفرد لا يشعر بأنه مستقلٌّ، فهذا يعني أنه لا يمكن أن يشعر بانفصاله عن الآخر أو ارتباطه به بالطريقة المعتادة. يتضمن عدم الإحساس بالاستقلالية شعورَ المرء بارتباط وجوده بالآخر، أو ارتباط الآخر به، بمعنى أنه ينتهك الاحتمالات الفعلية داخل بنية العلاقة الإنسانية. ويعني هذا أن شعور المرء بأنه في وضع اعتماد أنطولوجي على الآخر (أي أنه يعتمد على الآخر في وجوده ذاته)، يستبدل به إحساس القرابة والارتباط به على أساس التبادل الحقيقي. يُنظر إلى الانفصال والعزلة على أنهما البديل الوحيد لارتباط يشبه ارتباط البطلينوس أو مصاص الدماء حيث يكون دم الشخص الآخر ضروريًّا لبقاء المرء حيًّا، ومع ذلك فهو يمثِّل تهديدًا لبقاء المرء حيًّا. وبالتالي يكون الاستقطاب بين العزلة الكاملة أو الدمج الكامل للهوية وليس بين الانفصال والارتباط. يتأرجح الفرد بشكلٍ دائمٍ بين الطرفين، وكلٌّ منهما غير ممكن. يعيش إلى حدٍّ ما مثل تلك الألعاب الميكانيكية التي لها مدارية إيجابية تدفعها نحو التحفيز حتى تصل إلى نقطة معينة، حيث تبعدها بناءً على المدارية السلبية الضمنية، حتى تستعيد المدارية الإيجابية مرة أخرى، وهذا التذبذب إعلانٌ متكرر إلى **ما لا نهاية**.

قال جيمس إن الناس الآخرين ضروريون لوجوده. وكان مريضٌ آخر، في الورطة الأساسية نفسها، يتصرف بالطريقة التالية: بقي منفصلًا

في عزلة عن العالم لأشهر، يعيش وحيدًا في غرفة، يعيش ببساطة على بعض المدخرات، مع أحلام اليقظة. لكنه بهذا التصرف، بدأ يشعر باحتضار داخلي؛ ازداد شعوره بالخواء، ولاحظ «تدهورًا تدريجيًّا لنمط حياتي». وكان قدرٌ كبيرٌ من كبريائه واحترامه لذاته متورطًا في وجوده بمفرده، لكنه كان يخرج، مع تقدم حالة تموه شخصيته، إلى الحياة الاجتماعية في غزوة قصيرة للحصول على «جرعة» من الأشخاص الآخرين، لكنها «ليست جرعة زائدة». كان مثل مدمن كحول يعربد فجأة بين فترات من التوقف، إلا أن الإدمان، في حالته، وكان خائفًا منه وخجولًا مثل أي مدمن كحول أو مدمن مخدرات تائب، كان على الآخرين. في فترة قصيرة، يشعر أنه في خطر الوقوع في الدائرة التي دخلها، وينسحب مرة أخرى إلى عزلته في حالة ارتباك من اليأس المرعب والشك والعار.

ونوضح بعض النقاط التي ناقشناها من قبل في الحالتين التاليتين:

الحالة الأولى: القلق في الشعور بالوحدة. كانت المشكلة التي جاءت بها مسز R الفزع من التواجد في الشارع (رهاب الخلاء)[1]. بالفحص الدقيق، اتضح أن قلقها نشأ حين بدأت تشعر بالوحدة في الشارع أو في أي مكان آخر. كان من الممكن أن تكون وحيدة طالما كانت لا تشعر أنها وحيدة حقًّا.

---

(١) رهاب الخلاء agoraphobia: الخوف الشديد أو غير المنطقي من دخول الأماكن المفتوحة أو المزدحمة، أو مغادرة المنزل، أو التواجد في أماكن يصعب الهروب منها، وقد يكون مرتبطًا بنوبات الهلع (المترجم).

باختصارٍ، كانت قصتها كما يلي: كانت طفلة وحيدة منعزلة، لم يكن في عائلتها إهمالٌ أو عداءٌ صريحٌ، ومع ذلك، شعرت أن والديها كانا دائمًا منهمكين معًا ولم يكن أيٌّ منهما يلاحظها قطٌّ. نشأت وهي ترغب في سد هذه الفجوة في حياتها لكنها لم تنجح قط في الاكتفاء ذاتيًّا أو الاستغراق في عالمها الخاص. كانت تتوق دائمًا إلى أن تكون مهمة بالنسبة إلى **شخص آخر** وتحظى باهتمامه. وكان لا بُدَّ من وجود شخص آخر باستمرارٍ. كانت تفضِّل أن تكون محبوبة ومثيرة للإعجاب، وإذا لم يحدث ذلك، تفضِّل الكراهية كثيرًا على ألَّا ينتبه إليها أحدٌ. كانت تريد أن **تحظى باهتمام** شخصٍ آخر بأي قدرٍ، على عكس ذاكرتها الدائمة عن نفسها وهي طفلة لا تحظى باهتمام والديها حقًّا، لا يحبَّانها ولا يكرهانها، ولا يعجبان بها ولا يخجلان منها كثيرًا.

نتيجة لذلك، حاولت النظر إلى نفسها في مرآتها لكنها لم تتمكَّن قطٌّ من إقناع نفسها بأنها **شخصٌ ما**. لم تكن تتغلَّب على الخوف إذا لم يكن هناك أحدٌ.

كبرت لتصبح فتاة جذابة للغاية وتزوجت في السابعة عشرة من أول رجل انتبه إليها حقًّا. بشكلٍ مميزٍ، بدا لها أن والديها لم يلاحظا أي لغطٍ يحدث في ابنتهما حتى أعلنت أنها خطبت. شعرت بالانتصار والثقة بنفسها في ظل دفء انتباه زوجها، لكنه كان ضابطًا بالجيش وقد أرسل لخارج البلاد لفترة وجيزة. لم تستطع الذهاب معه، وفي هذا الانفصال شعرت بهلعٍ شديدٍ.

وعلينا أن نلاحظ أن ردَّ فعلها على غياب زوجها لم يكن اكتئابًا أو

حزنًا توقًا أو اشتياقًا إليه. كان هلعًا (كما قد أقترح) نتيجة تحلل شيء ما فيها، شيء يدين بوجوده لحضور زوجها واهتمامه المستمر. كانت زهرة تذبل إذا لم يسقط المطر يومًا. ومع ذلك، جاءت المساعدة لها بمرض مفاجئ لأمها؛ تلقَّت نداءً عاجلًا للمساعدة من أبيها، طالبًا منها الحضور لرعاية أمها. في العام التالي، في أثناء مرض أمها، لم تشعر بنفسها قطُّ، بتعبيرها، بمثل هذا القدر؛ كانت محور الأسرة. لم يكن يظهر أي أثر للهلع إلا بعد وفاة أمها حين بدأت تنشغل كثيرًا باحتمال أن تغادر المكان الذي كانت أخيرًا تعني فيه الكثير، للانضمام إلى زوجها. جعلتها خبرتها في العام الماضي تشعر للمرة الأولى أنها أصبحت الآن ابنة والديها. في مقابل ذلك، الآن لم يعد ضروريًّا إلى حدٍّ ما أن تكون زوجة.

مرة أخرى، نلاحظ غياب الأسى على وفاة أمها. في هذا الوقت بدأتْ في حساب فرص وجودها وحيدة في العالم. ماتت أمها، ثم يكون هناك أبوها، ربما زوجها: «بعد ذلك - عدم». لم يصبها هذا بالكآبة، بل بالفزع.

ثم انضمَّت إلى زوجها في الخارج وعاشت حياة سعيدة لبضع سنوات. كانت تتوق إلى كل الاهتمام الذي يمكن أن يمنحه إياها ولكنه بدأ يقل تدريجيًّا. كانت متوترة وغير راضية. انفصلت عن زوجها وعادت لتعيش في شقة في لندن مع أبيها. وهي تقيم مع أبيها، أصبحت عشيقة نحاتٍ وموديلًا له، وبهذه الطريقة عاشت عدة سنوات قبل أن أراها وهي في الثامنة والعشرين.

هذه هي الطريقة التي كانت تتحدث بها عن الشارع: «في الشارع يأتي الناس ويمارسون أعمالهم. نادرًا ما تقابل شخصًا يتعرَّف عليك، حتى لو تعرَّف عليك، تكون مجرد إيماءة وهو يمر أو تجري معه محادثة تستغرق بضع دقائق على الأكثر. لا أحد يعرف من أنت. ينهمك الجميع في أنفسهم. لا أحد يهتم بك». وأعطت أمثلة لأشخاص أغمي عليهم ولم يهتم بهم أي شخص. «لا أحد يأبه». في هذا الوضع وهي تفكر في هذه الأمور، شعرت بالقلق.

كان هذا القلق نتيجة التواجد في الشارع وحيدة أو بالأحرى نتيجة الشعور بالوحدة. إذا خرجتْ مع شخص يعرفها حقًّا أو التقتْ به، لا تشعر بالقلق.

كانت في شقة أبيها وحيدة غالبًا، لكن الأمر مختلفٌ. هناك لم تشعر قطٌّ بأنها بمفردها حقًّا. كانت تعد له الفطور. وترتب الأسرَّة، وتغسل، لأطول فترة ممكنة. كان منتصف النهار يمر ببطء. لكنها لم تكن تهتم كثيرًا. «كان كل شيء مألوفًا». كان هناك كرسي أبيها ورف غليونه. كانت هناك صورة لأمها على الحائط وهي تنظر إليها. بدا كأن كل هذه الأشياء المألوفة تضيء المنزل بطريقة ما بحضور من امتلكوها واستخدموها ولو في جزء من حياتهم. وهكذا، ورغم أنها كانت بمفردها في المنزل، فإنها كانت دائمًا قادرة على أن يكون معها شخصٌ ما بطريقة سحرية، لكن هذا السحر كان يتبدَّد في ضجيج الشارع المزدحم وتجاهله.

إن التطبيق غير الدقيق لما يُفترض غالبًا أن يكون نظرية التحليل النفسي الكلاسيكي للهستيريا لهذه المريضة قد يحاول إظهار أن هذه

المرأة ترتبط شهوانيًّا ارتباطًا لا شعوريًّا بأبيها، ونتيجة لذلك، يظهر إحساسٌ لا شعوري بالذنب وحاجة لا شعورية للعقاب و/ أو الخوف منه. يبدو أن فشلها في تطوير علاقات جنسية دائمة بعيدًا عن أبيها يدعم الرأي الأول، إلى جانب قرارها بالعيش معه، لتحل محل أمها، إذا جاز التعبير، وحقيقة أنها قضت معظم يومها، وهي امرأة في الثامنة والعشـرين، تفكر فيه بالفعل. إن إخلاصها لأمها في مرضها الأخير قد يكون جزئيًّا نتيجة إحساسها اللا شعوري بالذنب بسبب ازدواجيتها اللا شعورية تجاه أمها، وقلقها من وفاة أمها قد يكون قلقًا من رغبتها اللا شعورية في وفاة أمها، إلخ.[1]

ومع ذلك، فإن القضية المركزية أو المحورية في حياة هذه المريضة لا تكتشف في «اللا شعور»؛ إنها واضحة بالنسبة إليها تمامًا بحيث تراها، وكذلك بالنسبة إلينا (مع أن هذا لا يعني أنه لا توجد أشياء كثيرة لا تدركها هذه المريضة عن نفسها).

النقطة المحورية التي تتمحور حولها كل حياتها هي **افتقارها إلى الاستقلالية الأنطولوجية**. إذا لم تكن في حضورٍ فعلي لشخص آخر يعرفها، أو إذا لم تنجح في استحضار هذا الشخص في غيابه، يهرب منها إحساسُها بهويتها. يمحو هلعُها وجودَها. إنها مثل تينكر بيل.[2] لتوجد تحتاج إلى شخص آخر يؤمن بوجودها. كم كان من الضـروري

(١) للحصول على مساهمات قيمة جدًّا للتحليل النفسي لتشكيل الأعراض «الهستيرية» بجلاء، انظر سيجال Segal (١٩٥٤).

(٢) تينكر بيل: شخصية خيالية من مسرحية الروائي الأسكتلندي ج. م. باري (١٨٦٠-١٩٣٧) بعنوان بيتر بان (١٩٠٤) (المترجم).

أن يكون حبيبها نحاتًا وأن تكون موديلًا له! كم كان حتميًّا، بالنظر إلى هذه الفرضية الأساسية لوجودها، أن تغرق في القلق حين لا يتم التعرف على وجودها. بالنسبة إليها، أن تُدرَك؛ أن تُرى، أي ليس كعابرة مجهولة أو معروفة بشكلٍ عرضي. كان هذا الشكل من الرؤية هو الذي **أصابها بالتحجر**. إذا شوهدت **بوصفها** مجهولة، حيث لا يهتم بها أحدٌ اهتمامًا خاصًّا أو بوصفها شيئًا، لم تكن إذن شخصًا بشكل خاص. كانت كما يُنظَر إليها. إذا لم يكن هناك من يراها، حاليًّا، كان عليها أن تحاول استحضار شخص ما (الأب، الأم، الزوج، الحبيب، في أوقات مختلفة من حياتها) تشعر أنها تهمُّه، كانت **شخصًا** بالنسبة إليه، وتتخيل نفسها في حضوره. إذا ابتعد أو مات هذا الشخص الذي تعتمد عليه، لا تشعر بالحزن، بل بالهلع.

لا يمكن للمرء أن يحوِّل مشكلتها المركزية إلى «اللا شعور». إذا اكتشف المرء أن لديها فانتازيا لا شعورية بأنها عاهرة، فإن ذلك لا يفسر قلقها من المشي في الشوارع، أو انشغالها بالنساء اللائي يسقطن في الشارع ولا يساعدهن أحدٌ لينهضن مرة أخرى. على العكس من ذلك، يمكن تفسير الفانتازيا اللا شعورية وفهمها من منظور القضية المركزية التي تتضمن كيانها وأن تكون كيانًا مكتفيًا بذاته. خوفها من وجودها وحيدة ليس «دفاعًا» ضد فانتازيا زنا المحارم أو العادة السرية. كان لديها فانتازيا تتعلق بزنا المحارم. **كانت هذه الفانتازيا دفاعًا ضد الخوف من أن تكون وحيدة**، كما كان «تعلقها» الكامل بأن تكون ابنة، كانت وسائل للتغلُّب على قلقها من أن تكون بمفردها. قد تكون للفانتازيا اللا

شعورية عند هذه المريضة معنى مختلف تمامًا إذا كان موقعها الوجودي الأساسي يوفر لها نقطة انطلاق في ذاتها يمكن أن تتركها وراءها، كأنها تسعى لتحقيق إشباع ما. في ظل تلك الظروف، **كانت حياتها الجنسية وفانتازياها جهودًا، ليس لتحقيق الإشباع في المقام الأول، بل للبحث عن الأمان الأنطولوجي أولا**. في ممارسة الحب، تحقق وهم هذا الأمان، وعلى أساس هذا الوهم كان الإشباع ممكنًا.

ومن الخطأ الفادح وصف هذه المرأة بالنرجسية في أي تطبيق مناسب للمصطلح. كانت عاجزة عن الوقوع في حب صورتها. ومن الخطأ تحويل مشكلتها إلى مراحل من التطور النفسي الجنسي، الفموي، الشرجي، التناسلي. قبضت على النشاط الجنسي كما تقبض على قشة بمجرد أن «بلغت السن». لم تكن تعاني من البرود الجنسي، وكان من الممكن أن يحقق الأورجازم الإشباع الجسدي إذا شعرت بأمانٍ مؤقت بالمعنى الأنطولوجي السابق. في ممارسة الجنس مع شخص يحبها (وكانت قادرة على الإيمان بأن شخصًا آخر يحبها)، ربما تكون قد حققت أفضل لحظاتها، لكن هذه اللحظات لم تدم طويلًا، لم تستطع أن تكون بمفردها أو أن تترك حبيبها وحده وهو معها.

إن حاجتها إلى الانتباه إليها قد تسهل تطبيق أكلشيه آخر عليها، كانت استعراضية. مرة أخرى، لا يكون هذا المصطلح صالحًا إلا إذا فُهِم فهمًا وجوديًّا. وهكذا، ونناقش هذا بمزيدٍ من التفصيل لاحقًا، «تباهت بنفسها» بينما لم «تفرط في نفسها قط». وهذا يعني أنها استعرضت نفسها بينما كانت تصون نفسها دائمًا (تكبتها)، وبالتالي كانت دائمًا

بمفردها وكانت تشعر بالوحدة مع أن مشكلتها لم تكن في التواجد مع أشخاص آخرين ظاهريًّا، كانت مشكلتها **أقل ما تكون** وهي مع شخص آخر. لكن من الواضح أن إدراكها للوجود المستقل للآخرين كان في الواقع ضعيفًا تمامًا مثل إيمانها باستقلاليتها. إذا لم يكونوا هناك، لم يعودوا موجودين بالنسبة إليها. كان الأورجازم وسيلة لامتلاك نفسها، بأن تضم بين ذراعيها الرجل الذي يمتلكها. لكنها لم تستطع أن تكون نفسها، وبالتالي لم تستطع أن تكون نفسها حقًّا على الإطلاق.

الحالة الثانية: الظاهرة الأكثر إثارة للفضول في الشخصية، الظاهرة التي لوحظت لقرون، لكنها لم تحظَ بعد بتفسيرٍ كاملٍ، ظاهرة يبدو فيها الفرد كأنه المحرك لشخصية غير شخصيته. يبدو أن شخصية شخص آخر «تتملَّكه» وتجد التعبير عنها من خلال كلماته وأفعاله، بينما «تضيع» شخصية الفرد أو «تختفي» مؤقتًا. يحدث هذا بدرجاتٍ متفاوتة من السوء. ويبدو أن كل درجات العملية الأساسية نفسها تتوفر فيها، من الملاحظة البسيطة الحميدة بأنه «يشبه شخصية أبيه» في كذا وكذا، أو أن «مزاجها يشبه مزاجه»، إلى الضيق الشديد لشخص يجد نفسه تحت تأثير قهر ليتقمص سمات شخصية ربما يكرهها و/ أو يشعر أنها غريبة تمامًا عن شخصيته.

هذه الظاهرة بالغة الأهمية في إحداث اضطراب في إحساس المرء بهويته حين تحدث بشكل قهري ومرفوض. والخوف من حدوث ذلك أحد عوامل الخوف من الابتلاع والانهيار. قد يخشى المرء أن يعجب بأي شخص لأنه يجد أنه مجبرٌ على أن يصبح مثل أي شخص يعجبه.

كما أحاول أن أوضح لاحقًا، هذا هو أحد دوافع الانسحاب الفصامي.

وتتضح في الحالة التالية الطريقة التي تتغير بها ذات الفرد وشخصيته بعمقٍ حتى لدرجة التهديد بفقدان هويته أو إحساسه بالواقع بالانغماس بمثل هذه الهوية الفرعية الغريبة:

مسز .D، امرأة في الأربعين، كانت تشكو أساسًا من خوفٍ غامضٍ لكنه شديدٌ. قالت إنها تخاف من كل شيء، «حتى من السماء». اشتكت من إحساس دائم بعدم الرضا، ومن نوبات غضب لا تُعَد تجاه زوجها، وخاصة بسبب «عدم الإحساس بالمسؤولية». كان خوفها «يبدو كأن شخصًا ما يحاول النهوض من الداخل ويحاول الخروج مني». كانت تخاف بشدة من أن تكون مثل أمها التي تكرهها. ما وصفته بأنه «عدم الثقة» كان شعورًا بالحيرة والارتباك ربطته بحقيقة أنها لم تفعل شيئًا بدا أنه يرضي والديها. إذا فعلت شيئًا وقيل لها إنه خطأ، تفعل شيئًا آخر وتجد أنهما ما زالا يقولان إنه خطأ. كانت عاجزة، بتعبيرها، عن اكتشاف «ماذا يريدان أن أكون». عاتبت والديها على هذا قبل كل شيء، على أنهما لم يعطياها أي طريقة لمعرفة من هي حقًّا أو ما هي أو ما يجب أن تكون. لا يمكن أن تكون سيئة أو جيدة بأي قدر من «الثقة» لأن والديها كانا، أو شعرت أنهما، لا يمكن التنبؤ بموقفهما تمامًا، ولا يمكن الاعتماد عليهما في تعبيرهما عن الحب أو الكراهية أو الموافقة أو الرفض. بأثرٍ رجعي، خلصت إلى أنهما كانا يكرهانها، لكنها قالت إنها الآن في حيرة من أمرهما وقلقة جدًّا بدرجة لا تسمح لها باكتشاف ما كان يُتوقَّع أن تكون لتقدر على أن تكرههما، ناهيك عن أن تحبهما.

قالت الآن إنها تبحث عن «الراحة». كانت تبحث عندي عن خيطٍ يعطيها مؤشرًا للمسار الذي يجب أن تسلكه. وجدت أن موقفي غير المباشر[١] صعب التحمل بشدة لأنه بدا لها تكرارًا لموقف والدها: «لا تطرح أي سؤال ولن تسمع أي كذب».[٢] لفترة، تعرضت للتفكير القهري، حيث اضطرت إلى طرح أسئلة من قبيل: «ما الغرض من هذا؟» أو «لماذا هذا؟»، ولتزويد نفسها بالإجابات، فسَّرت ذلك لنفسها بأنه جهد تبذله لتستريح من أفكارها لأنها لا تستطيع أن تستمد الراحة من أي شخص. بدأت تشعر باكتئابٍ شديدٍ وتشكو شكاوى عديدة تتعلق بمشاعرها، قائلة يا لها من شكاوى طفولية، وتحدثت كثيرًا عن مدى أسفها على نفسها.

بدا لي الآن أنها لم تكن آسفة حقًّا على نفسها الحقيقية، بدت لي كأنها أم كثيرة الشكوى تشكو من طفلٍ مزعج. في الواقع، بدت كأن أمها «تخرج منها» طول الوقت، وتشكو من طفولتها. لم يكن ذلك فيما يتعلق بالشكاوى التي تخصها، ولكن فيما يتعلق بنواحٍ أخرى أيضًا. على سبيل المثال، مثل أمها، ظلَّت تصرخ في وجه زوجها وطفلها؛ مثل أمها[٣] كرهت الجميع، ومثل أمها بكت باستمرارٍ. في الواقع، كانت

(١) غير المباشر non-directive: أو غير التوجيهي، مقاربة في العلاج النفسي ينشئ فيها المعالج جوًّا مشجعًا، ويوضح أفكار المريض بدلًا من توجيهه بشكلٍ مباشر، وهي مقاربة دعا إليها في الأصل كارل روجرز (المترجم).

(٢) الاقتباس من تشارلز ديكنز (المترجم).

(٣) أي مثل مفهومها لما كانت عليه أمها. لم أقابل أمها قطٌّ، وليس لديَّ أي فكرة عمَّا إذا كان تخيلات أمها تشبه أمها كشخص حقيقي.

الحياة بالنسبة إليها بؤسًا لأنها لا يمكن أن تكون نفسها أبدًا لكنها كانت أمها دائمًا. ومع ذلك، كانت تعرف أنها نفسها الحقيقية حين تشعر بالوحدة والضياع والخوف والحيرة. وكانت تعرف أيضًا أنها ورطتها في أن تغضب أو تكره أو تصرخ أو تبكي أو تشكو، لأنها إذا شعرت أنها بهذا الشكل (أي أنها أمها)، فلن تشعر بالخوف بعد الآن (والثمن ألا تكون نفسها، وكان هذا صحيحًا). ومع ذلك، فإن الحركة العكسية لهذه المناورة أنها تعرضت للقمع، حين مرَّت العاصفة، بإحساسٍ عبثي (لأنها لم تكن نفسها) وكراهية الشخص الذي كانت عليه (أمها) ونفسها بسبب ازدواجية الذات. إلى حدٍّ ما، كان على هذه المريضة، بمجرد إدراكها لهذه الطريقة الزائفة للتغلب على القلق الذي تعرضت له حين تكون نفسها، أن تقرر إن كان تجنب التعرض لمثل هذا القلق، بتجنب أن تكون نفسها، علاجًا أسوأ من مرضها. الإحباط الذي شعرت به معي، وآثار كراهية شديدة لي، لم يكن من الممكن تفسيره كله بالإحباط الناجم عن الدوافع الشهوانية أو العدوانية في عملية الإحالة transference، لكنه ما يمكن للمرء أن يسمِّيه الإحباط الوجودي الذي نشأ عن حقيقة أنني، بحجبِ «الراحة» عنها، وقد سعت إلى الحصول عليها مني، لأنني **لم أخبرها بما يجب أن تكون عليه**- كنت أفرض عليها ضرورة أن تتخذ قرارها بشأن الشخص الذي تصبح عليه. تفاقم شعورها بأنها حُرمت من حقها الطبيعي لأن والديها لم يقوما بمسؤوليتهما تجاهها بإعطائها تعريفًا لنفسها يمكن أن يكون بمثابة نقطة انطلاق لها في الحياة برفضي

تقديم هذه «الراحة». لكن فقط بالحجب، كان من الممكن توفير بيئة يمكن أن تحمل خلالها هذه المسؤولية بنفسها.

بهذا المعنى، كانت المهمة في العلاج النفسي، باستخدام تعبير ياسبرز، احتكامًا لحرية المريض. ويكمن قدرٌ كبيرٌ من المهارة في العلاج النفسي في القدرة على القيام بذلك بفاعلية.

* * *

الجزء الثاني

٤

الذات المجسدة وغير المجسدة

حاولتُ حتى الآن وصفَ بعض المخاوف التي تمثِّل جوانب من عدم الأمان الأنطولوجي الأساسي. تنشأ هذه المخاوف في هذا الوضع الوجودي المحدد وهي وظيفة من وظائفه. حين يكون الإنسان آمنًا في كيانه، لا تنشأ بالقوة أو الاستمرارية نفسها، لعدم وجود فرصة لها لتنشأ وتستمر بهذا الشكل.

في غياب مثل هذا الأمان الأساسي، تستمر الحياة رغم ذلك. والسؤال الذي على المرء أن يحاول الإجابة عنه الآن هو ما شكل العلاقة التي يطورها الشخص غير الآمن أنطولوجيًّا مع نفسه. أحاول أن أبيِّن كيف يبدو أن بعض هؤلاء الأشخاص لا يحسون بذلك الاتحاد الأساسي الذي يمكن أن يبقى خلال أشد الصراعات مع الذات، لكن يبدو أنهم بالأحرى يشعرون بذواتهم منقسمة أساسًا إلى عقلٍ وجسدٍ. ويشعرون عادة بأنهم يتماهون بأقوى شكلٍ مع «العقل».

ويهتم باقي هذا الكتاب أساسًا ببعض نتائج هذه الطريقة الأساسية التي يمكن من خلالها لكيان المرء أن يتسق داخليًّا. ويُعتبَر هذا الانقسام محاولة للتعامل مع عدم الأمان الأساسي الضمني. في بعض الحالات قد

يكون وسيلة للعيش بشكلٍ فعَّال معه أو حتى محاولة للتسامي عليه، لكن من الممكن أيضًا أن يديم المخاوف التي تعتبر إلى حدٍّ ما دفاعًا ضده، وقد يوفر نقطة بداية لخطٍّ من التطور ينتهي بالذهان. وهذا الاحتمال الأخير موجودٌ دائمًا إذا بدأ الفرد في التماهي حصريًّا مع جزئه الذي يشعر بأنه **غير مجسد**. في هذا الفصل أقارن أولًا، بشكل تخطيطي، وبأكثر المصطلحات عمومية، الذات **المجسدة** مع الذات **غير المجسدة**، بعد ذلك، في الفصول اللاحقة، أترك جانبًا كل احتمالات هذا الموقف التي لا تدفع أي شخص إلى زيارة طبيب نفسي لأنه مريضٌ، وأتتبع ببعض من التفصيل تلك النتائج المترتبة على هذا الموقف التي تؤدي إلى اضطرابٍ شديدٍ في وجود الفرد ككل، ويمكن أن تؤدي بالتالي إلى الذهان.

الذات المجسدة وغير المجسدة:

يشعر كلُّ شخص، حتى أقل الأشخاص تجسدًا، بأنه يرتبط ارتباطًا وثيقًا بجسده أو في جسده. في الظروف العادية، بقدر ما يشعر المرء بأن جسده حيٌّ وحقيقي وجوهري، يشعر بأنه حي وحقيقي وجوهري. يشعر معظم الناس أنهم بدؤوا حين بدأت أجسادهم وينتهون حين تموت أجسادهم. يمكننا القول إن مثل هذا الشخص يشعر بأنه **مجسدٌ**.

ومع ذلك، ليس من الضروري أن يكون الأمر كذلك. بصرف النظر تمامًا عن أولئك الأشخاص «العاديين» الذين يشعرون في لحظات التوتر بأنهم منفصلون جزئيًّا عن أجسادهم، هناك أفرادٌ لا تستوعبهم أجسادهم في حياتهم، بل يرون أنهم، كما كانوا دائمًا، منفصلون إلى حدٍّ ما عن أجسادهم. عن مثل هذا الشخص، يمكن للمرء أن يقول إنه

لم يتجسد قط، وقد يتحدث عن نفسه على أنه غير مجسد إلى حدٍّ ما. هنا لدينا اختلافٌ أساسي في وضع الذات في الحياة. لدينا تقريبًا، إذا كان التجسيد أو عدم التجسيد كاملًا في أي من اتجاه، طريقتان مختلفتان ليكون المرء إنسانًا. وقد يعتبر معظم الناس أن الأولى طبيعية وصحية والأخيرة غير طبيعية ومَرَضية، ولا صلة لهذه الدراسة بمثل هذا التقييم تمامًا. من وجهات نظر معينة، يمكن للمرء أن يعتبر التجسيد مطلوبًا. من الممكن أن نقترح من وجهة نظر أخرى أن على الفرد أن يحاول الانفصال عن جسده وبالتالي يحقق حالة مطلوبة من الروحانية غير المجسدة.(١)

لدينا وضعان وجوديان أساسيان. لا يمنع اختلاف الوضع كل قضية أساسية، الجيد والسيِّئ، الحياة والموت، الهوية، الواقع والخيالي، من أن تظهر في سياقٍ كما تظهر في الآخر، لكن السياقات المختلفة اختلافًا جذريًا التي تحدث فيها تحدد الطرق الأساسية التي عاشت فيها. يتطلب هذان الاحتمالان المتطرفان الفحص من منظور الطريقة التي قد يشعر بها الفرد، الذي يقترب موقعه من أحد هذه الاحتمالات، بعلاقته بالأشخاص الآخرين والعالم.

---

(١) يقدم بويتمان Buitmann، على سبيل المثال، في كتابه المسيحية البدائية Primitive Christianity (١٩٥٦) وصفًا موجزًا ممتازًا للمثال الغنوصي لانفصال الروح (الذات الحقيقية) والجسد. صُوِّر الفداء على أنه انتهاك كامل لتفكك الروح والجسد. يقتبس نصًّا غنوصيًّا على النحو التالي: «[الجسد هو] السجن المظلم، والموت الحي، والجثة التي تمنح الإحساس، والقبر الذي تحمله معك، والقبر الذي تتنقل معه، والرفيق اللص الذي يدبر لك مؤامرة في محبتك، ويحسدك في كراهيتك ...» (ص ١٦٩).

لدراسات انفصال العقل والجسد عن وجهة نظر سيكوباثولوجية، انظر
Clifford Scott (1949) and Winnicott (1945, 1949).

يحس الشخص المتجسد بأنه لحم ودم وعظام، وبأنه حي بيولوجيًّا وبأنه حقيقي: يعرف أنه مهم. بقدر ما يكون «في» جسده تمامًا، بقدر ما يحس بالاستمرارية الشخصية في الزمن. ويشعر أنه معرض للأخطار التي تهدد جسده، أخطار الاعتداء والتشويه والمرض والتدهور والموت. ويتورط في رغبات الجسد، وفي متع الجسد وإحباطاته. وهكذا يكون للفرد نقطة انطلاق تتمثل في شعوره بأن جسده قاعدة يمكن من خلالها أن يكون شخصًا مع بشر آخرين.

ومع ذلك، وعلى الرغم من أن كيانه لم ينشطر إلى نفسه بوصفها «عقلًا» ونفسه بوصفها جسدًا، فإنه، مع ذلك، يمكن أن ينقسم على ذاته بعدة طرق. من بعض النواحي، يكون وضعه أكثر خطورة من موقف الفرد المنفصل نوعًا ما عن جسده، لأن الفرد الأول يفتقر إلى هذا الإحساس بالأمان من الأذى الجسدي الذي يشعر به أحيانًا الشخص المجسد جزئيًّا.

على سبيل المثال، أخبرني رجلٌ حُجِز في مستشفى للأمراض النفسية فترتين طويلتين بانهيارٍ فصامي عن ردود أفعاله عند تعرضه للهجوم في زقاق في الليل، في وقت كان فيه عاقلًا تمامًا. وهو يسير في الزقاق اقترب منه رجلان من الاتجاه المعاكس، وحين أصبحا في محاذاته، ضربه أحدهما فجأة بعصا. لم تكن الضربة موجهة بدقة وذهلته للحظات فقط. ترنَّح لكنه تعافى بدرجة كافية للالتفاف ومهاجمة مهاجميه مع أنه كان أعزل، وبعد مشاجرة قصيرة هربَا.

المهم هنا طريقة استقبال هذا الرجل للحادث. حين تعرض للضرب كان رد فعله الأول الذهول، ثم، وهو لا يزال مذهولًا جزئيًا، فكر في مدى عبثية ضرب هذين الرجلين له؛ لم يكن معه مال، لم يتمكَّنا من الحصول على شيء منه. «**استطاعا ضربي فقط لكنهما لم يتمكَّنا من إلحاق أي أذى حقيقي بي**». أي أن أي ضرر لحق بجسده لا يمكن أن يؤذيه حقًّا. هناك إحساس بالطبع، فيه يمكن أن يكون مثل هذا الموقف ذروة الحكمة، على سبيل المثال، حين يؤكد سقراط أنه لا يمكن إلحاق أي أذى بإنسان صالح. في هذه الحالة، كان «هو» و«جسده» منفصلين. وفي مثل هذه الموقف كان خوفه أقل بكثيرٍ من خوف الشخص العادي، لأنه من موضعه لم يكن ما يخسره يخصُّه أساسًا. لكن حياته، من ناحية أخرى، كانت مليئة بمخاوف لا تظهر للإنسان العادي. الشخص المجسد، المتورط تمامًا في رغبات جسده ومتطلباته وأفعاله، عرضة للشعور بالذنب والقلق المصاحب لهذه الرغبات والمتطلبات والأفعال. إنه عرضة لإحباطات الجسد وإشباعه أيضًا. إن وجوده في جسده ليس ملاذًا من سحق إدانة الذات. والتجسد بهذا الشكل ليس تأمينًا ضد مشاعر اليأس أو انعدام المعنى. خارج جسده، ما زال عليه أن يعرف من هو. قد يصاب جسده بالتدهور والتسمم والموت. باختصارٍ، لا يعتبر جسد الذات معقلًا آمنًا ضد التآكل بفعل الشكوك والريبة الأنطولوجية؛ إنه في حد ذاته ليس حصنًا ضد الذهان. على العكس، شعور المرء بانقسام كيانه إلى أجزاء غير مجسدة وأجزاء مجسدة لم يعد مؤشرًا للذهان الكامن أكثر مما يكون التجسيد الكلي مؤشرًا لأي ضمان لسلامة العقل.

ومع ذلك، وعلى الرغم من أنه لا يترتب على هذا بأي حال أن الفرد المعتمد بشكل حقيقي على جسده شخص متحد وكامل، فإنه يعني أن لديه نقطة انطلاق متكاملة في هذا الصدد على الأقل. وتكون نقطة البداية هذه شرطًا مسبقًا لتسلسل هرمي للاحتمالات يختلف عن تلك المتاحة للشخص الذي يشعر بنفسه من منظور ثنائية الذات والجسد.

الذات غير المجسدة:

في هذا الموقف، يشعر الفرد أن نفسه منفصلة أو مستقلة إلى حدٍّ ما عن جسده. **يبدو الجسد كائنًا من بين كائنات أخرى في العالم أكثر مما يبدو جوهر كينونة الفرد نفسه**. بدل أن يكون الجسد جوهر ذاته الحقيقية، يبدو أنه جوهر **الذات الزائفة** التي تنظر إليها الذات المنفصلة، غير المتجسدة، «الداخلية»، «الحقيقية» بحنان، أو متعة، أو كراهية حسب الحالة.

مثل هذا الانفصال للذات عن الجسد يحرم الذات غير المجسدة من المشاركة المباشرة في أي جانب من جوانب الحياة في العالم، التي يتم التوسط فيها حصريًا من خلال تصورات الجسد ومشاعره وحركاته (التعبيرات والإيماءات والكلمات والأفعال، إلخ). إن الذات غير المجسدة، كما يفعل المشاهد على كل الجسد، لا تشارك في أي شيء بشكلٍ مباشرٍ. تصبح وظائفها الملاحظة والتحكُّم والنقد تجاه ما يشعر به الجسد ويفعله، وتلك العمليات التي يتم التحدث عنها عادة على أنها «عقلية» بحتة.

تصبح الذات غير المجسدة شديدة الوعي.

تحاول فرض صورها الخيالية[1] الخاصة.

تطور علاقة مع نفسها ومع الجسم يمكن أن تصبح شديدة التعقيد.

الآن، بينما أُجريتْ دراساتٌ كثيرة في سيكوباثولوجيا الشخص المتجسد، لم يُكتب سوى القليل نسبيًّا عن الشخص الذي ينقسم كيانه انقسامًا جذريًّا بهذه الطريقة. دُرِّستْ حالات مؤقتة للانشقاق بين الذات والجسد، بالطبع، لكن عادةً ما يُنظر إلى هذه الانشقاقات على أنها ناشئة عن وضعٍ أصلي بدأت الذات فيه مجسدة، وانشقَّت مؤقتًا تحت الضغط، وعادت إلى وضعها الأصلي المتجسد حين انتهت الأزمة.

حالة «بينية» - ديفيد:

أقدِّم سردًا مباشرًا لحالة ديفيد مع الحد الأدنى من التعليق لأنني أريد أن يعرف القارئ بوضوحٍ تام أن مثل هؤلاء الناس وهذه المشاكل موجودة في الواقع وليست من اختراعي. يمكن أن تكون هذه الحالة أيضًا أساسًا لقدرٍ كبيرٍ من المناقشة العامة في القسم التالي.

كان ديفيد في الثامنة عشرة حين رأيته، كان طفلًا وحيدًا ماتت أمه وهو في العاشرة، من حينها وهو يعيش مع أبيه. من مدرسة النحو[2]

(١) الصور الخيالية imagos: أو الإيماجو، صورة ذهنية لا شعورية لشخص آخر، وخاصة الأم أو الأب، تؤثر على طريقة تعامل الفرد مع الآخرين. تتشكل عادةً في مرحلة الرضاعة والطفولة وهي عمومًا تمثيل مثالي. استخدم المصطلح في الأصل فرويد والمحللون النفسيون الأوائل، وانتقل معناه إلى مدارس أخرى في علم النفس والعلاج النفسي (المترجم).

(٢) مدرسة النحو grammar school: (في المملكة المتحدة) مدرسة ثانوية حكومية يقبل الطلاب فيها على أساس القدرة، منذ عام ١٩٦٥ تم استيعاب معظمهم في نظام المدارس الشاملة (المترجم).

التحق بالجامعة لدراسة الفلسفة. لم يستوعب أبوه الهدف من استشارة ابنه لطبيبٍ نفسي لأنه لم يكن فيه، في رأيه، ما يستحق زيارة طبيب نفسي. ومع ذلك، كان معلم الصبي قلقًا بشأنه لأنه بدا أنه يهلوس ويتصرف بطرق غريبة إلى حدٍّ ما. على سبيل المثال، حضر محاضرات في عباءة يرتديها على كتفيه وذراعيه، حمل عصا، كانت تصرفاته كلها متكلفة تمامًا، وكان حديثه يتألَّف من اقتباسات إلى حدٍّ كبيرٍ.

كانت رواية أبيه عنه هزيلة جدًّا. كان طبيعيًّا بشكلٍ مثالي دائمًا، وكان يعتقد أن انحرافاته الحالية ببساطة نتيجة مرحلة المراهقة. كان دائمًا طفلًا رائعًا، يفعل كل ما يقال له، ولم يتسبَّب في أي مشكلة قط. كانت أمه تكرس طاقتها له، وكان لا ينفصل عنها. وكان «شجاعًا جدًّا» حين ماتت، وفعل كل شيء لمساعدة أبيه. كان يقوم بالأعمال المنزلية، ويطهو الوجبات، ويشتري معظم الطعام. «استولى» على أمه أو «سار على نهجها»، حتى إلى درجة إظهار ميلها للتطريز وزخرفة النسيج والديكور الداخلي. كل ما أثنى أبوه عليه وأشاد به عن أن الصبي كان شخصية تبدو رائعة جدًّا – شخصية كيركجارد المراهق كما مثَّلها داني كاي.[1] كان الشعر طويلاً جدًّا، والياقة كبيرة جدًّا، والبنطلون قصيرًا جدًّا، والحذاء كبيرًا جدًّا، وفوقه عباءة مسرح مستعملة وعصا! لم يكن غريب الأطوار ببساطة: لم أستطع الهروب من الانطباع بأن هذا الشاب **كان يمثِّل** أنه غريب الأطوار. كان التأثير كله مهذبًا ومفتعلًا.

---

(١) داني كاي Danny Kaye (١٩١١–١٩٨٧): ممثل أمريكي (المترجم).

لكن لماذا يرغب أي شخص في تحقيق مثل هذا التأثير؟[١] كان بالفعل ممثِّلًا متمرسًا تمامًا، لأنه كان يلعب دورًا ما على الأقل منذ وفاة أمه. قبل ذلك، كما قال: «كنت ببساطة ما تريده». وقال عن وفاتها: «بقدر ما أتذكر، كنت مسـرورًا إلى حدٍّ ما. ربما شعرت ببعض الأسى، أود أن أعتقد ذلك على أي حال». حتى وفاة أمه كان ببساطة ما تريده. بعد وفاتها لم يكن من السهل عليه أن يكون نفسه. نشأ معتبرًا أن ما أسماه «ذاته» و«شخصيته» شيئان منفصلان تمامًا. لم يتخيل قطٌّ أي احتمال آخر بجدية، واعتبر أن من المسلَّم به أن أي شخص آخر نشأ على هذا النحو. كانت وجهة نظره عن الطبيعة البشرية بشكلٍ عام أن الجميع ممثِّلون، بناءً على تجربته الخاصة مع نفسه. ومن المهم أن ندرك أن هذا كان اقتناعًا أو افتراضًا راسخًا حول البشـر الذين هيمنوا على حياته. وقد سهَّل هذا عليه أن يكون ما تريده أمه، لأن كل أفعاله كانت تنتمي ببساطة إلى دورٍ أو آخر يمثِّله. إذا كان من الممكن القول إنها تنتمي إلى نفسه عمومًا، فإنها لا تنتمي إلا إلى «الذات الزائفة»، وهي الذات التي تتصـرف وفقًا لإرادتها هي، لا إرادته.

لم تنكشف نفسه بشكلٍ مباشرٍ في أفعاله أو من خلالها. بدا أن الحالة تتمثَّل في أنه نشأ منذ طفولته مع «**ذاته الخاصة**» من ناحية، و «ما أرادت أمه أن يكون عليه»، و«شخصيته» من الناحية الأخرى، بدأ من هناك وجَعَلَ هدفه ومثاله جعْل الانقسام بين نفسه (وكان يعرفه وحده) وما يمكن أن يراه الآخرون منه، مكتملًا قدر الإمكان. كان مدفوعًا إلى

(١) لم يكن مختلفًا عن «تيرتيان Tertian» في قصة ليونيل تريلينج القصيرة الرائعة.

هذه الدورة بحقيقة أنه كان يشعر دائمًا بالخجل والارتباك والهشاشة رغمًا عنه. بتمثيل دوره دائمًا، وجد أنه استطاع التغلُّب على خجله وارتباكه وهشاشته. وجد الطمأنينة في اعتبار أنه بصرف النظر عما يفعله لم يكن هو نفسه. وهكذا، استخدم شكل الدفاع نفسه الذي سبق ذكره: في محاولة للتخفيف من القلق، فاقم الظروف التي تسببه.

كانت النقطة المهمة التي وضعها في الاعتبار دائمًا أنه يمثِّل دورًا. عادة، في ذهنه، كان يمثِّل دور شخص آخر، لكنه أحيانًا يمثِّل دور نفسه (نفسه الخاصة): أي أنه لم يكن هو نفسه ببساطة وعفوية، لكنه **يمثِّل** دور نفسه. كان هدفه المثالي **ألا يسلم نفسه للآخرين أبدًا**. وبالتالي، مارس أشد أنواع المراوغة انحرافًا تجاه الآخرين في الأدوار التي مثَّلها، ومع ذلك كان هدفه، تجاه نفسه، أن يكون صريحًا تمامًا وصادقًا قدر الإمكان.

استند تنظيم كيانه بالكامل على انفصال «ذاته» الداخلية عن «شخصيته» الخارجية. ومن اللافت أن هذه الحالة وُجِدتْ لسنوات من دون «شخصيته»، أي أن طريقته في التصرف مع الآخرين تبدو غير عادية.

لا يمكن للمظهر الخارجي أن يكشف حقيقة أن «شخصيته» لم تكن تعبيرًا حقيقيًّا عن الذات، لكنها كانت إلى حدٍّ كبيرٍ سلسلة من عمليات **انتحال الشخصية**. كان الدور الذي رأى أنه يمثِّله معظم أيام دراسته دورَ تلميذٍ مبكر النضج إلى حدٍّ ما يتمتع بذكاء حاد، لكنه بارد نوعًا ما. ومع ذلك، قال إنه أدرك وهو في الخامسة عشرة أن هذا

الدور أصبح لا يحظى بشعبية لأنه «دور بلسان قذر». وبناءً على ذلك، قرر تعديل هذا الدور إلى شخصية محبوبة أكثر، «بنتائج جيدة». ومع ذلك، كانت جهوده للحفاظ على هذا التنظيم لكيانه مهددة بطريقتين، الأولى لم تضايقه بجدية. كان من الخطر أن يكون عفويًّا. كممثل، كان يرغب دائمًا في الانفصال عن الدور الذي يلعبه، وبالتالي شعر أنه سيد الموقف، بسيطرة واعية تمامًا على تعبيراته وأفعاله، وحساب تأثيرها على الآخرين بدقة. مجرد غباء أن يكون عفويًّا. إنه أمر يجعل المرء يضع نفسه ببساطة تحت رحمة الآخرين.

كان التهديد الثاني أكثر واقعية، وهو التهديد الذي لم يضعه في الحسبان. إذا كان لديه مصدر شخصي لشكوى يقدمها إليَّ، فإنه يعتمد على هذا التهديد، الذي بدأ بالفعل في إعاقة كل أساليب حياته.

طول طفولته، كان مولعًا جدًّا بتمثيل أدوار أمام المرآة. الآن أمام المرآة استمر في تمثيل أدوار، لكن في هذه الحالة الخاصة، سمح لنفسه بالانغماس في الدور الذي يلعبه (ليكون عفويًّا). شعر أنه هلاكه. كانت الأدوار التي يلعبها أمام المرآة أدوارًا نسائية دائمًا. كان يرتدي ملابس والدته، وكانت محفوظة. تدرَّب على أدوار نسائية من التراجيديات العظيمة، لكنه وجد بعد ذلك أنه لا يستطيع التوقف عن لعب دور المرأة. وجد نفسه يمشي بشكلٍ قهري مثل امرأة، ويتحدث مثل امرأة، حتى إنه يرى ويفكر كما يمكن أن ترى امرأةٌ وتفكر. كان هذا وضعه الحالي، وكان هذا تفسيره لأسلوبه الفانتازي لارتداء الملابس. لأنه، كما قال، وجد أنه مدفوعٌ إلى ارتداء الملابس والتصرف بأسلوبه الحالي باعتباره

الطريقة الوحيدة للتوقف عن الدور النسائي الذي لم يهدد بابتلاع أفعاله فقط بل وحتى بابتلاع نفسه «الخاصة» أيضًا، ويسلبه سيطرته العزيزة وسيادته على كيانه. لم يستطع أن يفهم ما دفعه للعب هذا الدور الذي يكرهه ويعرف أن الجميع يسخرون منه. لكن هذا الدور «الفصامي» كان الملاذ الوحيد الذي يعرفه منذ أن اجتاحته المرأة التي كانت داخله تمامًا، وكانت تبدو دائمًا أنها تخرج منه.

هذا هو نوع الشخص الذي نناقشه في الصفحات التالية. من الواضح أنه لن يكون من الممكن فهم نوع الشخص الذي يعتبر ديفيد مثاله «النموذجي» من دون التفكير بمزيدٍ من التفصيل في هذا النوع من التنظيم شبه الفصامي. في حالة ديفيد، علينا أن نصِف بالتفصيل طبيعة ذاته «الخاصة»، وعلاقتها «بشخصيته»، وأهمية «الارتباك» و «الهشاشة» بالنسبة إليه، ومعنى انتحاله المتعمد للشخصيات، والطريقة التي تقحم بها «الشخصية» الغريبة نفسها itself (نفسها herself) في «شخصيته»، على ما يبدو بشكلٍ مستقلٍّ وخارج سيطرته، وتهدد وجود ذاته «الخاصة».

الانقسام المركزي هو بين ما يسميه ديفيد ذاته «الخاصة» وما يسميه «شخصيته». يُقابَل هذا الانقسام الثنائي كثيرًا. ما يسميه الفرد بأشكالٍ مختلفة ذاته «الخاصة» و"الداخلية» و"الحقيقة» و"الواقعية»، يشعر بأن الذات منفصلة عن كل نشاطٍ يمكن أن يلاحظه شخصٌ آخر، وهو ما يسميه ديفيد «شخصيته». يمكن للمرء أن يطلق على هذه «الشخصية» بشكلٍ ملائم «الذات الزائفة» للفرد أو «نظام الذات الزائفة» للفرد.

السبب الذي يجعلني أقترح أن يتحدث المرء عن نظام الذات الزائفة هو أن «الشخصية»، أو الذات الزائفة، أو القناع، أو «الواجهة»، أو الشخصية المظهرية persona الذي يرتديها هؤلاء الأفراد قد تتكون في مزيج من الذوات الجزئية المختلفة، ولا يكون أيٌّ منها متطورًا تمامًا بحيث تكون لها «شخصية» شاملة خاصة. يكشف التعارف الوثيق مع مثل هذا الشخص أن سلوكه الذي يمكن ملاحظته قد يشتمل على انتحال متعمد تمامًا للشخصيات جنبًا إلى جنب مع أفعال قهرية من كل نوعٍ. ومن الواضح أن المرء ليس شاهدًا على ذات زائفة واحدة ولكن على عددٍ من الشظايا الدقيقة جزئيًّا فقط لما يمكن أن يشكِّل شخصية، إذا كان لأي شخصية هيمنة كاملة. وبالتالي يبدو من الأفضل تسمية مجموع هذه العناصر بنظام الذات الزائفة أو نظام الذوات الزائفة.

عادة ما تكون الذات في مثل هذا التنظيم شبه الفصامي غير مجسدة إلى حدٍّ ما. تبدو كيانًا عقليًّا. تدخل في الحالة التي دعاها كيركجارد «الصمت». لا تبدو أفعال الفرد تعبيرات عن نفسه. تصبح أفعاله، كل ما يسميه ديفيد «شخصيته» واقترحْتُ تسميته بنظام الذات الزائف، منشقة ومستقلة جزئيًّا. لا يبدو أن الذات تشارك في أفعال الذات الزائفة أو الذوات الزائفة، وتبدو كل أفعالها تزداد زيفًا وتفاهة. من ناحية أخرى، تعتبر الذات، الصامتة مع نفسها، نفسها الذات «الحقيقية» وتعتبر الشخصية المظهرية زائفة. يشكو الفرد من التفاهة، وعدم العفوية، لكنه قد ينمي افتقاره إلى العفوية، وبالتالي يفاقم إحساسه بالتفاهة. يقول إنه ليس حقيقيًّا وإنه خارج الواقع وليس حيًّا حقًّا. إنه محقٌّ تمامًا من منظور

وجودي. تدرك الذات نفسها تمامًا، وتراقب الذات الزائفة، وعادة ما تنتقد بقسوة. ومن ناحية أخرى، من سمات تنظيم الذات الزائفة أو الشخصية المظهرية، أن إحدى الطرق التي تكون فيها عادة غير مكتملة تتمثل في إدراكها التأملي المعيب للغاية. لكن الذات قد تشعر بأنها في خطر من الانتشار الكلي لنظام الذات الزائفة أو من جزء معين منه (انظر خوف ديفيد من انتحال شخصية الأنثى).

الفرد في هذا الموقف «الانشغال بالذات» دائمًا بشكلٍ مرعبٍ (انظر الفصل ٧) بالمعنى الذي تستخدم فيه هذه الكلمة لتعني العكس تمامًا، أي الشعور بأنه تحت ملاحظة **الآخر**.[١]

ترتبط هذه التغييرات في العلاقة بين مختلف جوانب علاقة الشخص بنفسه باستمرار بعلاقاته مع الآخرين، وهي معقدة وتختلف دائمًا من شخصٍ لآخر.

تصبح العلاقة الذاتية للفرد علاقة زائفة مع الآخرين، وتتعامل الذات مع الذوات الزائفة كما لو كانوا أشخاصًا آخرين تموِّه شخصياتهم. قال ديفيد، على سبيل المثال، في إشارة إلى دور مثَّله ووجد أنه كريه لأنه: «**دور بلسان قذر**». من الداخل، تنظر الذات الآن إلى الأشياء الزائفة التي تُقال وتُفعل وتَكره المتحدث والفاعل كما لو كان شخصًا آخر. وهي

(١) الانشغال بالذات self-conscious: الترجمة الحرفية تعني الوعي الذاتي، ويمكن ترجمة المصطلح بأشكالٍ كثيرة، وهو يعني انشغال المرء بذاته وشعوره بأنه تحت أعين الآخرين، مما يجعله في حالة ارتباكٍ بشكلٍ شبه دائم، وهذا ما يعنيه الكاتب بأن الكلمة تعني عكس معناها (المترجم).

في هذا كله تحاول خلق علاقات مع أشخاص وأشياء داخل الفرد من دون أي لجوء إلى العالم الخارجي للأشخاص والأشياء. يطور الفرد عالمًا صغيرًا داخل نفسه، لكن هذا «العالم» التوحدي، الخاص، داخل الفرد ليس، بالطبع، بديلًا ممكنًا للعالم الوحيد الموجود بالفعل، العالم المشترك. إذا كان هذا مشروعًا ممكنًا، فلن تكون هناك حاجة للذهان.

يحاول مثل هذا الشخص شبه الفصامي بمعنى ما أن يكون كلي القدرة بالانحصار داخل كيانه، دون اللجوء إلى علاقة إبداعية مع الآخرين، بأنماط علاقة تتطلَّب تواجد الآخرين والعالم الخارجي بشكلٍ فعالٍ بالنسبة إليه. يبدو له كل الأشخاص والأشياء بطريقة غير واقعية ومستحيلة. المزايا المتخيلة هي أمان الذات الحقيقية، والعزلة وبالتالي التحرر من الآخرين، والاكتفاء الذاتي، والسيطرة.

العيوب الفعلية التي يمكن ذكرها في هذه المرحلة هي أن هذا المشروع مستحيلٌ، لأنه أملٌ كاذبٌ، يؤدي إلى اليأس المستمر. ثانيًا، الإحساس الدائم والمُطارِد بالتفاهة هو النتيجة الحتمية أيضًا، لأن الذات الخفية الصامتة، في التنصل من المشاركة (باستثناء، كما في حالة ديفيد، الظهور على أنه شخصية مظهرية أخرى) في الأنشطة شبه المستقلة لأنظمة الذات الزائفة، تعيش «عقليًّا» فقط. بالإضافة إلى ذلك، فإن هذه الذات الصامتة، لأنها معزولة، لا يمكن إثراؤها بالخبرة الخارجية، وبالتالي يزداد العالم الداخلي كله فقرًا، حتى يشعر الفرد أنه مجرد فراغٍ. عندئذٍ يتواجد الإحساس بالقدرة على فعل أي شيء والشعور بامتلاك كل شيء جنبًا إلى جنب مع الشعور بالعجز والفراغ. الشخص الذي قد

يشعر في وقت ما بأنه غالبًا «خارج» الحياة التي تحدث هناك، ويتأثر بها ليحتقرها لأنها حقيرة ومبتذلة مقارنة بالثراء الذي يتمتع به هنا، داخل نفسه، يتوق الآن للدخول إلى الحياة مرة أخرى، والحصول على الحياة داخله، يكون موته الداخلي رهيبًا جدًّا.

السمة الحاسمة، التي يجب أن نفهمها، لشخصٍ شبه فُصامي من هذا النوع هي طبيعة المخاوف التي يتعرَّض لها. وقد حددنا بالفعل بعض الأشكال التي تتخذها هذه المخاوف تحت مصطلحات الابتلاع والانهيار والخوف من فقدان الاستقلالية الداخلية، الحرية، باختصار، التحول من رجل ذاتي إلى شيء، آلة، حجر، جماد، تحجر.

ولا يزال علينا دراسة كيف تتعزز هذه المخاوف بتطوير النظام شبه الفصامي.

حين تتخلَّى الذات جزئيًّا عن الجسد وأفعاله، وتنسحب إلى النشاط العقلي، تشعر أنها كيانٌ ربما يتمركز في مكانٍ ما من الجسد. اقترحنا أن هذا الانسحاب الجزئي محاولة للحفاظ على كيانها، لأن العلاقة من أي نوعٍ مع الآخرين تعتبر تهديدًا لهوية الذات. لا تشعر الذات بالأمان إلا في الاختباء والعزلة. يمكن بالطبع عزل مثل هذه الذات في أي وقتٍ سواء كان الآخرون حاضرين أو غير حاضرين.

لكن هذا لا يؤثر.

لا أحد يشعر بأنه أكثر «هشاشة» وأكثر عرضة للتعرض لنظرة شخص آخر من الشخص شبه الفصامي. إذا لم يكن مدركًا تمامًا أن

الآخرين يرونه («الانشغال بالذات»)، فقد تجنب مؤقتًا ظهور قلقه بطريقة أو أخرى من الطريقتين. إما أن يحوِّل الشخص الآخر إلى شيء، وإما يموِّه شخصيته وإما يحيد مشاعره تجاه هذا الشـيء، وإما يتظاهر باللا مبالاة. إن تمويه شخصية الشخص و/ أو موقف اللا مبالاة يرتبطان ارتباطًا وثيقًا لكنهما ليسا متطابقين تمامًا. يمكن استخدام الشخص مموه الشخصية والتلاعب به واستغلاله. وكما ذكرنا سابقًا (الفصل ١)، السمة الأساسية **لشيء** مقابل **شخص** هي أن الشـيء ليس له ذاتية خاصة، وبالتالي لا يمكن أن تكون له نوايا متبادلة. في موقف اللا مبالاة، يتم التعامل مع الشخص أو الشـيء بطريقة عَرَضية، أو قسوة، كأنه لا يهم، في النهاية كأنه لا يوجد. ويمكن أن يظل الشخص ناقص الذاتية مهمًّا. ويبقى أن الشـيء يمكن أن يكون بالغ الأهمية. واللا مبالاة تنكر أهمية الأشخاص والأشياء. نتذكر أن التحجر كان إحدى طرق بيرسيوس[١] لقتل أعدائه. بالأعين التي في رأس ميدوسا، حوَّلهم إلى حجارة. والتحجُّر إحدى طرق القتل. بالطبع، أن يشعر المرء بأن شخصًا آخر يعامله أو ينظر إليه ليس باعتباره شخصًا بل شيئًا لا يجب أن يكون مخيفًا في حد ذاته إذا كان المرء متأكدًا بدرجة كافية من وجوده. وبالتالي، أن يكون المرء شيئًا في عيني شخص آخر لا يمثل تهديدًا كارثيًّا بالنسبة إلى الشخص «العادي»، ولكن بالنسبة إلى الفرد شبه الفصامي، فإن كل عينين في رأس ميدوسا يشعر بهما يمتلكان القوة في الواقع لقتل أو إماتة

(١) بيرسيوس: مؤسس سلالة بيرسيد في الأساطير اليونانية، أعظم بطل يوناني وقاتل للوحوش قبل أيام هرقل (المترجم).

شيء حيوي غير مستقر فيه. لذلك يحاول منع تحجره بتحويل الآخرين إلى حجارة، وبذلك يشعر أنه يستطيع أن يحقق قدرًا من الأمان.

بشكلٍ عام، لا يشيِّد الفرد شبه الفصامي دفاعات ضد فقدان جزء من جسده، وينصب كل جهده على الحفاظ على نفسه. وهي، كما أشرنا، راسخة مؤقتًا؛ إنه معرَّض للرهبة من انحلال كيانه إلى عدمٍ، إلى ما وصفه وليم بليك في الملاذ الأخير بأنه «كيان منعدم مشوش». استقلاليته مهددة بالابتلاع. عليه أن يحمي نفسه من فقدان ذاتيته وإحساسه بأنه حي. بقدر ما يشعر بالفراغ، تكون الحقيقة المعيشية الكاملة والجوهرية للآخرين اصطدامًا من المحتمل دائمًا أن يخرج عن السيطرة وينفجر، ويهدد بإغراق ذاته ومحوها تمامًا والغاز يملأ الفراغ، أو والماء يتدفق ويملأ السد الفارغ بالكامل. يخشى الفرد شبه الفصامي من علاقة جدلية حقيقية مع أناس أحياء حقيقيين. يمكنه أن يرتبط فقط بأشخاص مموهي الشخصية، بأشباح الفانتازيا (الصور الخيالية)، وربما بأشياء، ربما بحيوانات.

لذلك، نقترح أن الحالة شبه الفصامية التي نصِفها يمكن فهمها على أنها محاولة للحفاظ على كائن ببنية مؤقتة. ونقترح لاحقًا أن البناء الأوَّلي للوجود في عناصره الأساسية يحدث في مرحلة الطفولة المبكرة. في الظروف العادية، يحدث بطريقة تجعله مستقرًّا تمامًا في عناصره الأساسية (على سبيل المثال، استمرارية الوقت، والتمييز بين الذات وغير الذات، والفانتازيا والواقع)، بحيث يمكن نسلم من الآن فصاعدًا بأنه: على هذه القاعدة المستقرة، يمكن أن يوجد قدرٌ كبيرٌ

من المرونة فيما نسميه «سمات» الشخص. من ناحية أخرى، في بنية الشخصية شبه الفصامية، هناك عدم أمان في وضع الأسس وجمود تعويضي في البنية الفوقية.

وإذا كان الدفاع عن كيان الفرد كله غير ممكن، يتراجع الفرد عن خطوط دفاعه حتى ينسحب داخل قلعة مركزية. إنه مستعدٌّ لشطب كل ما هو عليه، باستثناء «نفسه». لكن المفارقة المأساوية أنه كلما زاد الدفاع عن الذات بهذه الطريقة، زاد تدميرها. إن التدمير الظاهري للذات وانحلالها في ظروف فصامية لا يتم بهجمات خارجية من العدو (الفعلي أو المفترض)، من الخارج، ولكن بالدمار الناجم عن المناورات الدفاعية الداخلية نفسها.

* * *

٥

الذات الداخلية في الحالة شبه الفصامية

يمكن أن تتراجع أمام عذابات العالم، وأنت حرٌّ في أن تفعل ما يتوافق مع طبيعتك، لكن ربما يكون هذا التراجع تحديدًا العذاب الوحيد الذي يمكن أن تتجنَّبه.

فرانز كافكا

مكتبة
t.me/soramnqraa

في الحالة شبه الفصامية الموصوفة هنا انشقاقٌ مستمرٌّ بين الذات والجسد. ما يعتبره الفرد ذاته الحقيقية تبدو غير مجسدة إلى حدٍّ ما، وتبدو الخبرة والأفعال الجسدية بدورها جزءًا من نظام الذات الزائفة.

ومن الضروري الآن النظر في عنصري هذا الانقسام بمزيدٍ من التفصيل، وكذلك علاقة أحدهما بالآخر. نتناول أولًا الذات الذهنية أو غير المجسدة.

من المعروف أن الحالات المؤقتة لانفصال الذات عن الجسد تحدث في الناس الطبيعيين. عمومًا، يمكن للمرء أن يقول إنها استجابة تبدو متاحة لمعظم الذين يجدون أنفسهم محاصرين في خبرة مهدِّدة لا مفرَّ منها جسديًّا. حاول السجناء في معسكرات الاعتقال أن يشعروا بهذه الطريقة، لأن المعسكر لم يقدم أي مخرج ممكن سواء مكانيًّا أو في نهاية فترة زمنية؛ كان السبيل الوحيد للخروج هو الانسحاب النفسي «إلى» الذات و»خارج» الجسد. ويرتبط هذا الانفصال ارتباطًا مميزًا بأفكارٍ مثل «هذا يشبه الحلم»، «يبدو هذا غير واقعي»، «لا يمكن أن أصدق أن هذا حقيقي»، «بدا أن العدم يلمسني»، «لا يمكن أن أستوعبه»، «هذا لا يحدث لي»، أي بمشاعر الاغتراب وتموه الواقع. قد يستمر الجسد في التصرف بطريقة طبيعية ظاهريًّا، ولكن يبدو داخليًّا أنه يتصرف تلقائيًّا، آليًا.

ومع ذلك، وعلى الرغم من أن الخبرة لها طبيعة الحلم أو أنها غير واقعية، والطبيعة الآلية للفعل، فإن الذات تكون في الوقت نفسه بعيدة كل البعد عن «النعاس»؛ تكون يقظة بشكلٍ مفرطٍ، وقد تفكر وتلاحظ بوضوحٍ استثنائي.

يمكن تمثيل الاغتراب المؤقت للذات عن الجسد في الأحلام.

حلمتْ فتاة في التاسعة عشرة، وموعد زواجها يقترب بسرعة، وهو زواج كانت تخشاه لأسبابٍ مختلفة، بأنها في المقعد الخلفي لسيارة تنطلق وحدها. لم تكن هذه الفتاة في الأساس شبه فصامية لكنها كانت تتفاعل بآلية دفاع شبه فصامية في موقف معين.

كان R قد رأى حلمًا قبل بدء العلاج بوقتٍ قصيرٍ. كان أمام لوحة تشغيل الباص، لم يكن للباص سائق. قفز منه وتحطم الباص. يميل المرء إلى اعتبار حلمه بعد أربعة أشهر من العلاج النفسي مقياسًا لبعض التغيير في اتجاه مرغوب فيه. «إنني أركض خلف الباص، فجأة أكون أمام لوحة تشغيل الباص، وفي الوقت نفسه، أركض خلفه. أحاول الانضمام إلى نفسي في الباص لكن لا أستطيع اللحاق بالباص تمامًا؛ شعرت بالخوف».

يمكن للمرء أن يضاعف حالات هذه الخبرة المشتركة للانشقاق المؤقت. يحدث الانشقاق أحيانًا بشكلٍ متعمدٍ، وكثيرًا ما يحدث من دون سيطرة الفرد. لكن في المرضى الذين نتناول حالاتهم هنا، لا يكون الانقسام مجرد رد فعل مؤقت لحالة معينة تنطوي على خطر هائل، ويمكن عكسها حين يزول الخطر. إنه، على العكس، توجه أساسي للحياة، وإذا تتبعه المرء خلال حياتهم، عادة ما يجد أنه ظهر، على ما يبدو، من الأشهر الأولى من الطفولة مع هذا الانقسام الجاري بالفعل. إن الفرد «الطبيعي»، في موقف ما يمكن للجميع أن يروا أنه يهدد كيانه ولا يبدي أي إحساس حقيقي بالهروب، يطور حالة شبه فصامية في محاولة للخروج منه، إن لم يكن جسديًا، فعقليًا على الأقل: يصبح مراقِبًا عقليًا، ينظر، بانفصالٍ وتبلُّد، إلى ما يفعله جسده أو ما يُفعَل بجسده. إذا كان الأمر كذلك في «الطبيعي»، فمن الممكن على الأقل أن نفترض أن الفرد الذي يكون النمط الدائم لوجوده في العالم بطبيعة منقسمة يعيش فيما يمثل بالنسبة إليه، إن لم يكن بالنسبة إلينا، عالمًا يهدد كيانه من

جميع الجهات ولا مخرج منه. وهذا بالفعل حال هؤلاء الناس. العالم بالنسبة إليهم سجنٌ بلا قضبان، معسكر اعتقال من دون أسلاك شائكة.

لمريض البارانويا مضطهِدون محددون، هناك شخصٌ ما ضده، هناك مؤامرة تدبر لسرقة أفكاره. آلة مخبأة في جدار غرفة نومه تنبعث منها أشعة عقلية لإضعاف دماغه، أو لتوجيه صدمات كهربائية خلاله وهو نائم. الشخص الذي أصفه يشعر في هذه المرحلة بأن **الواقع نفسه يضطهده**. العالم كما هو، والأشخاص الآخرون كما هم، أخطار.

تسعى الذات بعد ذلك بوجودها غير المجسد لتجاوز العالم وبالتالي لتكون آمنة. لكن النفس قابلة للتطور مما يجعلها تبدو خارج كل خبرة ونشاط. تصبح فراغًا. كل شيء هناك، في الخارج؛ لا شيء هنا في الداخل. بالإضافة إلى ذلك، تتعزز الرهبة المستمرة من كل ما هو موجود، من التعرض للإرهاق، بدل أن تضعف بالحاجة إلى إبقاء العالم بعيدًا. ومع ذلك، قد يزداد شوق الذات في الوقت نفسه لأي شيء آخر للمشاركة في العالم. وبالتالي، يكون أعظم أشواقها الشعور بأن أكبر نقاط ضعفها واستسلامها لهذا الضعف هي أكبر مخاوفها، حيث يخشى الفرد في المشاركة أن يطمس فراغه، أو أن يبتلع هو نفسه أو يفقد هويته بطريقة أخرى تتساوى مع الحفاظ على تسامي الذات على الرغم من أنه تسامٍ بالتجنب.

هذا الانفصال عن الذات يعني أن الذات لا تنكشف أبدًا بشكلٍ مباشرٍ في تعبيرات الفرد وأفعاله، ولا تشعر بأي شيء بشكل عفوي أو فوري. علاقة الذات بالآخر منفصلة دائمًا. وتصبح المعاملات المباشرة

والفورية بين الفرد والآخر والعالم، حتى في النواحي الأساسية مثل الإدراك والفعل، جميعها بلا معنى وبلا جدوى وزائفة. يمكن للمرء أن يمثل الحالة البديلة بشكل تخطيطي كما هو موضح في الشكل.

تبدو الأشياء التي تدركها الذات حقيقية. الأفكار والمشاعر التي تكون الذات فاعلها حية ويبدو أنها هادفة. تبدو الأفعال التي تقوم بها الذات حقيقية.

إذا فوض الفرد نظامًا داخل كيانه وليس «هو» بتنفيذ جميع المعاملات بينه وبين الآخر، يبدو العالم غير واقعي، ويبدو كل ما ينتمي إلى هذا النظام زائفًا، وبلا جدوى، وبلا معنى.

يخضع كلُّ شخصٍ إلى حدٍّ معين في وقتٍ ما لتقلبات مزاجية من الشعور بالعبث، وانعدام المعنى والهدف، لكن هذه التقلبات المزاجية، في شبه الفصاميين، تكون مُلحَّة بشدة. تنشأ هذه التقلبات المزاجية من حقيقة أن أبواب الإدراك و/ أو بوابات الفعل ليست تحت سيطرة الذات لكن ذاتًا زائفة تعيشها وتديرها. إن عدم واقعية الإدراك والزيف وانعدام معنى جميع الأنشطة هي النتائج الضرورية للإدراك والنشاط تحت قيادة الذات الزائفة - وهو نظامٌ منفصلٌ جزئيًّا عن الذات «الحقيقية»، التي، تُستبعَد من المشاركة المباشرة في علاقة الفرد بأشخاص آخرين وبالعالم. وهكذا تُحَسُّ الازدواجية الزائفة في كيان الفرد. وبدل أن يلتقي الفرد مع العالم بذاته المتكاملة، يتنصل من جزء من كيانه جنبًا إلى جنب مع إنكار الارتباط المباشر بالأشياء والناس في العالم. يمكن تمثيل ذلك بشكلٍ تخطيطي على النحو التالي:

الشكل ١ :

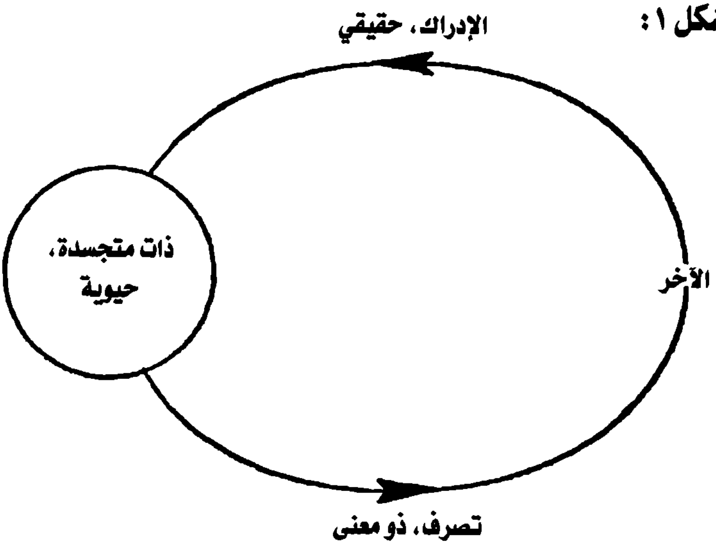

الشكل ٢ :

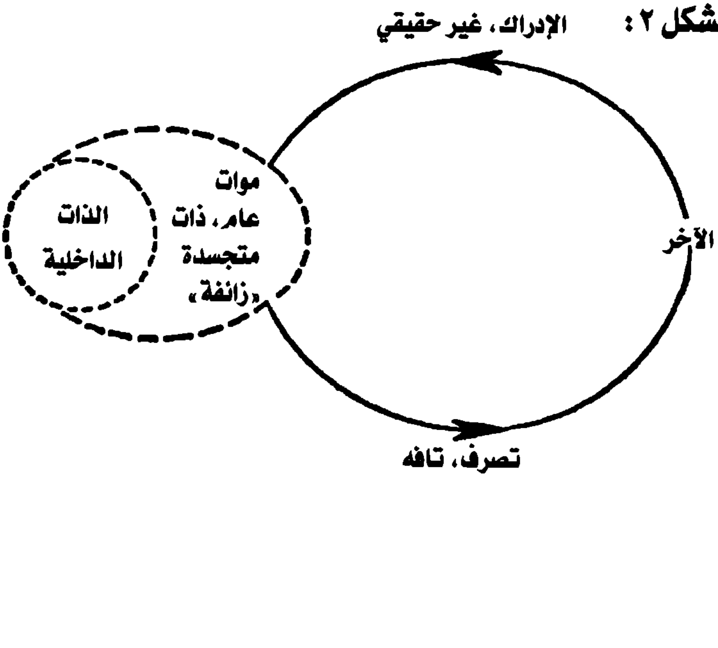

بدلًا من

(الذات/ الجسد) ⇄ الآخر

يكون الوضع

الذات ⇄ (الجسد-الآخر)

وبالتالي، من المستبعد أن تقيم الذات علاقة مباشرة مع أشياء حقيقية وأشخاص حقيقيين. وحين يحدث هذا في المرضى، يكون المرء شاهدًا على الكفاح الذي يترتب على الحفاظ على إحساس الذات بواقعها وحيويتها وهويتها. في المخطط الأول، يكون للمرء دائرة حميدة. **تتعزز حقيقة العالم والذات بشكل متبادل بالعلاقة المباشرة بين الذات والآخر**. في الشكل ٢، حلقة مفرغة. يبدو أن كل عنصر في هذا الرسم البياني يزداد عدم واقعية ويزداد موتًا. يستبعد الحب وتحتل الرهبة مكانه. التأثير النهائي خبرة شاملة بأن كل شيء متوقف. لا شيء يتحرك؛ لا شيء حي؛ كل شيء ميت، بما في ذلك الذات. الذات بانفصالها يحال بينها وبين خبرة كاملة بالواقع والحيوية. ما قد يسميه المرء **علاقة إبداعية** مع الآخر، حيث يوجد إثراء متبادل للذات والآخر (دائرة حميدة)، مستحيل، ويحل محلها **تفاعلٌ** قد يبدو أنه يعمل بكفاءة وسلاسة لبعض الوقت لكنه بلا «حياة» (**علاقة عقيمة**). هناك شبه تفاعل بين جماد وجماد بدل العلاقة بين أنا وأنت. وهذا التفاعل عملية ميتة.

تسعى الذات الداخلية إلى العيش بمزايا تعويضية معينة (على ما يبدو). ومثل هذه الذات تعتز بمُثُل معينة. أحدها الصدق الداخلي، وكان واضحًا جدًّا في حالة التلميذ ديفيد. في حين أن جميع أشكال التبادل مع الآخر قد تكون محفوفة بالتظاهر والمراوغة والنفاق، يسعى الفرد إلى تحقيق علاقة صادقة وأمينة وصريحة تمامًا مع نفسه. قد يخفي كل شيء عن الآخرين، لكن لا يجب أن يخفي أي شيء عن نفسه. وبهذا تحاول الذات إقامة «علاقة تربط نفسها بنفسها»[١] لاستبعاد كل شيء وأي شيء. لدينا هنا بذور الانقسام الثانوي داخل الذات. بعد انقسام كيان الفرد إلى ذات «حقيقية» وذات «زائفة»، تفقد الذاتان الحقيقية والزائفة حقيقتهما كما أشرنا سابقًا، لكنهما تنقسمان أيضًا بدورهما إلى أنظمة فرعية داخل نفسيهما. وهكذا، في العلاقة التي تربط الذات بنفسها، يجد المرء ازدواجية ثانية تتطور حيث تنقسم الذات الداخلية لتقيم علاقة سادية ومازوشية مع نفسها. وحين يحدث هذا، تبدأ الذات الداخلية، التي نشأت، كما اقترحنا، في المقام الأول وسيلةً للتشبث بإحساسٍ هشٍّ بالهوية، في فقدان الهوية التي كان عليها أن تبدأ بها. (في الرسوم الإيضاحية الإكلينيكية، انظر بشكل خاص .Rose, p. 150).

يؤدي استبدال تفاعل بآخر إلى أن يعيش الفرد في عالمٍ مخيفٍ حيث لا يخفف الحبُّ حدة الرهبة. يخاف الفرد من العالم، ويخشى أن يكون أي اصطدام كاملًا، وانفجاريًّا، ونافذًا، ومفتِّتًا، ومبتلعًا. يخاف من

---

(١) عبارة كيركجارد في المرض حتى الموت (١٩٥٤)، لكنها استخدمت هنا بدلالات مختلفة تمامًا.

ترك أي شيء من نفسه «يذهب»، أو يخرج من نفسه، أو أن يفقد نفسه في أي خبرة، إلخ، لأنه سيُستنزف ويُرهَق ويُفرغ ويُسرق ويُمتص.

إن عزل الذات نتيجة طبيعية للحاجة إلى السيطرة عليها. يفضل أن يَسرِق على أن يُمنَح. يفضل أن يَمنَح، على أن يشعر بأن شيئًا سُرِق منه؛ أي يجب أن يسيطر على من يدخله أو ما يدخله، ومن يتركه وما يتركه. تطور هذا النظام الدفاعي، كما نقترح، لتعويض النقص الأساسي في الأمان الأنطولوجي. إن الشخص الذي يثق بكيانه لا يحتاج إلى اتخاذ إجراءات من هذا النوع. ومع ذلك، فإن الجهد المبذول للحفاظ على الذات المتسامية، بعيدًا عن الخطر والتحكم عن بُعد في الخبرة المباشرة والعمل المباشر، تنتهي إلى عواقب مرفوضة قد تفوق بكثيرٍ المكاسب الظاهرة هناك.

لأن الذات، في الحفاظ على عزلتها وانفصالها، لا تلتزم بعلاقة إبداعية مع الآخر وتنشغل بأشكال الفانتازيا والتفكير والذكريات، إلخ (الصور الخيالية)، التي لا يمكن ملاحظتها مباشرة أو التعبير عنها مباشرة للآخرين، أي شيء (بمعنى ما) ممكن. مهما كانت الإخفاقات أو النجاحات التي تأتي في طريق نظام الذات الزائفة، تبقى الذات قادرة على أن تكون غير ملتزمة وغير محددة. في الفانتازيا، يمكن للذات أن تكون أي شخص، في أي مكان، تفعل أي شيء، لديها كل شيء، ومن ثم تكون مطلقة القدرة وحرة تمامًا - لكن في الفانتازيا فقط. بمجرد أن تلتزم بأي مشروع حقيقي تعاني من آلام الذل - ليس بالضرورة بسبب أي فشل، لكن ببساطة لأنها يجب أن تخضع للضرورة والصدفة. إنها

مطلقة القدرة وحرة في الفانتازيا فقط، وكلما زاد الانغماس في هذه القدرة المطلقة والحرية الفانتازية، أصبحت أكثر ضعفًا وعجزًا وقيدًا في الواقع. لا يمكن الحفاظ على وهم القدرة المطلقة والحرية إلا داخل الدائرة السحرية لصمتها في الفانتازيا. وحتى لا يتبدد هذا الموقف بأدنى تدخل في الواقع، يجب فصل الفانتازيا والواقع عن بعضهما.

يعبر سارتر عن هذا الانقسام جيدًا في **سيكولوجية التخيل** *Psychology of Imagination* (١٩٥٠، ص ١٦٥-١٦٦):

> ... يمكننا التعرف على ذاتين مميزتين فينا: الذات الخيالية بميولها ورغباتها - والذات الحقيقية. هناك ساديون ومازوشيون خياليون، أشخاص التخيل العنيف. في كل لحظة، تنكسر ذاتنا الخيالية إلى أجزاء وتختفي عند ملامستها للواقع، وتترك مكانها للذات الحقيقية. لأن الواقعي والخيالي لا يمكن أن يتعايشا بطبيعتيهما. إنها مسألة نوعين من الأشياء، من المشاعر والأفعال التي لا يمكن اختزالها تمامًا.
>
> ومن ثم، قد نعتقد أنه يجب تصنيف الأفراد في فئتين كبيرتين، وفقًا لما إذا كانوا يفضلون حياة خيالية أو حياة حقيقية. لكن يجب أن نفهم ما يعنيه تفضيل الخيالي. إنها ليست مسألة تفضيل شيء على آخر. على سبيل المثال، لا ينبغي أن نصدق أن الحالمين الفصاميين والمرضى بشكلٍ عام يحاولون إحلال محتوى غير واقعي وأكثر إغواءً وإشراقًا محل المحتوى الحقيقي لحياتهم، وأنهم يسعون إلى نسيان الطابع غير الواقعي لصورهم الذهنية بالتفاعل معها كما لو كانت أشياء حقيقية موجودة بالفعل. إن تفضيل الخيال ليس فقط تفضيلًا للثراء والجمال والرفاهية

الخيالية على تواضع الواقع **على الرغم** من طبيعتها غير الواقعية. إنه أيضًا تبني لمشاعر وأفعال «خيالية» لطبيعتها الخيالية. لا يقع الاختيار على هذه الصورة الذهنية أو تلك فقط، بل الحالة الخيالية بكل ما تتضمنه؛ إنه ليس فقط هروبًا من المحتوى الحقيقي (الفقر، الحب المحبط، فشل مشروع المرء، إلخ)، بل من شكل الواقع نفسه، وطبيعة **حضوره**، ونوع الاستجابة التي يتطلبها منًّا، تكيُّف أفعالنا مع الموضوع، وعدم قابلية الإدراك للنضوب، واستقلالها، وطريقة مشاعرنا في تطوير نفسها.

هذا الانقسام بين الفانتازيا والواقع أساسيٌّ لمفهوم مينكوفسكي[١] للتوحد.

لكن الشخص الذي لا يعمل في الواقع ولا يعمل إلا في الفانتازيا **يصبح هو نفسه غير واقعي**. ينكمش «العالم» الفعلي لهذا الشخص ويجدب. يتوقف استخدام «واقع» العالم المادي والأشخاص الآخرين كمادة فكرية للتدريب الإبداعي للخيال، ومن ثم تقل أهميته في حد ذاته تدريجيًّا. وتصبح الفانتازيا، من دون أن تتجسد في الواقع إلى حد ما، أو تغني نفسها بحُقَن «الواقع»، أكثر فراغًا وتتطاير أكثر. إن «الذات» التي يكون ارتباطها بالواقع ضعيفًا بالفعل تصبح ذاتًا أقل واقعية، وأكثر فانتازية لأنها تنهمك أكثر فأكثر في علاقات فانتازية مع أشباحها الخاصة (الصور الخيالية).

من دون دائرة مفتوحة ثنائية الاتجاه بين الفانتازيا والواقع، يصبح

---

(١) يوجين مينكوفسكي Minkowski (١٨٨٥-١٩٧٢): طبيب نفسي فرنسي من أصول بولندية (المترجم).

أي شيء ممكنًا في الفانتازيا. ويستمر التدمير في الفانتازيا من دون الرغبة في القيام بترميمٍ تعويضي، لأن الإحساس بالذنب الذي يدفع إلى الحفاظ على الإصلاحات وتنفيذها يفقد إلحاحه. وهكذا يمكن أن يستمر التدمير في الفانتازيا، من دون رادعٍ، حتى يتقلَّص العالم والذات، في الفانتازيا، إلى غبارٍ ورمادٍ. في حالة الفصام، يكون العالم في حالة خرابٍ، والذات (على ما يبدو) ميتة، لا يبدو أن أي قدر من النشاط المحموم لديه القدرة على بعث الحياة.

وبالتالي، يكون لما يحدث تأثير معاكس تمامًا للتأثير المرغوب فيه. الضفادع الحقيقية تغزو الحدائق الخيالية[1] والأشباح تمشي في الشوارع الحقيقية. وهكذا، بطريقة أخرى، تتعرض هوية الذات للخطر مرة أخرى.

ليس من الصحيح تمامًا أن نقول إن الذات لا ترتبط إلا بنفسها، من الضروري تخفيف هذا في ناحية وتضخيمه في أخرى. وقد خفَّفنا بالفعل هذا التصريح بتوضيح أننا نتحدث عن علاقة مباشرة وفورية. هذه العلاقة المباشرة والفورية مع الآخر، وحتى مع تلك الجوانب من كيان الشخص نفسه خارج نطاق الذات، تصبح مستحيلة.

على سبيل المثال، مارس مريضٌ حياته بشكلٍ «طبيعي» إلى حدٍّ ما ظاهريًا ولكنه وظف هذا الانقسام الداخلي، كانت شكواه الأصلية أنه لا يستطيع ممارسة الجنس مع زوجته قط لكن فقط مع الصورة الذهنية التي شكَّلها لها. أي أن جسده كان له علاقات جسدية مع جسدها، لكن

---

(١) Marianne Moore, *Collected Poems*.

ذاته العقلية، في أثناء ذلك، كانت لا تستطيع النظر إلا إلى ما كان يفعله جسده و/ أو تخيل نفسه يمارس الجنس مع زوجته باعتبارها موضوع خياله. وكان الشعور بالذنب الذي تعرَّض له نتيجة لذلك سببًا لاستشارة طبيب نفسي[١].

هذا مثالٌ على ما أعنيه بقولي إن الفانتازيا والواقع منفصلان. تتجنب الذات الارتباط مباشرة بأشخاص حقيقيين ولكنها ترتبط بنفسها وبالأشياء التي تطرحها بنفسها. **يمكن للذات أن ترتبط فورًا بموضوع يكون موضوعًا لخيالها أو ذاكرتها ولكن ليس بشخص حقيقي**. لا يتضح هذا دائمًا، بالطبع، حتى للفرد نفسه، ويبقى أقل وضوحًا لأي شخصٍ آخر. كانت زوجة هذا المريض تجهل تمامًا أنه يشعر أنه «هو» لم يمارس الجنس مباشرة معها قط؛ لم يمارس الجنس إلا مع الصورة الذهنية التي شكلها لها وتصادف أنها تتوافق معها بشكل كافٍ في الواقع حتى إنه لا يمكن لأحد غيره أن يعرف الفرق.

إحدى سمات هذه الخدعة أن الذات قادرة على التمتع بإحساس الحرية الذي تخشى أن تفقده إذا تركت نفسها للواقع. وينطبق هذا على كل من الإدراك والتصرف. هذا المريض، وعلى الرغم من أنه يكون وحيدًا في أعظم لحظات الحميمية الجسدية، فإنه كان يشعر أنه آمن على أي حال: ظل عقله حرًّا، مع أن هذه الحرية أصبحت شيئًا شعر أنه حكم إدانة صدر عليه.

---

(١) الملاحظات على الشعور بالذنب الذي عانى منه بيتر (الفصل ٨) ذات صلة بهذا الشكل من الذنب شبه الفصامي الذي، في اعتقادي، لم يُعترَف به بشكل كافٍ.

تنشأ قضية مماثلة تتعلق بالتصرف. قد تبدو تصرفات الفرد من وجهة نظر شخص آخر جلية وملتزمة، لكن المرء يجد أنه ينهمك في فعل شيء يشعر بأنه لا يفعله «حقًّا». وهكذا قال المريض السابق، على الرغم من أن كنزي قد يقول إنه مارس الجماع من مرتين إلى أربع مرات أسبوعيًّا لمدة عشر سنوات، فإنه كان يعلم «هو» أنه لم يمارس الجماع قط «ممارسة حقيقية». إن الانتقال من هذا النوع من العبارات إلى تصريح المليونير الذهاني الذي يقول إنه ليس لديه مال «حقًّا» أمر حاسم لكنه دقيق. كما نرى في الفصل العاشر، يبدو أن الانتقال يتألف من فقدان الإحساس بواقعية واقع تقرير كنزي تمامًا لدرجة أن الفرد يعبر عن الحقيقة «الوجودية» عن نفسه بنفس الواقعية التي نطبقها حول الحقائق التي يمكن التحقق من صحتها بالتراضي في عالم مشترك.

كان من الممكن أن يكون هذا العرض ذهانيًّا، على سبيل المثال، إذا أصر، بدل أن يقول إنه لم يمارس الجنس مع زوجته مطلقًا «ممارسة حقيقية»، على أن المرأة التي مارس الجنس معها ليست زوجته الحقيقية. بمعنى ما، هذا صحيح تمامًا: صحيح من الناحية الوجودية لأن زوجته «الحقيقية» في هذا المعنى الوجودي كانت موضوع خياله (شبحًا أو صورة خيالية)، بدل أن تكون كائنًا إنسانيًّا آخر في السرير معه.

لا يمكن أن تقترن الذات غير المجسدة للشخص شبه الفصامي بأي شخص؛ إنها في عزلة دائمة، لكن هذه العزلة وعدم الالتزام الداخلي لا تكون من دون خداع ذاتي.

هناك شيء نهائي وحاسم بشأن الفعل، ينظر إليه هذا النوع من الأشخاص بشكٍّ. التصرف طريقٌ مسدودٌ للاحتمال. يصيب الحرية بالتصلب. إذا كان لا يمكن تجنبه تمامًا، فيجب أن يكون كل تصرف ذا طبيعة ملتبسة بحيث لا يمكن أبدًا أن تنحصر «الذات» فيه.

يقول هيجل (١٩٤٩، ص ٣٤٩-٣٥٠) هذا عن التصرف:

> التصرف شيء بسيطٌ ومحددٌ وعام، يجب فهمه باعتباره كلًّا مجرَّدًا ومميزًا؛ إنه قتل، سرقة، منفعة، استعراض للشجاعة، إلخ، وما قد **يقال** عنها. إنه كذا وكذا، ووجوده ليس مجرد رمز، إنه الحقيقة نفسها. إنه هذا، والإنسان الفرد هو ماهية التصرف. في الحقيقة البسيطة بأن الفعل **كينونة**، الفرد بالنسبة إلى الآخرين هو ما هو عليه حقًّا وبطبيعة عامة معينة، ويتوقف عن أن يكون مجرد شيء «يُقصَد» أو «يُفترَض» أن يكون هذا أو ذاك. لا شك أنه لم يوضع هناك في شكل عقل، لكن حين يتعلق الأمر بوجود كيانه المتسامي، والوجود المضاعف للشكل الجسدي والتصرف يتنافسان معًا، يدعي كل منهما أنه واقعه الحقيقي، يجب تأكيد المآثر **وحدها** بوصفها كيانه الحقيقي - لا صورته أو شكله، مما قد يعبر عما «يقصد» نقله من خلال أفعاله، أو ما يمكن لأي شخص أن «يخمن» أنه يمكن أن يفعله ببساطة. وبالطريقة نفسها، من ناحية أخرى، حين يتعارض أداؤه وإمكانياته الداخلية، أو قدرته، أو نيته، يُعتبَر الأول **وحده** واقعه الحقيقي، حتى لو خدع نفسه بهذا الشأن، وبعد أن تحول من عمله إلى نفسه، يقصد أن يكون شيئًا آخر في «عالمه الداخلي» غير ما هو عليه في التصرف. الشخصية الفردية، التي تلتزم بالعنصر الموضوعي، حين تتجاهل فعلًا ما، لا شك أنها تعرض نفسها لخطر التغيير والانحراف. لكن

هذا وحده ما يقرِّر طبيعة الفعل - ما إذا كان الفعل شيئًا حقيقيًّا متماسكًا، أو ما إذا كان مجرد أداء مزعوم أو «مفترض»، وهو بحد ذاته لاغٍ وباطل وزائل. التجسيد لا يغير التصرف نفسه؛ إنه يبين فقط **حقيقة** الفعل، ما إن كان فعلًا أم **عدمًا**.

يمكن أن نفهم بسهولة لماذا يمقت الشخص شبه الفصامي بشدة التصرف كما وصفه هيجل. التصرف «بسيط، محدد، عام ...» لكن ذاته تتمنى أن يكون معقَّدًا وغير محدد وفريدًا. التصرف هو «ما يمكن أن يقال عنه». لكنه يجب ألا يكون أبدًا ما يمكن أن يقال عنه. يجب أن يظل دائمًا غير مفهوم، أن يظل مراوغًا ومتعاليًا. التصرف هو «كذا وكذا ... إنه هذا، والإنسان الفرد هو حقيقة التصرف. لكن يجب ألا يكون بأي ثمن حقيقة تصرفه. إذا كان حقيقة تصرفه، فسيكون عاجزًا وتحت رحمة أي عابر». في الحقيقة البسيطة بأن التصرف **حقيقة**، الفرد بالنسبة إلى الآخرين هو ما هو عليه حقًّا»، لكن هذا مرة أخرى هو بالضبط ما يخشى حدوثه كثيرًا، وما يسعى إلى تجنبه باستخدام الذات الزائفة بحيث لا يكون أبدًا ما هو عليه حقًّا مع الآخرين. «هو»، «ذاته»، إمكانية لا نهاية لها، وقدرة، ونية. التصرف دائما نتاج ذات زائفة. التصرفات أو المآثر لا تكون أبدًا واقعه الحقيقي. إنه يرغب في أن يظل غير ملتزم على الدوام «بالعنصر الموضوعي» - ومن هنا فإن المآثر دائمًا (أو على الأقل يعتقد أنها) أداء مزعوم، مفترض، ويمكنه هو أن يرعى بنشاط قدر المستطاع ذلك الإنكار «الداخلي» لكل ما يفعله في محاولة لإعلان أن كل ما يفعله «لاغٍ وباطلٌ»، بحيث لا يوجد شيء منه في العالم، في الواقع، في «العنصر الموضوعي»، ولا يجب ترك آثار أقدام «الذات»

أو بصمات «الذات». وهكذا تبتعد الذات عن «العنصر الموضوعي» فيما يتعلق بالإدراك والتصرف. لا يمكن أن يكون هناك فعلٌ عفويٌّ لأنه لا يمكن أن يكون هناك إدراكٌ عفويٌّ. ومثلما يتم تجنب الالتزام في العمل، يعتبر الإدراك فعل التزام يعرض الحرية لخطر أن تكون عدمًا في حوزة الذات.

وطالما كانت الذات «غير ملتزمة بالعنصر الموضوعي»، فهي حرة في أن تحلم وتتخيل أي شيء. ومن دون الرجوع إلى العنصر الموضوعي، يمكن أن تكون كل شيء بالنسبة إلى نفسها - إنها تتمتع بحرية وقوة وإبداع غير مشروطة. لكن حريتها وقدرتها المطلقة تمارس في فراغ، وإبداعها ليس إلا القدرة على إنتاج أشباح. **الصدق الداخلي والحرية والقدرة المطلقة والإبداع**، التي تعتز الذات «الداخلية» بأنها مُثُلها، يمكن أن يمحوها، بالتالي، إحساس التعايش المشوه بازدواجية الذات، وانعدام أي حرية حقيقية، والعجز التام والعقم. أهتم هنا، بالطبع، في المقام الأول بتحول الوضع شبه الفصامي إلى ذهان وليس بوصف الاحتمالات الكامنة فيه التي قد تؤدي إلى اتجاهات أخرى، لكن على المرء أن يضع في اعتباره أن التدهور والتفكك ليسا سوى نتيجة واحدة للتنظيم الأولي شبه الفصامي. ومن الواضح تمامًا أنه يمكن تحقيق نسخ أصلية من الحرية والقوة والإبداع وإحياؤها.

ينجح كثيرٌ من الكُتَّاب والفنانين شبه الفُصاميين المنعزلين نسبيًّا عن الآخرين في إقامة علاقة إبداعية مع الأشياء في العالم، الأشياء التي صنعوها لتجسيد صور الفانتازيا، لكنهم ليسوا موضوعنا هنا. أركز في

هذه الدراسة على خط واحد فقط من التطور، والتعميمات التي أطرحها لا تهدف إلا إلى تغطية هذه المنطقة المحدودة للغاية.

الآن، على الرغم من أن الذات تتمتع بالحرية والقدرة المطلقة، فإن رفضها الالتزام «بالعنصـر الموضوعي» يجعلها عاجزة: لا تتمتع بالحرية في «الواقع». بالإضافة إلى ذلك، حتى في مقاطعتها الخاصة، في انفصالها تخضع باستمرارٍ (كما تشعر) لخطر «واقع» الانهيار أو الابتلاع، وبينما تنشغل بذاتها وموضوعاتها، لا تزال تدرك نفسها بحدة شديدة بوصفها موضوعًا في أعين الآخرين. وهكذا، تتفاقم الصعوبات المتناقضة التي يعاني منها الشخص شبه الفصامي بسبب الطبيعة الخاصة لنظام الدفاعات شبه الفصامية التي وصفناها.

ربما يكون لدى الفرد دائمًا القدرة على اختيار تأكيد وضعه الانفصالي، أو محاولة المشاركة في الحياة. إلا أن الدفاع شبه الفصامي ضد «الواقع» له عيبٌ هائلٌ يتمثَّل في أنه يميل إلى إدامة الصفة الأصلية المهددة للواقع وتقويتها. مشاركة الذات في الحياة ممكنة، لكنها لا تظهر إلا في مواجهة القلق الشديد. كان فرانز كافكا يعرف ذلك جيدًا، حين قال إنه لا يمكن أن يشارك في الحياة إلا من خلال قلقه، وبالتالي أو لن يكون له وجودٌ من دونه. يشعر الفرد شبه الفُصامي في المشاركة المباشرة «في» الحياة كأنه معرَّضٌ باستمرارٍ لخطرٍ أن تدمره الحياة، لأن عزلة الذات، كما قلنا، هي جهدها للحفاظ على نفسها في غياب شعور أكيد بالاستقلالية والسلامة. لذلك يجب فهم ذات شبه الفصامي على أنها محاولة لتحقيق أمان ثانوي من المخاطر الأساسية التي تواجه

الشخص في حالة انعدام الأمان الأنطولوجي الأصلي. ويتمثَّل أحد جوانب انعدام الأمان الأنطولوجي الأصلي في عدم ارتباطه بشكلٍ محددٍ حتى الآن «بالذات» في هشاشة الإحساس الذاتي للفرد بحياته، والإحساس بأن الآخرين يهددون هذا الشعور المؤقت. ونتناول هذه المشكلة بشكلٍ كاملٍ في الفصل عن «الانشغال بالذات».

في حالة عدم وجود علاقة طبيعية وإبداعية عفوية مع العالم الخالي من القلق، تطور «الذات الداخلية» إحساسًا عامًّا بالفقر الداخلي، يتم التعبير عنه في الشكاوى من فراغ الحياة الداخلية وموتها وبرودتها وجفافها وعجزها وعزلتها وتفاهتها. على سبيل المثال، جاء أحد المرضى بشكوى من فقر الحياة الخيالية والعاطفية، وأوضح أنه اعتبر هذا الفقر نتيجة لقراره بالابتعاد عن الواقع. ونتيجة لذلك، بتعبيره، لم يحصل على أي زاد من الواقع لإثراء خياله.

وتأرجح مريضٌ آخر بين لحظاتٍ شعر فيها كأنه ينفجر بقوة، ولحظاتٍ شعر فيها أنه خاوٍ من الداخل وهامد. ومع ذلك، حتى شعوره «بالهوس» بنفسه تمثَّل في أنه كان حاوية مليئة بالهواء تحت ضغطٍ هائلٍ، إنه ليس إلا هواء ساخنًا، وجاء إحساسه بالانكماش مع هذه الفكرة. وكثيرًا ما يتحدث الفرد شبه الفصامي عن نفسه بهذه المصطلحات، بحيث يكون لدينا، فينومينولوجيًّا، ما يبرر التحدث عن الفراغ الذي تشعر الذات أنه حقيقتها.

إذا كان المريض يضع الفراغ الداخلي والتفاهة والبرودة والعزلة والجفاف مقابل الوفرة والقيمة والدفء والرفقة التي قد يعتقد أنها في

مكان آخر (وهو اعتقاد ينمو غالبًا إلى أبعاد مثالية فانتازية، لا تصححها أي خبرة مباشرة)، تظهر كتلة من المشاعر المتضاربة، من الشوق اليائس والتوق إلى ما يتمتع به الآخرون ويفتقر إليه، إلى الحسد المحموم وكراهية كل ما هو ملكهم وليس ملكه، أو الرغبة في تدمير كل خير ونضارة وثراء في العالم، وقد تُعوَّض هذه المشاعر، بدورها، بمواقف مضادة من الترفع أو الازدراء أو الاشمئزاز أو اللا مبالاة.

وهذا الفراغ، هذا الشعور بانعدام الثراء الداخلي والجوهر والقيمة، إذا فاق قدرته الوهمية المطلقة، يكون دافعًا قويًّا لإجراء «اتصال» بالواقع. وهكذا تتوق الروح أو الذات المهجورة والقاحلة إلى الانتعاش والتخصيب، لكنها لا تشتاق إلى مجرد علاقة بين كائنات منفصلة، بل إلى أن ينقعها الآخر ويغمرها تمامًا.

حكى جيمس (انظر ص ٢٠٢ وما يليها) كيف بدأ يشعر فجأة، وهو يمشي في أمسية صيفية في الحديقة بمفرده، يشاهد الأزواج وهم يمارسون الحب، بتوحدٍ هائلٍ مع العالم بأسره، مع السماء والأشجار والزهور والعشب - ومع العشاق أيضًا. ركض إلى المنزل في حالة من الذعر، وانغمس في كتبه. قال لنفسه إنه لا حقَّ له في هذا الشعور، لكنه بالإضافة إلى ذلك، شعر برعبٍ من التهديد بفقدان الهوية نتيجة اندماج ذاته وانصهارها مع العالم كله. لم يكن يعرف مرحلة منتصف الطريق بين العزلة الجذرية: في استغراق الذات أو الاستغراق الكامل في كل ما هو موجود. كان خائفًا من أن تستغرقه الطبيعة، وتبتلعه، ويخسر نفسه خسارة لا رجعة فيها، ومع ذلك، كان أكثر ما يخيفه أنه يتوق إليها

بشدة أيضًا. الجمال الفاني، كما قال جيرارد مانلي هوبكنز،(1) خطير. إذا استطاع هؤلاء الأفراد أن يأخذوا بنصيحته، ثم يتركونها لحالها، فستكون الأمور أسهل. لكنهم لا يمكن أن يفعلوا هذا تحديدًا.

يشتاق للوفرة هناك، على عكس الفراغ هنا، لكن المشاركة دون فقدان الكينونة تبدو مستحيلة، وهي أيضًا ليست كافية، ولذا على الفرد أن يتمسَّك بعزلته -انفصاله دون ارتباط مباشر وعفوي- لأنه بذلك يتمسَّك بهويته. شوقه إلى الاتحاد الكامل. لكنه يخشى هذا الشوق نفسه، لأنها سيكون نهاية ذاته. إنه لا يرغب في علاقة الإثراء المتبادل وتبادل الأخذ والعطاء بين كائنين «متجانسين» معًا، إنه لا يتصور قيام علاقة ديالكتيكية.(2)

ما قد يحدث هو أن خبرة فقدان الذات الفردية المنعزلة يمكن تحمُّلها في مواقف معينة محدودة من دون قلقٍ شديدٍ. قد يفقد المرء نفسه في الاستماع إلى الموسيقى، أو في خبراتٍ شبه صوفية حين تشعر الذات بأنها مندمجة مع غير الذات not-self التي قد يسمى «الرب»، لكن ليس بالضرورة. ومع ذلك، فإن اشتياق الذات للهروب من ملل جماعتها يواجه عمومًا عقبتين لا يمكن التغلُّب عليهما، يتمثلان في القلق والشعور بالذنب اللذين يثيرهما هذا الشوق. وقد ذُكِر بالفعل

(1) هوبكنز Hopkins (١٨٤٤-١٨٨٩): شاعر إنجليزي (المترجم).

(2) يفترض أفلاطون أن الصداقة لا يمكن أن توجد إلا بين كائنات «متجانسة»، إلا أن النقاش حول إمكانية الصداقة في محاورة ليسيس *Lysis* يقع في معضلة: إذا كان كائنان لا يريدان أي شيء، فلماذا يريد أي منهما شيئًا من الآخر؟ في هذه القضية المركزية - هل هو مكتفٍ ذاتيًا أم أنه «يريد» شيئًا؟ تكون حياة الشخص شبه الفصامي خاضعة للمؤسس.

في مختلف سياقات القلق المصاحب لفقدان الهوية أنها تبتلع. إحدى الطرق، بالطبع، الحصول على ما يريده المرء من شخصٍ ما، مع الاحتفاظ بالسيطرة على عملية الاستحواذ، بالسرقة.

تأسس الفانتازيا شبه الفصامية للسرقة والتعرض للسرقة على هذه المعضلة. إذا سرقت ما تريده من الآخر، تكون مسيطرًا؛ لا تكون تحت رحمة ما يُعطَى لك، لكن تبدو كل النوايا متبادلة على الفور. تولد الرغبة في السرقة رهاب التعرض للسرقة؛ فانتازيا أن المرء يستحق ما يمتلكه بالسرقة تصاحبها الفانتازيا المضادة بأن الآخرين يستحقون ما سرقوه منه (انظر روز Rose، الفصل ٩)، وأن أي شيء سيؤخذ منه في النهاية: ليس فقط ما **يمتلكه** المرء، بل **كينونته**، ذات المرء نفسه. ومن هنا تأتي الشكوى الشائعة لدى مرضى الفصام بأن «الذات» سُرقت، وتأتي الدفاعات ضد هذا الخطر الدائم.

يكتمل التطويق الذاتي للذات بشعورها بالذنب. في الفرد شبه الفصامي يكون للشعور بالذنب الخاصية المتناقضة نفسها التي رأيناها في قدرته المطلقة وعجزه، وحريته وعبودية، وأنه أي شخص في الفانتازيا ولا شيء في الواقع. ويبدو أن داخل كيان الفرد مصادر مختلفة للشعور بالذنب. في كيان منقسم إلى «ذوات» مختلفة على المرء أن يعرف أي ذاتٍ تشعر بالذنب وبشأن ماذا. بعبارة أخرى، في الفرد شبه الفصامي لا يوجد ولا يمكن أن يوجد شعورٌ بالذنب موحدٌ ومتسق. وفقًا للمبادئ العامة، قد يفترض المرء أن مصدر الشعور بالذنب في الذات الزائفة، وقد ينشأ مصدرٌ آخر للشعور بالذنب في الذات الداخلية. ومع

ذلك، إذا وصفنا أي شعور بالذنب قد يكون نظام الذات الزائفة قادرًا عليه بأنه شعورٌ زائفٌ بالذنب، فعلى المرء أن يحرص على تجنُّب اعتبار الذات الداخلية مصدر الشعور «الأصلي» أو الحقيقي بالذنب.

وأود، هنا، أن أكتفي بتمهيد الطريق لمناقشة هذه المشكلة بإسهابٍ على أساس المواد الإكلينيكية (ص ١٨٤ وما يليها).

إذا كان هناك شيء يمكن أن يؤمن به شبه الفصامي، فهو قدرته التدميرية. إنه لا يستطيع تصديق أنه يمكن أن يملأ فراغه من دون اختزال الموجود إلى عدمٍ. إنه يعتبر حبه وحب الآخرين مدمرًا مثل الكراهية. يهدد ذاته أن يُحَب؛ وحبه خطيرٌ بالقدر نفسه على أي شخصٍ آخر. وعزلته ليست من أجل نفسه فقط، إنها أيضًا نتيجة الاهتمام بالآخرين. مريضة الفصام التي لا تسمح لأي شخص بلمسها، لا تفعل ذلك لأنه قد يؤذيها، لكن لأنها قد تصعقه بالكهرباء. وهذا ببساطة تعبيرٌ ذهاني عمَّا يشعر به الشخص شبه الفصامي يوميًّا. يقول: «لن يكون من العدل لأي شخص قد أحبه أن أحبه». ما قد يفعله بعد ذلك أن يدمر «في ذهنه» صورة أي شخص أو أي شيء قد يكون معرضًا لخطرٍ أن يغرم به، بدافع الرغبة في حماية ذلك الشخص أو الشيء الآخر في الواقع من التدمير. وبالتالي إذا لم يكن هناك ما يريده، وما يحسد عليه، فقد لا يكون هناك ما يحبه، لكن لا يوجد شيء يمكن أن يقلصه إلى عدم. في النهاية، يشرع في قتل «ذاته»، وهذا ليس في سهولة قطع الحلق. ينزل إلى دوامة من اللا وجود لتجنُّب الوجود، لكن أيضًا للحفاظ على الوجود من نفسه.

٦

نظام الذات الزائفة[١]

«الذات الداخلية» مشغولة بالفانتازيا والملاحظة، إنها تلاحظ عمليات الإدراك والتصـرُّف. الخبرة لا تؤثِّر (أو على أي حالٍ هذه هي النية) مباشرة على هذه الذات، وتصرفات الفرد ليست تعبيرًا عن الذات. العلاقات المباشرة مع العالم مجال نظام الذات الزائفة. وعلينا الآن فحص خصائص هذا النظام.

(١) الذات الزائفة طريقة للتعبير عن عدم وجود الذات. وفيما يلي بعض أهم الدراسات ضمن التراث الوجودي المرتبط بفهم الذات الزائفة، تعبيرًا عن العيش بشكلٍ غير حقيقي: كيركجارد، المرض حتى الموت (١٩٥٤)؛ هايدجر، الوجود والزمن Sein und Zeit (١٩٥٣)؛ مناقشة سارتر حول «سوء النية» في الوجود والعدم (١٩٥٦)؛ بينسوانجر، ثلاثة أشكال للوجود الفاشل Drei Formen missglückten Daseins (١٩٥٢) و«حالة إلين ويست» (١٩٥٨)؛ ورولاند كون، فينومينولوجيا القناع La Phénoménologie de masque (١٩٥٧). وضمن تراث التحليل النفسي، نجد ما يلي من بين الدراسات الأكثر صلة: دويتش Deutsch، «بعض أشكال الاضطرابات العاطفية وعلاقتها بالفصام» (١٩٤٢)؛ فيربيرن، دراسات التحليل النفسي للشخصية Psychoanalytic studies of the personality (١٩٥٢)؛ جنتريب، «دراسة لنظرية فيربيرن لتفاعلات الفصام» (١٩٥٢)؛ وينيكوت، أوراق مجمعة (١٩٥٨) (مواضع متفرقة)؛ ولبيرج، «المريض 'البيني'» (١٩٥٢)؛ وولف في الفصام في ممارسة مكتب التحليل النفسي Schizophrenia in psychoanalytic office practice (ص ١٣٥-١٣٩، ١٩٥٧).

على المرء أن يوضح أن وصف نظام الذات الزائفة فيما يلي موجَّه ليتناول بشكلٍ خاص مشكلة الوضع شبه الفصامي الخاص للوجود في العالم قيد المناقشة. كل إنسان معني شخصيًّا بما إذا كان «وفيًّا لطبيعته الحقيقية» أو إلى أي مدى يكون وفيًّا لها. في الممارسة الإكلينيكية، للشخص المصاب بالهستيريا والشخص المصاب بالهوس الخفيف، على سبيل المثال، طرقٌ خاصة في ألا يكونا على طبيعتهما. ويوجد نظام الذات الزائفة الذي يوصف هنا بوصفه مكمِّلًا للذات «الداخلية» المنشغلة بالحفاظ على هويتها وحريتها بأن تكون متسامية، وغير مجسدة، وبالتالي لا يمكن استيعابها، وتحديدها، ومحاصرتها، وامتلاكها. تسعى إلى أن تكون ذاتًا خالصة، من دون أي وجود موضوعي. وهكذا، باستثناء بعض اللحظات الآمنة الممكنة، يسعى الفرد إلى اعتبار وجوده الموضوعي كله تعبيرًا عن الذات الزائفة. بالطبع، كما أشرنا سابقًا، وكما نرى بمزيدٍ من التفصيل لاحقًا، إذا لم يكن الإنسان ثنائي الأبعاد، بهوية ثنائية الأبعاد يرسخها اقتران هوية من أجل الآخرين، وهوية من أجل الذات، إذا لم يوجد بشكلٍ موضوعي كما يوجد بشكلٍ ذاتي، وله هوية ذاتية فقط، هوية من أجل ذاته، فلا يمكن أن يكون حقيقيًّا.

في الواقع، نادرًا جدًّا ما يوجد «إنسانٌ بلا قناعٍ». حتى إن المرء يشك في إمكانية وجود مثل هذا الإنسان. يلبس كلُّ شخصٍ قناعًا إلى حدٍّ ما، وهناك أشياء كثيرة لا ننغمس فيها تمامًا. في الحياة «العادية» من الصعب أن يكون الأمر على خلاف ذلك.

ومع ذلك، تختلف الذات الزائفة للفرد شبه الفُصامي في بعض النواحي المهمة عن القناع الذي يرتديه الشخص «الطبيعي»، وأيضًا عن الواجهة الزائفة التي يحافظ عليها الهستيري بشكلٍ مميز. ونتجنب الالتباس إذا ميَّزنا بإيجازٍ بين هذه الأشكال الثلاثة للذات الزائفة:

في الشخص «الطبيعي»، قد يكون عددٌ كبيرٌ من تصـرفاته آلية بالفعل. وهذه المجالات من السلوك الآلي بالفعل، مع ذلك، لا تنتهك بالضـرورة كل جوانب كل ما يفعله، فهي لا تمنع تمامًا ظهور التعبيرات التلقائية، وهي ليست تمامًا «ضد التيار» بحيث يسعى الفرد بنشاطٍ إلى إنكارها كأنها أجسامٌ غريبة استقرَّت في تركيبته. بالإضافة إلى ذلك، فهي لا تتخذ طريقة قهرية مستقلة خاصة بها، بحيث يشعر الفرد أنها «تبعث فيه الحياة» أو تقتله بدل أن يبعث فيها الحياة. القضية، على أي حالٍ، لا تنشأ بهذه الحدة المؤلمة بحيث يكون عليه مهاجمة هذا الواقع الغريب في داخله وتدميره كأن له وجودًا (شخصيًّا) منفصلًا تقريبًا. بالعكس، هذه الخصائص، الغائبة في «الطبيعي»، موجودة بشكلٍ كبيرٍ في نظام الذات الزائفة شبه الفصامية.

ويتظاهر الهستيري بأن بعض الأنشطة المُرضية للغاية مجرد تظاهر، أو لا تعني شيئًا، أو ليس لها آثارٌ خاصة، أو أنه يفعل كذا وكذا لأنه مجبرٌ على ذلك، بينما تتحقق رغباته سرًّا في هذه الأنشطة نفسها ومن خلالها. الذات الزائفة للشخص شبه الفصامي امتثالٌ قهري لإرادة الآخرين، وهي مستقلة جزئيًّا وخارج السيطرة، وتبدو غريبة؛ إن انعدام الواقعية، وانعدام المعنى، واللا مبالاة التي تتخلل تصوراتها وأفكارها ومشاعرها

وأفعالها وموتها الكلي ليست مجرد نتاجٍ لدفاعات ثانوية ولكنها نتائج مباشرة للبنية الديناميكية الأساسية لكيان الفرد.

على سبيل المثال، ذكر أحد المرضى أنه كان في المدرسة مولعًا بالرياضيات ولكنه كان يحتقر الأدب. عرضت **الليلة الثانية عشرة**[١] في المدرسة وكان على الأولاد كتابة مقال حول الموضوع، شعر حينها أنه يكره المسرحية لكنه كتب مقالًا يمتدحها كثيرًا، بتخيل ما يمكن أن تتوقعه منه المدرسة والالتزام به بعبودية. وفاز المقال بجائزة. «لم تكن فيه كلمة واحدة تعبر عمَّا شعرت به، كان كل ما شعرْتُ به ما كان من المتوقع أن أشعر به»، أو هكذا اعتقد حينها. في الواقع، كما اعترف لنفسه لاحقًا، فقد استمتع **حقًّا** بالمسرحية، وشعر بها **حقًّا** كما وصفها في المقال. لكنه لم يجرؤ على الاعتراف بهذا الاحتمال لنفسه لأنه كان سيدفعه إلى صراعٍ عنيفٍ مع كل القيم التي غُرِستْ فيه وتشوش فكرته تمامًا عن كينونته. ومع ذلك، كانت هذه حادثة عصابية وليست شبه فصامية. استمر هذا المريض بطرقٍ أخرى في فعل ما يريده سرًّا، بينما يقنع نفسه بأنه لا يفعل إلا ما يريده الآخرون. وبهذه الطريقة نجح في تحقيق رغباته، مع أنه كان يجد صعوبة حينها في الاعتراف بذلك لنفسه. وبالتالي، قد يتظاهر العصابي بأن لديه نظامًا ذاتيًّا زائفًا يشبه ظاهريًّا نظام شبه الفصامي، لكن عند الفحص الدقيق، نرى أن الظروف، في الواقع، مختلفة اختلافًا كبيرًا.

غالبًا ما يبدأ الهستيري بالتظاهر بأن تصرفاته لا تمثِّله بينما يحقق

---

(١) الليلة الثانية عشرة Twelfth Night: من مسرحيات شكسبير (المترجم).

نفسه حقًّا من خلالها. إذا كان مهددًا بهذه الرؤية في مواجهة شعور شديد جدًّا بالذنب، تُحبَط تصرفاته، على سبيل المثال، يصاب بشللٍ «هستيري»، يمنع تنفيذ التصرفات التي تغذي الشعور بالذنب.

يمكن رؤية أمثلة واضحة بشكلٍ خاص على الذوات الزائفة شبه الفصامية في حالات جيمس (ص ١٩٧) وديفيد (ص ٩٦) وبيتر (الفصل الثامن).

في أي شخص، يكون نظام الذات الزائفة معقدًا للغاية دائمًا، ويحتوي على تناقضاتٍ كثيرة. ونحاول في هذا الفصل إصدار بيانات قابلة للتطبيق بشكلٍ عام، لكن يجب علينا ونحن نفعل ذلك بناء الصورة بالنظر في مكون من المكونات الكثيرة لهذا النظام في كل مرة.

نتذكر أن جيمس قال إنه ليس شخصًا في حد ذاته. في سلوكه سمح لنفسه بأن يصبح «شيئًا» بالنسبة إلى الآخرين. شعر أن أمه لم تعترف بوجوده قطُّ. يمكن للمرء أن يقول، كما أفترضُ، أنه يمكن للمرء أن يتعرَّف على وجود شخصٍ آخر بشكلٍ جيدٍ تمامًا في وولورث،[١] لكن من الواضح أن هذا لم يكن ما يدور في ذهنه. شعر أنها لم تعترف قطُّ بحريته وحقِّه في أن تكون له حياة ذاتية خاصة به من خلالها تظهر تصرفاته تعبيرًا عن ذاته المستقلة والمتكاملة. على العكس، لم يكن إلا دميتها، «كنْتُ مجرد رمزٍ لواقعها». ما حدث هو أنه طوَّر ذاتيته داخليًّا من دون أن يجرؤ على السماح لها بأي تعبير موضوعي. في حالته، لم يكن

---

(١) وولورث Woolworth's: شركة بيع بالتجزئة وواحدة من رواد متاجر بيع السلع الرخيصة، وكانت من أنجح الشركات الأمريكية والعالمية في هذا المجال (المترجم).

هذا كليًّا، لأنه كان يستطيع التعبير عن ذاته «الحقيقية» **بالكلمات** بوضوحٍ شديدٍ وقوة. كان يعرف هذا: «يمكن أن أصدر أصواتًا فقط». ومع ذلك، لم يكن هناك أي شيء آخر يفعله، لأن جميع تصرفاته الأخرى لم تكن محكومة بإرادته بل بإرادة غريبة تشكَّلت داخل كيانه؛ كانت انعكاسًا لإرادة الواقع الغريب لأمه الذي يعمل الآن من مصدر داخل كيانه. الأخرى، بالطبع، يجب أن تكون الأم دائمًا للوهلة الأولى، أي «الراعية». وتصرفات هذه الذات الزائفة ليست بالضرورة تقليدًا أو نسخًا للأخرى، مع أن تصرفاتها قد تكون إلى حدٍّ كبيرٍ انتحال شخصيات أو تصرفات كاريكاتورية لشخصيات أخرى. والعنصر الذي نرغب في فصله حاليًّا هو الامتثال الأولي لنوايا الشخص الآخر أو توقعاته بشأن ذات المرء، أو ما يبدو أنه نوايا الشخص الآخر أو توقعاته. ويكون هذا عادة تجاوزًا «للطيبة»، ألا يقوم بأي شيء بخلاف ما يقال له، ولا يمثل «مشكلة» أبدًا، ولا يقبل أبدًا أو حتى يخون أي إرادة مضادة لإرادته. ومع ذلك، أن يكون المرء طيبًا لا يتم بأي رغبة إيجابية من جانب الفرد نفسه للقيام بالأشياء التي يقول الآخرون إنها طيبة، بل بامتثالٍ سلبي لمعيار هو معيار الآخرين وليس معيار المرء نفسه، وهو بدافع الخوف مما قد يحدث إذا كان المرء هو نفسه في الواقع. وهذا الامتثال بالتالي، خيانة جزئيًّا لإمكانيات المرء الحقيقية، لكنه أيضًا أسلوبٌ لإخفاء الاحتمالات الحقيقية للفرد وحفظها، التي يخاطر، مع ذلك، بعدم ترجمتها إلى حقائق أبدًا إذا تركزت تمامًا في الذات الداخلية من أجل أن تكون كل الأشياء ممكنة في الخيال ولا شيء ممكن في الواقع.

قلنا إن الذات الزائفة تنشأ إذعانًا لنوايا الآخر أو توقعاته، أو مع ما يُتخيَّل أنه نوايا الآخر أو توقعاته. وهذا لا يعني **بالضرورة** أن الذات الزائفة طيبة بشكلٍ عبثي. وقد تكون سيئة بشكلٍ عبثي. ويُعبَّر عن السمة الأساسية للمكوِّن المتوافق في الذات الزائفة في تصريح جيمس بأنه كان «استجابة لما يرى الآخرون أنه أنا». ويتكوَّن هذا بالتصرف وفقًا لتعريفات الآخرين لكينونته، بدلًا من ترجمة تعريف المرء إلى تصرفات لمن أو ما يرغب في أن يكون عليه. إنه يتكوَّن من التحول إلى ما يريده الشخص الآخر أو يتوقع أن يتحوَّل إليه المرء بينما يكون «ذاته» في الخيال فقط أو في اللعب أمام مرآة. وبالتالي، بالتوافق مع ما يدركه المرء أو يتخيله على أنه الشيء الذي يوجد في عيني الشخص الآخر، تصبح الذات الزائفة ذلك الشيء. قد يكون هذا الشيء آثمًا زائفًا كما قد يكون قديسًا زائفًا. ومع ذلك، في الشخص شبه الفصامي، لا يتوافق كيانه كله ولا يمتثل بهذه الطريقة. الانقسام الأساسي في كيانه على طول خط الانقسام بين امتثاله الخارجي وامتناعه الداخلي عن الامتثال.

تظاهر إياجو[1] بغير حقيقته، وبالفعل، مسرحية **عطيل** ككلٍّ مشغولة بما يعنيه أن «تبدو شيئًا وأن تكون شيئًا آخر». لكننا لا نجد في تلك المسرحية أو في أي مكانٍ آخر في شكسبير علاجًا لمعضلة الظهور والعيش كما تعيش شخصية من النوع الذي نركز عليه هنا. «تتظاهر» الشخصيات في أعمال شكسبير لتعزيز أغراضها الخاصة. و»يتظاهر» الشخص شبه الفصامي لأنه يخشى ألا يبدو أنه يعزز ما

(١) إياجو Iago: من شخصيات مسرحية عطيل لشكسبير (المترجم).

يتخيل أنه رؤية شخص آخر له. بالمعنى السلبي وحده يعزز رؤيته الخاصة طالما كان هذا الامتثال الخارجي إلى حدٍّ كبيرٍ محاولة للحفاظ على ذاته من الانقراض التام. لكنه قد «ينتقم» بمهاجمة امتثاله (انظر ما يلي ص ١٢٩).

غالبًا ما يكون السلوك الذي يمكن ملاحظة أنه تعبيرٌ عن الذات الزائفة طبيعيًّا تمامًا. نرى طفلًا نموذجيًّا، زوجًا مثاليًّا، كاتبًا مجتهدًا. ومع ذلك، عادة ما تصبح هذه الواجهة أكثر نمطية، وتتطور الخصائص الغريبة في الصورة النمطية. ومرة أخرى، هناك عددٌ من الخيوط التي لا يمكن اتباعها إلا بخيطٍ واحدٍ في كل مرة.

أحد مظاهر امتثال الذات الزائفة الأكثر وضوحًا هو الخوف الذي يتضمنه هذا الامتثال. الخوف فيه واضحٌ، لماذا يتصرَّف أي شخص، ليس حسب نواياه، بل وفقًا لنوايا شخص آخر؟ كما أن الكراهية حاضرة بالضرورة، وماذا يكون موضوع الكراهية غير ذلك الذي يعرِّض ذات المرء للخطر؟ لكن القلق الذي تخضع له الذات يحول دون إمكانية الكشف المباشر عن كراهيتها، إلا في الذهان، كما نرى لاحقًا. إن ما يُسمَّى الذهان يكون أحيانًا مجرد إزالة مفاجئة لحجاب الذات الزائفة، الذي كان يقوم بمهمة الحفاظ على حالة سلوكية خارجية طبيعية فشلت، منذ زمنٍ بعيدٍ، في أن تمثل أي انعكاسٍ لوضع الذات السرية. ثم تطلق الذات اتهامات بالاضطهاد على يدي ذلك الشخص الذي امتثلت له الذات الزائفة سنوات.

سيعلن الفرد أن هذا الشخص (الأم، الأب، الزوج، الزوجة) كان

يحاول قتله، أو أنه حاول سرقة «روحه» أو عقله. إنه طاغية، جلادٌ، قاتلٌ، قاتل أطفال، إلخ. لأغراضنا الحالية، من المهم أن ندرك الإحساس الذي تعتبر فيه هذه «الهذاءات» صحيحة أكثر منها عبثية.

ومع ذلك، تنكشف هذه الكراهية بطريقة أخرى متوافقة تمامًا، إلى حدٍّ ما، مع العقل. هناك ميلٌ للذات الزائفة للتظاهر **بالمزيد والمزيد من خصائص الشخص أو الأشخاص الذين يتأسس امتثالها عليهم**. هذا التظاهر بخصائص الشخص الآخر قد يصل إلى حد انتحال شبه كامل لشخصية الآخر. تصبح **كراهية انتحال الشخصية** واضحة حين يبدأ انتحال الشخصية بالتحول إلى صورة كاريكاتورية.

وانتحال الذات الزائفة لشخصية الآخر لا يتطابق تمامًا مع امتثالها لإرادة الآخر، فقد يتعارض بشكلٍ مباشر مع إرادة الآخر. قد يكون انتحال الشخصية متعمدًا، كما هو الحال مع بعض الأدوار التي لعبها ديفيد. لكن، كما في حالة ديفيد أيضًا، قد يكون انتحال الشخصية قهريًّا. قد لا يدرك الفرد إلى أي مدى تشكِّل تصرفاته انتحالًا لشخصية شخصٍ آخر. قد يكون انتحال الشخصية ذا طبيعة ثابتة ودائمة نسبيًّا أو قد يكون مؤقتًا تمامًا. أخيرًا، قد تكون الشخصية التي تُؤدَّى شخصية فانتازية أكثر مما تكون شخصية أي شخص حقيقي، تمامًا كما قد يكون الامتثال أيضًا امتثالًا لشخصية فانتازية أكثر بكثيرٍ من أن يكون لأي شخصٍ حقيقي.

انتحال الشخصية شكلٌ من أشكال التماهي حيث يتظاهر جزءٌ من الفرد بهوية شخصية ليست شخصيته. في انتحال الشخصية، لا يتورط المنتحل كله بالضرورة. عادة ما يكون تحديدًا تماهيًا لأقل من الكل

يقتصر على التظاهر بخصائص سلوك شخص آخر - إيماءاته وتأنقه وتعبيراته، بمظهره وتصرفاته عمومًا. قد يكون انتحال الشخصية مكوِّنًا واحدًا في تماهٍ أشمل مغ الآخر، لكن يبدو أن إحدى وظائفه تتمثَّل في منع حدوث تماهٍ أشمل مع الآخر (وبالتالي خسارة كاملة لهوية الفرد).

بالإشارة مرة أخرى إلى ديفيد، يبدو أن تصرفاته منذ بداية حياته كانت في حالة امتثالٍ وتوافقٍ تام تقريبًا مع الرغبات والتوقعات الفعلية لوالديه، أي أنه كان طفلًا مثاليًّا ولم يمثِّل مشكلة قطٌّ. وصرْتُ أعتبر مثل هذه الرواية للأصول المبكرة للسلوك تنذر بالسوء بشدة، حين لا يشعر الوالدان بأي خطأ في أي شيء، وعلى العكس، يذكران الأمر بفخرٍ واضحٍ.

بدأ ديفيد، بعد وفاة أمه وهو في العاشرة، يُظهر تماهيًا هائلًا معها؛ ارتدى ملابسها أمام المرآة، وحافظ لأبيه على المنزل كما كانت تفعل أمه، لدرجة أنه كان يرتق جواربه، ويقوم بأعمال الحياكة والخياطة والتطريز وزخرفة النسيج، ويختار أغطية الكرسي والستائر. وعلى الرغم من أن الأمر واضحٌ تمامًا لمراقب خارجي، فإنه لم يتضح للمريض ولا للأب إلى أي مدى صار أمه. ومن الواضح أيضًا أن الصبي، بفعل ذلك، كان يلبي رغبة أبيه التي لم يعبِّر عنها بشكلٍ مباشرٍ مطلقًا، وكان أبوه لا يدرك وجودها على الإطلاق. كانت الذات الزائفة لهذا التلميذ نظامًا أكثر تعقيدًا حين كان في الرابعة عشرة. لم يدرك مدى تماهيه مع أمه، لكنه أدرك تمامًا ميله القهري للتصرف بطريقة أنثوية وصعوبة التخلص من دور الليدي ماكبث.

لمنع نفسه من الانزلاق إلى شخصية مظهرية أو أنثى ما، كان عليه أن يشرع عن عمدٍ في رعاية الشخصيات الأخرى. على الرغم من أنه حاول جاهدًا الحفاظ على انتحال شخصية تلميذ عادي يعجب به الناس (وهو المثل الأعلى البسيط للذات الزائفة المطيعة)، فإن ذاته الزائفة أصبحت الآن نظامًا كاملًا من الشخصيات، تطور بعضها بشكلٍ «ممكن» اجتماعيًّا، والبعض الآخر بشكلٍ غير ممكن، وبعضها بشكلٍ قهري، والبعض الآخر بشكلٍ متعمدٍ. لكن على العموم كان هناك ميلٌ مستمرٌّ إلى صعوبة الحفاظ على انتحال الشخصية من دون تدخل بعض العناصر المزعجة.

عمومًا، في المظهر الأصلي للحالة الطبيعية الكاملة والتكيف، يزحف بعض الشذوذ، وبعض الإفراط القهري في اتجاهات غير مألوفة مما يحوله إلى كاريكاتير ويخلق في الآخرين نوعًا من القلق وعدم الارتياح، وحتى الكراهية.

على سبيل المثال، كان جيمس في بعض النواحي «يقتفي خطوات» أبيه. كانت إحدى سمات أبيه المزعجة طريقة سؤال الناس على المائدة عمَّا إذا كان أمامهم ما يكفي من الطعام، والميل للضغط عليهم للحصول على المزيد، حتى حين يقولون بوضوحٍ تامٍّ إنهم راضون. كان جيمس «يقتفي خطوات» أبيه في هذا الصدد؛ حرص دائمًا على الاستفسار بأدبٍ عن هذا من الضيوف على المائدة. في البداية بدا الأمر كأنه ليس أكثر من اهتمامٍ ينم عن الكرم بأنه يجب أن يكون لدى الآخرين ما يكفي من الطعام. لكن تساؤلاته أصبحت بعد ذلك قهرية وتجاوزت كل الحدود المحتملة،

بحيث تحوَّل إلى مصدر إزعاجٍ كامل وتسبَّب في ارتباكٍ عام. في هذا، اعتقد أن ما شعر به كان من الآثار العدوانية لتصرفات أبيه، وعرض هذه الآثار، بتضخيمها في تكيفه الخاص، للسخرية العامة والغضب. وقد أثار، في الواقع، لدى الآخرين المشاعر التي كان يشعر بها تجاه أبيه، لكنه لم يكن قادرًا على التعبير مباشرة في وجهه. وبدلًا من ذلك، أنتج ما كان بمثابة تعليقٍ ساخرٍ على والده بصورة كاريكاتورية قهرية له.

وهذا أساس من غرابة أطوار شبه الفصامي وغرابة سلوكه إلى حدٍّ بعيدٍ. يبدأ الفرد بالامتثال العبودي والطاعة، وينتهي من خلال وسيط هذا الامتثال والطاعة بالتعبير عن إرادته السلبية وكراهيته.

يصل امتثال نظام الذات الزائفة لإرادة الآخرين إلى أقصى درجة في الطاعة التلقائية، وتكرار الحركات، وتكرار الكلمات، والبقاء في وضعٍ ثابتٍ لمدة طويلة في حالات التخشب. هنا تأتي الطاعة والتقليد والنسخ بدرجة تجعل المحاكاة الساخرة البشعة نتيجة ذلك بمثابة لائحة اتهام خفية للفاحص المتلاعب. غالبًا ما يستخدم مريض الفصام الهيبيفريني التخمين وتقليد الأشخاص الذين يكرههم ويخافهم باعتبارها الوسيلة المفضَّلة والوحيدة المتاحة لمهاجمتهم. قد تكون هذه إحدى نكات المريض.

تأتي الجوانب الأكثر كراهية للشخص الذي هو موضوع التماهي في المقدمة بالتعرض للسخرية أو الازدراء أو الكراهية بانتحال الشخصية. تحوَّل تماهي ديفيد مع أمه إلى انتحالٍ قهري لشخصية ملكة شريرة.

تكره الذات السرية «الداخلية» خصائص الذات الزائفة، وتخشاها

أيضًا، لأن التظاهر بهوية غريبة يبدو دائمًا تهديدًا لهوية المرء. تخشى الذات أن يبتلعها تمدد التماهي. وقد يبدو إلى حدٍّ ما، أن نظام الذات الزائفة يتصرف بشكلٍ يشبه الجهاز الشبكي البطاني[1] في الجسم، الذي يحجب ويغلف المواد الغريبة الخطرة المتطفلة، وبالتالي يمنع هؤلاء الدخلاء من الانتشار بشكلٍ أكبر في جميع أجزاء الجسم. لكن إذا كانت هذه هي وظيفته الدفاعية، فيجب الحكم عليه بالفشل. الذات الداخلية ليست حقيقية أكثر من الخارجية. تحوَّلت الذات السرية الداخلية لديفيد إلى وكالة للتلاعب أكثر سيطرة استخدمت ذاته الزائفة إلى حدٍّ كبيرٍ مثل الدمية التي شعر أنه كان يمثِّلها بالنسبة إلى أمه. أي أن ظل أمه سقط على ذاته الداخلية وعلى ذاته الخارجية أيضًا.

حدثت نسخة تعليمية من هذه المشكلة في فتاة في العشرين كانت شكواها من أنها «منشغلة بذاتها» لأن وجهها بشعٌ. وضعت على وجهها بودرة بيضاء وأحمر شفاه فاتحًا، مما أعطاه، إن لم يكن مظهرًا بشعًا، فعلى الأقل تعبيرًا مزعجًا وبهلوانيًّا يشبه القناع، لم يبدُ بالتأكيد أنه أفاد سماتها. في عقلها، فعلت هذا للتستر على مدى البشاعة التي كانت تحت مكياجها الثقيل. بمزيدٍ من الفحص، اتضح أن موقف هذه الفتاة من وجهها يحتوي في الشكل الأساسي على القضية المركزية في حياتها: علاقتها مع أمها.

---

(١) الجهاز الشبكي البطاني reticuloendothelial: جزء من جهاز المناعة يضم بَعْض خلايا نُخاعِ العظم، جهاز لمفاوي، كبد، وطحال، الذي لَهُ شبكيةُ وخصائصُ ووظيفةُ في دفاعِ نظامَ المناعة ضدّ الأجسام الغريبةِ (المترجم).

كانت مدمنة بشكلٍ كبيرٍ على فحص وجهها في المرآة. ذات يومٍ خطر ببالها كيف تبدو بغيضة. كمنت في عقلها لسنواتٍ فكرة أن وجهها يشبه وجه أمها. كانت كلمة «بغيضة» حبلى بمعانٍ غامضة. كرهت الوجه الذي رأته في المرآة (وجه أمها). رأت أيضًا كم كان الوجه الذي نظر إليها من المرآة مليئًا بالكراهية؛ هي، التي كانت تنظر إلى المرآة، تماهت مع أمها. في هذا الصدد، كانت أمها ترى الكراهية في وجه ابنتها: أي، بعيني أمها، رأت كراهيتها لأمها في وجهها في المرآة، ونظرت بكراهية إلى كراهية أمها لها.

كانت علاقتها بأمها علاقة حماية مفرطة من جانب أمها، وإفراط في الاعتماد والامتثال من جانبها. لم تستطع تحمل احتمال كراهية أمها، في الواقع، ولا يمكن أن تسمح لنفسها بالاعتراف بأن أمها تكرهها. تركز كل ما لم يجد تعبيرًا مباشرًا واعترافًا مفتوحًا لديها في عَرَضها الذي جاءت تشكو منه. وبدا أن النتيجة الأساسية أنها رأت وجهها الحقيقي بغيضًا (مليئًا بالبغض)، كرهته لأنه يشبه وجه أمها. خافت مما رأته. بتغطية وجهها، أخفتْ كراهيتها وشنَّت هجومًا بديلًا على وجه أمها. عمل مبدأ مماثل في بقية حياتها كلها. في داخلها، لم يتحول التزام الطفل الطبيعي وطاعته إلى إذعان سلبي لكل رغبات أمها فحسب، بل أصبح أيضًا محوًا كاملًا لنفسها واستمر ليتحوَّل إلى محاكاة ساخرة لأي شيء كانت أمها تريده بوعي من ابنتها. حولت امتثالها إلى هجومٍ، وعرضته للجميع ليروه محاكاة ساخرة لذاتها الحقيقية، التي كانت صورة كاريكاتورية بشعة لأمها ونسخة «بشعة» ساخرة من طاعتها.

وهكذا، فإن كراهية الشخص الآخر تتركز على سماته التي شيدها الفرد في كيانه، لكن التظاهر المؤقت، أو لفترة طويلة، بشخصية الآخر يكون، في الوقت نفسه، طريقة لا يكون بها المرء ذاته، طريقة يبدو أنها تقدم الأمان. تحت عباءة شخصية شخص آخر، قد يتصرف الشخص بشكلٍ أكثر كفاءة وسلاسة و»ثقة» - باستخدام تعبير مسز D، قد يفضِّل الفرد أن يدفع ثمن التعرض للإحساس المؤلم بالعقم المصاحب حتمًا حين لا يكون المرءُ ذاتَه، بدل المخاطرة بالشعور الصريح بالعجز والحيرة المرعبة التي تكون البداية الحتمية حين يكون المرءُ ذاته. يميل نظام الذات الزائفة إلى الموت تدريجيًّا. ويبدو، في بعض الناس، كأنهم حوَّلوا حياتهم إلى روبوت جعل نفسه (على ما يبدو) لا غنى عنه.

إلى جانب «الشخصية» الدائمة إلى حدٍّ ما التي يعرضها نظام الذات الزائفة، قد تكون، كما ذكرنا، فريسة على نطاقٍ ضيقٍ لأشكالٍ لا حصر لها من **التماهي المؤقت**. يكتشف الفرد فجأة أنه اكتسب سلوكًا، أو إيماءة، أو تحولًا في الكلام، أو تغييرًا في صوته ولا يكون صوته لكنه صوت شخص آخر. غالبًا ما يكون سلوكًا يكرهه بوعي كراهية شديدة. إن الاكتساب العابر لشظايا صغيرة من سلوك الآخرين ليس مشكلة شبه فصامية فقط، ولكنها تميل إلى الحدوث بإصرارٍ وبشكلٍ قهري في نظام الذات الزائفة شبه الفصامية. إن السلوك الكامل لبعض مرضى الفصام ليس سوى خليط من الخصائص المميزة لأشخاص آخرين، وقد صارت أكثر غرابة بسبب تناقض البيئة التي تتكاثر فيها. والمثال التالي لشخص «طبيعي» تمامًا.

شعرت طالبة اسمها ماكالوم Macallum بمشاعر شديدة التناقض تجاه محاضر اسمه آدامز. في إحدى المرات شعرت بالرعب من أنها وقَّعت باسمها «ماك آدامز Macadams». «كان يمكن أن أقطع يدي اشمئزازًا».

يبدو أن مثل هذه الأجزاء الصغيرة من الآخرين تتغلغل في سلوك الفرد مثل الشظايا في الجسم. بالحفاظ على علاقة سلسة سعيدة على ما يبدو مع العالم الخارجي، يختار الفرد دائمًا تلك الأجزاء الغريبة التي (يراها) تندفع منه بلا حسابٍ. هذه الأجزاء السلوكية تملأ الشخص غالبًا بالاشمئزاز والرعب، كما في حالة هذه الطالبة، وتثير الكراهية والتوتر. «كان يمكن أن أقطع يدي». لكن، بالطبع، هذا الدافع المدمر موجه، في الواقع، ضد يدها. لا يمكن مهاجمة شظية التصرف الصغيرة «المتبناة» أو الجسيم من دون عنفٍ تجاه كيان الشخص. (طمست جان ملامحها في مهاجمة وجود أمها في وجهها).

إذا كان كل سلوك الفرد يُعزَل بشكل قهري من الذات السرية بحيث يُسلَّم كله للتقليد القهري، وانتحال الشخصية، والتصرف الكاريكاتوري، ولمثل هذه الأجسام المؤقتة غريبة السلوك أيضًا، قد يحاول بعد ذلك تجريد ذاته من كل سلوكه. وهذا شكلٌ من أشكال الانسحاب التخشبي. يبدو كأن على المرء أن يحاول علاج عدوى جلدية عامة بنزع جلده كله. وبما أن هذا مستحيلٌ، فإن مريض الفصام قد ينزع جلده السلوكي ويمزقه.

٧

الانشغال بالذات

يتضمن الانشغال بالذات،[1] كما يستخدم المصطلح عادة، شيئين: إدراك المرء لذاته، **وإدراك ذات المرء بوصفها موضوعًا لملاحظة شخصٍ آخر.**

يرتبط هذان الشكلان من أشكال إدراك الذات، بوصفها موضوعًا في عين المرء وبوصفها موضوعًا في أعين الآخرين، ارتباطًا وثيقًا. في الفرد شبه الفصامي، يتعزَّز الاثنان ويتسمان بطبيعة قهرية إلى حدٍّ ما. وكثيرًا ما تعذب الفردَ شبه الفصامي الطبيعةُ القهرية لإدراكه لعملياته، وكذلك الطبيعة القهرية لإحساسه بجسده بوصفه موضوعًا في عالم الآخرين. قد يكون الإحساس المتزايد بأنه يُرَى دائمًا، أو من الممكن أن يُرَى دائمًا بدرجة ما، يمكن إحالته أساسًا إلى الجسد، لكن انشغال المرء بأن رؤيته ممكنة قد يتكثف بفكرة أن الذات العقلية القابلة للاختراق، والهشة، كما حين يشعر الفرد أنه يمكن لشخصٍ أن ينظر من خلاله إلى «عقله» أو «روحه». ويدور الحديث عن مشاعر «لوح الزجاج» من

(١) الانشغال بالذات self-consciousness: انظر هامش سابق عن تعريف المصطلح وترجمته (المترجم).

منظور الاستعارة أو التشبيه عادة، لكن في حالات الذهان يمكن اعتبار تحديق الآخر أو تمعنه اختراقًا فعليًّا لجوهر الذات «الداخلية».

إن زيادة وعي المرء بكيانه أو تكثيفه، بوصفه موضوعًا لوعي المرء نفسه ووعي الآخرين، عام بشكل عملي لدى المراهقين، ويرتبط بالمشاعر المعروفة التي ترافقه من حياء وخجل وارتباك عام. يستدعي المرء بسهولة نسخة من «الشعور بالذنب» لمراعاة مثل هذا الإحراج. لكن الإيحاء، على سبيل المثال، بأن الفرد ينشغل بذاته «لأن» لديه أسرارًا آثمة (مثل الاستمناء) لا يأخذنا بعيدًا. معظم المراهقين يستمنون، وليس من غير المألوف أن يخافوا من ظهور ذلك بطريقة ما في وجوههم. لكن لماذا، إذا كان «الشعور بالذنب» مفتاح هذه الظاهرة، يكون للشعور بالذنب هذه العواقب الخاصة لا غيرها، مع وجود طرق كثيرة لارتكاب الذنوب، والشعور المتزايد بالذات بوصفها موضوعًا محرجًا أو مثيرًا للسخرية في نظر الآخرين ليس الطريقة الوحيدة. الشعور بالذنب بحد ذاته غير كافٍ لمساعدتنا هنا. كثير من الناس الذين يعانون من شعورٍ عميقٍ وساحقٍ بالذنب لا ينشغلون بذواتهم بشكلٍ مفرطٍ. بالإضافة إلى ذلك، من الممكن، على سبيل المثال، أن يتفوَّه المرء بكذبة ويشعر بالذنب نتيجة لذلك ولا يخاف من أن تظهر الكذبة على وجهه، أو يصاب بالعمى. من الإنجازات المهمة حقًّا أن يكتسب الطفل الثقة بأن الكبار لا يمتلكون وسيلة لمعرفة ما يفعله، إذا لم يروه؛ وأنهم لا يستطيعون إلا تخمين ما يدور في ذهنه إذا لم يخبرهم، إن الأفعال التي لم يرها أحدٌ والأفكار التي «احتفظ بها لنفسه» لا يمكن

للآخرين الوصول إليها أبدًا ما لم «يَبُحْ بالسر». الطفل الذي لا **يستطيع** إخفاء سر أو الذي لا **يستطيع** الكذب بسبب استمرار هذه المخاوف السحرية البدائية لم يرسخ قدرًا كاملًا من الاستقلال والهوية. لا شك أنه يمكن العثور، في معظم الظروف، على أسبابٍ وجيهة ضد الكذب، لكن **العجز** عن فعل ذلك ليس من أفضل المبررات.

يشعر الشخص المنشغل بذاته أنه موضوع اهتمام الآخرين أكثر مما يحدث في الواقع. مثل هذا الشخص الذي يسير في الشارع يقترب من طابور السينما. يكون عليه «أن يعد نفسه» ليجتازه: يفضل أن يعبر إلى الجانب الآخر من الشارع. إنها محنة أن يذهب إلى مطعم ويجلس على طاولة بمفرده. في الرقص، ينتظر حتى يرقص زوجان أو ثلاثة أزواج بالفعل قبل أن يجرؤ على أن ينهض، وهكذا.

من الغريب أن هؤلاء الأشخاص الذين يعانون من قلقٍ شديدٍ عند الأداء أو التمثيل أمام الجمهور لا «ينشغلون بذواتهم» عمومًا بالضرورة، والأشخاص المنشغلين بذواتهم جدًّا عادة قد يفقدون انشغالهم القهري بهذه المشكلة حين يؤدون أمام الآخرين - وقد يفترض المرء للوهلة الأولى أن التغلب على هذا الانشغال القهري سيكون أكثر صعوبة بالنسبة إليهم.

قد يبدو أن السمات الإضافية لمثل هذا الانشغال بالذات تشير مرة أخرى إلى أن الشعور بالذنب مفتاح فهم المشكلة. إن النظرة التي يتوقع الفرد أن يوجهها الآخرون إليه يتخيل دائمًا أنها تنتقده بشكلٍ سلبي. يخشى أن يبدو أحمق، أو يخشى أن يعتقد الآخرون أنه يريد التباهي.

حين يعبِّر المريض عن مثل هذه الفانتازيا من السهل أن نفترض أن لديه رغبة سرية غير معترف بها في التباهي، وأن يكون مركز الجاذبية، وأن يكون متفوقًا، وأن يجعل الآخرين يبدون حمقى بجانبه، وأن هذه الرغبة مشحونة بالشعور بالذنب والقلق وبالتالي يعجز عن رؤيتها بهذا الشكل. وبالتالي، فإن المواقف التي تستدعي فانتازيا إشباع هذه الرغبة تفقد كل اللذة. عندئذٍ يصبح الفرد استعراضيًّا بشكلٍ خفيٍّ، يتساوى جسده لا شعوريًّا مع قضيبه. وبالتالي كلما ظهر جسده، فإن الشعور العصابي بالذنب المرتبط بهذه الوسيلة المحتملة للإشباع يعرضه لشكلٍ من أشكال قلق الإخصاء الذي «يقدم» فينومينولوجيًّا على أنه «انشغال بالذات».

إن فهم الانشغال بالذات في بعض هذه الأمور يراوغ، كما أعتقد، القضية المركزية التي تواجه الفرد الذي يتمثل وضعه الوجودي الأساسي في انعدام الأمان الأنطولوجي وتعد طبيعته شبه الفصامية جزئيًّا تعبيرًا مباشرًا عن انعدام أمانه الأنطولوجي، وجزئيًّا محاولة للتغلب عليه؛ أو، بصياغة الملاحظة الأخيرة بكلماتٍ مختلفة إلى حدٍّ ما، محاولة جزئية للدفاع عن نفسه ضد الأخطار التي تهدد كيانه وتكون عواقب فشله في تحقيق إحساس آمن بهويته.

يلعب الانشغال بالذات لدى الشخص غير الآمن أنطولوجيًّا دورًا مزدوجًا:

١ - أن إدراكه لنفسه ومعرفته بأن الآخرين يدركونه وسيلة للتأكد من وجوده، ووجودهم أيضًا. يوضح كافكا هذا بوضوحٍ في قصة

بعنوان «محادثة مع متوسل»: يبدأ المتوسل من الموقف الوجودي لانعدام الأمان الأنطولوجي. يقول: «لم أقتنع في أي وقتٍ من داخلي أنني حي»، وبالتالي، تكون الحاجة إلى الاقتناع بحياته وواقعية الأشياء القضية الأساسية في وجوده. إن طريقته في السعي لاكتساب مثل هذا الاقتناع هي بالشعور بأنه كائنٌ في العالم الواقعي؛ لكن، بما أن عالمه غير واقعي، فلا بُدَّ أنه كائنٌ في عالم شخص آخر، لأن الأشياء بالنسبة إلى الآخرين تبدو واقعية، وحتى هادئة وجميلة. على الأقل، »... يجب أن تكون كذلك، لأنني كثيرًا ما أسمع الناس يتحدثون عنها كأنها كذلك». وبالتالي يعترف »... لا تغضب إذا أخبرتك أن **الهدف من حياتي هو جعل الناس ينظرون إليّ**» (التأكيد لي).

وهناك عاملٌ آخر وهو عدم استمرارية الذات المؤقتة. حين يوجد شكٌّ في الهوية في الزمن، يكون هناك ميلٌ للاعتماد على الوسائل المكانية لتعريف الذات. ربما يفسر هذا بطريقة ما الأهمية البارزة غالبًا لأن يكون الشخص **مرئيًا**. ومع ذلك، قد يكون الاعتماد الأكبر أحيانًا على إدراك الذات في الزمن. ويصح هذا بشكلٍ خاص حين يبدو الزمن سلسلة متتابعة من اللحظات. قد يبدو فقدان جزء من السلسلة الزمنية الخطية للحظات من خلال الانتباه إلى الذات الزمنية للمرء كارثة. تقدِّم دولي Dooley (١٩٤١) أمثلة مختلفة لهذا الإدراك الذاتي الزمني الناشئ بوصفه جزءًا من «نضال» الشخص «ضد الخوف من الفناء» ومحاولة الحفاظ على سلامته «من التهديدات بالابتلاع والسحق وفقدان ... الهوية ...» قال أحد مرضاها: «نسيتُ نفسي في **كرنفال الجليد** في تلك

الليلة. انهمكتُ في النظر إليه لدرجة أنني نسيتُ الوقت ونسيتُ نفسي ومكاني. حين أدركت فجأة أنني لم أكن أفكر في نفسي فزعْتُ حتى الموت. انتابني شعورٌ غير واقعي. يجب ألا أنسى نفسي أبدًا ولو دقيقة واحدة. أشاهد الساعة وأظل مشغولًا، وإلا فلن أعرف من أنا» (ص ٢٣).

٢- في عالم مليء بالخطر، أن يكون المرء كائنًا يمكن رؤيته يعني أنه معرضٌ للخطر باستمرارٍ. وبالتالي، قد يكون الانشغال بالذات إدراكًا قلقًا لذاته باعتبارها قد تتعرض للخطر لأنها مرئية للآخرين. الدفاع الواضح ضد مثل هذا الخطر أن يكون المرء غير مرئي بطريقة ما.

المسألة فعليًّا معقدة دائمًا بالضرورة. يجعل متوسل كافكا هدف حياته جعل الناس ينظرون إليه، لأنه بذلك يخفف من حالة تموه الشخصية وتموه الواقع والموت الداخلي. إنه يحتاج إلى أشخاص آخرين يشعرون أنه شخصٌ حيٌّ حقيقي لأنه لم يقتنع قطٌّ من داخله بأنه حي. ومع ذلك، يتضمن هذا ثقةً بالصفة الحميدة لقلق الشخص الآخر منه، لا تكون حاضرة دائمًا. بمجرد أن يدرك شيئًا ما يصبح هذا الشيء غير واقعي، على الرغم من «أنني أشعر دائمًا أنه كان حقيقيًّا في يوم من الأيام وأنه الآن يتلاشى». لن يندهش المرء حين يجد أن مثل هذا الشخص لديه إلى حدٍّ ما عدم ثقة بإدراك الآخرين له. ماذا، على سبيل المثال، إذا كانوا، رغم كل شيء، «يدركونه بشكلٍ عابرٍ» كما يدركهم؟ هل يمكنه الاعتماد على وعيهم أكثر من الاعتماد على وعيه لإقناعه بأنه حي؟ في كثيرٍ من الأحيان، في الواقع، يتأرجح التوازن مباشرة بحيث

يشعر الفرد أن أكبر مخاطره أن يكون موضوعًا لإدراك شخص آخر. أعتقد أن أسطورة بيرسيوس ورأس ميدوسا،[١] «العين الشريرة»، وهذاءات أشعة الموت إلخ، تشير إلى هذا الرهبة.

في الواقع، من منظور بيولوجي، أن يكون الحيوان مرئيًّا يعني أنه معرضٌ لخطر هجوم أعدائه، ولا يوجد حيوانٌ بلا أعداء. وبالتالي، أن يكون المرء مرئيًّا يمثِّل خطرًا بيولوجيًّا أساسيًّا؛ وأن يكون غير مرئي يمثِّل دفاعًا بيولوجيًّا أساسيًّا. ونحن جميعًا نستخدم شكلًا من أشكال التمويه. وفيما يلي وصف مكتوب قدمته مريضة استخدمت شكلًا من أشكال التمويه السحري لمساعدتها في التغلب على قلقها وهي في الثانية عشرة.

> كنت في الثانية عشرة، وكان عليَّ أن أمشي إلى متجر أبي عبر منتزه كبيرٍ، وكان المشي طويلًا وكئيبًا. وأفترض أيضًا أنني كنت في حالة رعبٍ إلى حدٍّ ما. لم يعجبني ذلك، خاصة حين حلَّ الظلام. بدأتُ ألعب لعبة للمساعدة على تمضية الوقت. ويعرف المرء وهو طفل كيف يعد الحجارة أو يقف على تقاطعات الرصيف - حسنًا، مارست هذه الطريقة لتمضية الوقت. **أذهلني أنني إذا حدقت إلى البيئة لفترة طويلة بما يكفي لأختلط بها أختفي تمامًا كما لو كان المكان فارغًا وقد اختفيت. يبدو الأمر كما لو أنك تشعر أنك لا تعرف من أنت أو أين أنت.** لأندمج في المشهد إذا جاز التعبير. وبالتالي يخشاه المرء لأنه يبدأ التقدم من دون تشجيع.

---

(١) أسطورة بيرسيوس ورأس ميدوسا myth of Perseus and the Medusa's head: نظرًا لأن نظرة ميدوسا حولت كل من نظر إليها إلى حجر، فقد أرشد بيرسيوس نفسه بتأملها في درع أعطته إياه أثينا وقطع رأس ميدوسا في أثناء نومها (المترجم).

كنت أواصل السير وشعرت أنني أمتزج بالمناظر الطبيعية. ثم فزعْتُ وأخذت أكرر اسمي لأعود إلى الحياة، إذا جاز التعبير.

قد يكون هذا هو التناظر البيولوجي لمخاوف كثيرة بشأن أن يكون المرء ظاهرًا، وأن يكون خارجًا عن المألوف، وأن يكون مميزًا، لافتًا الانتباه إلى ذاته، حيث غالبًا ما تتكون الدفاعات المستخدمة ضد هذه الأخطار في محاولات للاندماج مع المشهد الإنساني، وتجعل من الصعب قدر الإمكان على أي شخص أن يرى الطريقة التي يختلف بها عن أي شخص آخر. اقترح أوبرندورف (١٩٥٠)، على سبيل المثال، أن تموه الشخصية دفاع يشبه «لعب التمارض». وننظر في هذه الدفاعات بشيء من التفصيل في حالة بيتر (الفصل ٨).

أن يكون المرء مثل أي شخص آخر، أن يكون شخصًا آخر غير ذاته، وأن يلعب دورًا، وأن يتخفى، وأن يكون مجهولاً، وأن يكون لا أحد (سيكولوجيًّا، ويتظاهر بعدم وجود جسد)، دفاعات تمارس بدقة كبيرة في بعض حالات شبه الفصام والفصام.

فزعت المريضة المذكورة حين امتزجت بالمنظر الطبيعي. ثم، بتعبيرها: «وأخذت أكرر اسمي لأعود إلى الحياة، إذا جاز التعبير». وهذا يثير قضية مهمة. أعتقد أنه تخمينٌ صحيحٌ أن نفترض أن الشكل الذي اتخذه الدفاع ضد القلق عند هذه الفتاة الصغيرة لا يمكن أن ينشأ إلا من أساس أنطولوجي مهتز. إن الإحساس الراسخ بالهوية لا يُفقد بسهولة، ولا بالسرعة التي خسرت به هذه الفتاة بنت الثانية عشرة هويتها في لعبتها. وبالتالي، من المحتمل أن يكون انعدام الأمان الأنطولوجي هذا

سببًا جزئيًّا على الأقل لقلقها في المقام الأول، وأنها استخدمت بعد ذلك مصدر ضعفها وسيلةً للهروب. وقد شوهد هذا المبدأ وهو يعمل بالفعل في حالات جيمس وديفيد ومسز D وآخرين. بالامتزاج بالمناظر الطبيعية، فقدت هويتها المستقلة، في الواقع فقدت ذاتها وتعرضت ذاتها للخطر لأنها وحيدة والليل يهبط في امتدادٍ خاوٍ.

التعبير الأكثر عمومية عن هذا المبدأ أنه حين يكون الخطر فقدان الوجود، يكون الدفاع انزلاقًا في حالة من اللا وجود، وعلى الرغم من كل التحفظ الداخلي بأن هذا الانزلاق إلى اللا وجود مجرد لعبة، مجرد تظاهر.

كما كتب تيليش (١٩٥٢، ص ٦٢): «العصاب وسيلة لتجنب اللا وجود بتجنب الوجود». تكمن المشكلة في أن الفرد قد يجد أن الادعاء كان في التظاهر وأنه، بطريقة أكثر واقعية مما كان يساوم عليه، انزلق بالفعل إلى حالة اللا وجود، الحالة التي كان يخشاها بشدة، حيث تجرَّد من إحساسه بالاستقلالية والواقع والحياة والهوية، وقد لا يجد من خلالها إمكانية استعادة موطئ قدمه «في» الحياة مرة أخرى بالتكرار البسيط لاسمه. في الواقع، خرجت لعبة هذه الفتاة الصغيرة عن السيطرة بهذه الطريقة. حين كتبت المريضة قصتها عن حياتها، التي أخذ الاقتباس السابق منها، ظلَّت مموَّهة الشخصية بشدة لعدة السنوات.

كل شيء في هذه المنطقة متناقضٌ. ذكرنا في الفصل الخامس أن النفس تخشى الحياة الحقيقية كما تتوق إليها. تخشى الذات أن تصبح حية وحقيقية لأنها تخاف أن يؤدي ذلك إلى زيادة خطر الفناء على

الفور. «الانشغال بالذات» متورطٌ في هذا التناقض.

امتزجت فتاتنا الصغيرة بالمنظر الطبيعي. الآن، الشخص الذي يختلط بسهولة مع أشخاص آخرين (وقد وصفنا الطرق التي يحدث بها هذا في الفصل السابق)، ويخشى أن يفقد هويته بذلك، يستخدم إدراكه لذاته وسيلة للبقاء منفصلًا ومنعزلًا. يتم الاعتماد على الانشغال بالذات للمساعدة في الحفاظ على الأمان الأنطولوجي المزعزع للفرد. وهذا الإصرار على الإدراك، وخاصة إدراك الذات، يتشعب في اتجاهاتٍ كثيرة. على سبيل المثال، بينما يبدو الهستيري سعيدًا للغاية بحيث لا يستطيع نسيان جوانب من وجوده و"كبتها»، يسعى الفرد شبه الفصامي بشكلٍ مميزٍ إلى جعل إدراكه بنفسه مكثفًا وعلى نطاقٍ واسع قدر الإمكان.

ومع ذلك فقد لوحظ كيف أن التدقيق الذاتي الذي يعرض شبه الفصامي ذاته له مشحونٌ بالعداء. لا ينعم الشخص شبه الفصامي (وهذا ينطبق أكثر على مريض الفصام) بدفء احترام الذات بحبٍّ. ويعتبر التدقيق الذاتي بشكلٍ غير مناسب تمامًا شكلًا من أشكال النرجسية. لا شبه الفصامي ولا الفصامي نرجسي بهذا المعنى. بتعبير مريضة فصام (انظر ص ٢٩٢)، حُرِقت تحت وهج شمس سوداء. ويوجد الشخص شبه الفصامي تحت الشمس السوداء لتدقيقه، العين الشريرة. ويقتل وهج إدراكه عفويته ونضارته؛ ويدمر كل بهجة. كل شيء يذبل تحته. ومع ذلك يظل، مع أنه ليس نرجسيًّا بعمقٍ، منشغلًا بشكلٍ قهري

بالمراقبة المستمرة لعملياته العقلية و/ أو الجسدية. بلغة فيدرن[١]، يقسطر أناه بمورتيدو بوصفها موضوعًا.[٢]

طرحنا نقطة مشابهة جدًّا بعباراتٍ مختلفة حين قلنا من قبل إن الشخص شبه الفصامي يجرد علاقته مع ذاته من طابعها الشخصي. أي أنه يحوِّل العفوية الحية لوجوده إلى شيء ميت بلا حياة بفحصه. ويفعل هذا للآخرين أيضًا، ويخشى أن يفعلوه له (التحجر).

نحن الآن في وضعٍ يسمح لنا باقتراح أنه في حين أنه يخشى **ألا** يكون ميتًا وبلا حياة - كما ذكرنا، فإنه يخشى الحياة الحقيقية - لذلك فهو أيضًا يخشى **ألا** يستمر في إدراك ذاته. لا يزال إدراك ذاته ضمانًا وتأكيدًا لوجوده المستمر، مع أنه قد يضطر إلى العيش ميتًا في الحياة. إدراك موضوع ما يقلص خطره المحتمل. الوعي إذن رادار من نوعٍ ما، آلية فحص. يمكن بها الشعور بأن الموضوع تحت السيطرة. للوعي، مثل شعاع الموت، خاصيتان رئيسيتان: قدرته على التحجر (التحول إلى حجر: تحويل الذات أو الآخر إلى أشياء)، وقدرته على الاختراق. وبالتالي، إذا شعر بنظرة الآخرين إليه من هذا المنظور، فهناك خوفٌ دائم واستياء من التحول إلى شيء ما لشخصٍ آخر، ومن اختراقه له، وإحساس بوجوده تحت سلطة شخص آخر وسيطرته. تتمثل الحرية إذن في عدم إمكانية الوصول إليه.

---

(١) بول فيدرن Federn (١٨٧١-١٩٥٠): عالم نفس نمساوي أمريكي من مواليد فيينا، أحد تلاميذ فرويد (المترجم).

(٢) مورتيدو mortido: مصطلحٌ يشير به فيدرن لطاقة الانسحاب والتفكك ومقاومة الحياة والنمو؛ طاقة غريزة الموت (المترجم).

قد يحاول الفرد درء هذه الأخطار بتحويل الآخر إلى حجرٍ. ولسوء الحظ، نظرًا لأنه لا يمكن لحجر أن يرى المرء، يصبح المرء، بقدر اختزال الآخرين بنجاح إلى أشياء في عينيه، الشخص الوحيد الذي يمكن أن يرى نفسه. تتأرجح العملية الآن في الاتجاه المعاكس، وتبلغ ذروتها في الشوق إلى التخلص من الإدراك الذاتي المميت الذي لا يطاق بحيث يكون احتمال أن يكون شيئًا سلبيًّا يخترقه الآخر ويتحكم فيه ارتياحًا مطلوبًا. ضمن هذا التذبذب لا يوجد موقف سلام، لأن الفرد ليس أمامه اختيار بين بدائل مناسبة.

يوحي الانشغال القهري بأن نُرى، أو نكون مرئيين ببساطة، بأننا يجب أن نتعامل مع الفانتازيا الكامنة بأننا لا نُرى، أي بأننا غير مرئيين. إذا كان كون المرء مرئيًّا، كما رأينا، يمكن أن يكون في حد ذاته اضطهادًا وأيضًا تأكيدًا بأن المرء لا يزال حيًّا، يكون لكون المرء غير مرئي معانٍ غامضة بالقدر نفسه.

يقع الشخص «الواعي بذاته» في مأزقٍ. قد **يحتاج** إلى أن يُرَى ويُعرَف، ليحافظ على إحساسه بالواقعية والهوية. لكن الآخر يمثِّل، في الوقت نفسه، تهديدًا لهويته وواقعه. وهناك جهودٌ دقيقة للغاية تُبذَل لحل هذه المعضلة من منظور الذات الداخلية السرية والأنظمة السلوكية للذات الزائفة التي وصفناها بالفعل. يشعر جيمس، على سبيل المثال، بأن «الآخرين يمدونني بوجودي». وبمفرده يشعر أنه فارغٌ وأنه نكرة. «لا يمكن أن أشعر بالواقعية ما لم يكن هناك شخصٌ ما». ومع ذلك، لا يمكن أن يشعر بارتياحٍ مع شخصٍ آخر، لأنه يشعر بأنه «في خطرٍ» مع

الآخرين بقدر ما يشعر بأنه في خطرٍ وهو بمفرده.

وبالتالي، يُدفَع بشكلٍ قهري للبحث عن صحبة، لكنه لا يسمح لنفسه أبدًا بأن يكون «على طبيعته» في وجود أي شخصٍ آخر. يتجنَّب القلق الاجتماعي **بألا يتواجد** أبدًا مع الآخرين. لا يقول أبدًا ما يعنيه ولا يعني ما يقوله. الدور الذي يلعبه دائمًا ليس هو دوره تمامًا. يهتم بالضحك وهو يعتقد أن المزحة ليست مضحكة، ويبدو ضجرًا وهو مستمتعٌ. ويقيم صداقات مع أشخاص لا يحبهم حقًّا، وهو لطيفٌ إلى حدٍّ ما مع من يود «حقًّا» أن يكونوا أصدقاءه، وبالتالي لا أحد يعرفه حقًّا أو يفهمه. لا يمكن أن يكون هو ذاته في أمانٍ إلا في عزلة، وإن كان يشعر فيها بالخواء وعدم الواقعية. يلعب مع الآخرين بإتقانٍ لعبة التظاهر والمراوغة. يشعر أن ذاته الاجتماعية زائفة وعقيمة. أكثر ما يتوق إليه إمكانية «لحظة تعرف»، ولكن حين تأتي صدفة، حين «يتخلى عن نفسه» صدفة، يجتاحه الارتباك ويغمره الهلع.

وكلما احتفظ «بذاته الحقيقية» مختبئة ومخفية وغير مرئية، وكلما قدَّم إلى الآخرين واجهة زائفة، أصبح هذا العرض الزائف لذاته قهريًّا أكثر. يبدو نرجسيًّا واستعراضيًّا للغاية. إنه في الحقيقة يكره نفسه ويخشى الكشف عن نفسه للآخرين. وبدلًا من ذلك، يظهر للآخرين بشكلٍ قهري ما يعتبره مجرد زخارف دخيلة؛ ويتباهى بالملابس، ويتحدث بصوتٍ عالٍ وإصرار. يلفت الانتباه إلى نفسه باستمرارٍ، وفي الوقت نفسه يصرف الانتباه بعيدًا عن ذاته. سلوكه قهري. كل أفكاره مشغولة بأن يُرَى. وكل شوقه أن يُعرف، لكنه أيضًا أكثر ما يرعبه.

هنا أصبحت «الذات» كيانًا متساميًا غير مرئي، لا يعرفها إلا نفسها. لم يعد الجسد بالفعل تعبيرًا عن الذات. لا تتحقق الذات في الجسد ومن خلاله. إنه متميزٌ ومنفصلٌ. كان المعنى الضمني لأفعال مسز R (ص ٧٧) «لسْتُ إلا ما يعتبره الآخرون». لعب جيمس على الاحتمال المعاكس، «لسْتُ ما يمكن لأي شخص أن يراه». وبالتالي كان استعراضه الظاهري وسيلة لتجنُّب اكتشاف الناس لما يشعر به حقًّا أو ما هو عليه.

لا يستطيع الشخص الراشد استخدام أن يكون مرئيًّا أو غير مرئي آليةً دفاعية مستقرة ضد الآخر، لأن كل وضع يحمل مخاطر خاصة به بالإضافة إلى توفير شكل خاص من أشكال الأمان. يمكن قياس مدى تعقيد القضايا المطروحة بالنظر في مدى تعقيد المواقف الأولى والأكثر بساطة في الطفولة المبكرة.

من الشائع أن يلعب الأطفال لعبة التخفي والظهور، لهذه اللعبة أشكالٌ عديدة، يمكن أن يلعبها الطفل بمفرده أمام المرآة، أو بتواطؤ الراشدين.

في حاشية لوصفه الشهير (١٩٢٠) لصبي صغير يلعب بالبكرة والخيط، قدَّم فرويد وصفًا لنسخة من هذه اللعبة. يجدر بنا أن نذكر الفقرة كاملة مع أنني أرغب في توجيه اهتمام خاص للهامش.

> لم يكن الطفل مبكر النضج على الإطلاق في نموه الفكري. وهو ابن عام ونصف لم يكن يستطيع أن ينطق إلا بضع كلمات مفهومة؛ كان يستطيع أيضًا استخدام عدة أصواتٍ تعبِّر عن معنى

مفهوم لمن حوله. ومع ذلك، كان على علاقة جيدة بوالديه وخادمتهم، وقد امتُدِح لأنه «ولدٌ طيبٌ». لم يزعج والديه في الليل، وأطاع بدقة الأوامر بعدم لمس أشياء معينة أو دخول غرف معينة، والأهم أنه لم يبكِ قطٌّ حين تتركه أمه لبضع ساعات. في الوقت نفسه، كان ارتباطه قويًا بأمه، ولم تكن تطعمه بنفسها فقط، بل تعتني به أيضًا من دون أي مساعدة خارجية. ومع ذلك، كان لهذا الطفل الصغير الطيب عادة مزعجة من حينٍ لآخر تتمثَّل في أخذ أي شيء صغير يمكنه الإمساك به ورميه بعيدًا في ركن، وتحت السرير، إلخ، وبالتالي كان البحث عن ألعابه والتقاطها غالبًا مهمة كبرى. وفي أثناء ذلك، كان يطلق بصوت عالٍ وممتد «o-o-o-o»، مصحوبًا بتعبيرٍ عن الاهتمام والرضا. اتفقت أمه وكاتب الحكاية الحالية على الاعتقاد بأن هذا لم يكن مجرد صيغة تعجُّب ولكنه يمثِّل الكلمة الألمانية fort (اختفى gone). أدركْتُ في النهاية أنها لعبة، وأن الاستخدام الوحيد الذي استخدمه لأي من ألعابه هو اللعب «بالاختفاء» معها. ذات يوم لاحظْتُ ملاحظة أكدت وجهة نظري. كان لدى الطفل بكرة خشبية بها خيطٌ مربوطٌ حولها. لم يخطر بباله مطلقًا أن يسحبها على الأرض خلفه، على سبيل المثال، ويلعب بها على أنها عربة. ما كان يفعله هو إمساك البكرة من الخيط ورميها بمهارة شديدة على حافة سريره المغطى بستارة، بحيث تختفي فيها، وفي نفس الوقت ينطق «o-o-o-o»، ثم يسحب البكرة من السرير مرة أخرى بالخيط ويهلل بعودة ظهورها بنطق «da» (هناك) ببهجة. كانت هذه إذن اللعبة كاملة: الاختفاء والعودة. كقاعدة عامة، لم يشهد المرء سوى الفعل الأول الذي تكرر بلا كلل كلعبة في حد ذاته مع أنه لا يوجد شكٌّ في أن المتعة الأكبر كانت مرتبطة بالفعل الثاني.

يضيف فرويد هذا الهامش المهم إلى حكايته لهذه اللعبة:

> أكدت ملاحظة أخرى لاحقًا هذا التفسير تمامًا. ذات يومٍ، غابت أم الطفل عدة ساعات وعند عودتها قوبلت بالكلمات، «Baby o-o-o-o!» وكانت في البداية غير مفهومة. ومع ذلك، سرعان ما اتضح أنه خلال هذه الفترة الطويلة من العزلة **وجد الطفل طريقة لجعل نفسه يختفي** [التأكيد لي]. اكتشف انعكاس صورته في مرآة كبيرة لا تصل تمامًا إلى الأرض بحيث يمكن بالانحناء لأسفل أن يجعل صورته في المرآة «تختفي».

وهكذا، فإن هذا الطفل الصغير لا يلعب فقط بإخفاء أمه، بل يلعب أيضًا بإخفاء نفسه. يقترح فرويد أنه يجب فهم اللعبتين على أنهما محاولتان للسيطرة على القلق من حالة الخطر بتكراره مرات ومرات في اللعبة.

إذا كان الأمر كذلك، فإن الخوف من ألا يكون مرئيًّا ومن الاختفاء يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالخوف من اختفاء أمه. يبدو أن فقدان الأم، في مرحلة معينة، يهدد المرء بفقدان ذاته. ومع ذلك، فإن الأم ليست مجرد **شيء** يمكن للطفل رؤيته، ولكنها **شخصٌ** يرى الطفل. لذلك، نقترح أن أحد المكونات الضرورية في تنمية الذات شعور الذات بأنها شخص تحت عين الأم المحبة. يعيش الرضيع العادي بشكلٍ شبه مستمر تحت أعين الراشدين. لكن أن يُرى الطفل ببساطة طريقة من طرق لا تُعد للاهتمام بالوجود الكامل للرضيع. تتم العناية به بالملاحظة والمداعبة والهز والعناق والإلقاء في الهواء والاستحمام: يتم التعامل مع جسده بدرجة لن تتكرر أبدًا. يمكن لبعض الأمهات التعرف على العمليات

«العقلية» للطفل والاستجابة لها، ولكن لا يمكنهن قبول واقعه الجسدي الملموس والعكس صحيح. قد يكون **لفشل استجابة** الأم لجانب ما من جوانب وجود الرضيع عواقب مهمة.

هناك نظرة أخرى لما كان هذا الصبي يحققه بلعبته يشير إلى أنه كان قادرًا، كما يفترض فرويد، على إخفاء نفسه بعدم قدرته على رؤية انعكاس صورته في المرآة. وهذا يعني أنه إذا لم يستطع رؤية نفسه **هناك**، فقد «يختفي» هو نفسه؛ وهكذا كان يستخدم الفرضية شبه الفصامية بمساعدة المرآة، حيث كان بمثابة شخصين، أحدهما **هناك** والآخر **هنا**. وهذا يعني أنه بالتغلُّب، أو محاولة التغلُّب، على فقدان، أو غياب، الآخر الحقيقي الذي عاش في عينيه وتحرك وكان له وجوده، يصبح شخصًا آخر بالنسبة إلى نفسه يمكن أن ينظر إليه من المرآة.

وعلى الرغم من أن «الشخص» الذي يمكن أن يراه في المرآة لم يكن هو ذاته ولا شخصًا آخر، بل مجرد انعكاس لشخصه، حين لم يعد يستطيع رؤية الصورة الأخرى المنعكسة لشخصه في المرآة اختفى هو نفسه، ربما بالطريقة التي شعر بها أنه اختفى حين لم يعد يشعر بأنه يخضع للتدقيق أو حين لم يكن في حضور أمه. الآن، سواء كان التهديد من الآخر الحقيقي ينشأ من احتمال حقيقة أن الآخر قد يختفي في أي وقتٍ أو يموت أو لا يبادل المرء مشاعره تجاهه، أو كان الآخر يمثِّل تهديدًا مباشرًا بشكلٍ أكبر في شكل انهيار أو اختراق، يسعى الشخص شبه الفصامي بطريقة الصبي إلى أن يكون مرآة نفسه، ليحوِّل ذاته، شبه الثنائية بوحدة شاملة، إلى ذاتين، أي إلى ثنائية فعلية. في هذا الولد

الصغير، من بين «الذاتين»، كانت ذاته الفعلية خارج المرآة هي التي يمكن للمرء أن يتخيل بسهولة أكبر أنها تماهٍ مع أمه. **هذا التماهي للذات مع فانتازيا الشخص الذي يرى المرءَ** قد يساهم بشكلٍ حاسمٍ في خصائص الذات المراقِبة. وكما ذكرنا سابقًا، غالبًا ما تقتل هذه الذات المراقبة وتذبل كلَّ ما يقع تحت تدقيقها. لدى الفرد الآن مراقب مضطهِد في جوهر كيانه. قد يذهل الطفل الوجود الغريب والمدمِّر للمراقب الذي أصبح في حالة سيئة في غيابه، ويحتل مكان الذات المراقِبة، ذات الطفل نفسه خارج المرآة. إذا حدث هذا، فإنه يحتفظ بإدراكه أنه موضوعٌ في عيني الآخر بمراقبة نفسه على أنها الآخر: أن يعير عينيه للآخر حتى يستمر مرئيًّا؛ ثم يصبح شيئًا في عينيه. لكن الجزء من نفسه الذي ينظر إليه ويراه، طور سمات اضطهادية يشعر أنها من سمات الشخص الحقيقي خارجه.

يمكن للعبة المرآة أن تتخذ أشكالًا غريبة. ظهرت بداية مرض أحد الرجال حين نظر في المرآة ورأى شخصًا آخر هناك (في الواقع، انعكاسه): «هو». كان «هو» مضطهِده في ذهان البارانويا. كان «هو» (أي «هو») محرضًا على مؤامرة لقتله (أي المريض) وكان هو (المريض) مصممًا على «إطلاق رصاصة عليه» (على ذاته الغريبة).

في لعبة هذا الطفل الصغير، كان في موقع الشخص الذي ينظر إليه، أي أمه، يقتل نفسه بمعنى ما بطريقة سحرية: كان يقتل صورته في المرآة. ونعود لاحقًا إلى هذه الحالة الغريبة عند دراسة الفصام. يجب أن يكون لإخفاء نفسه وعودتها مرة أخرى أهمية مماثلة لتلك الموجودة

في لعبته الأخرى، وهي جعل أمه (رمزيًّا) تختفي وتظهر من جديدٍ. بهذه الطريقة يكون للعبة معنى، لكن فقط إذا كنَّا نعتقد أن هناك موقفًا خطيرًا بالنسبة إليه ليس فقط في عدم قدرته على رؤية أمه ولكن أيضًا في عدم الشعور بأنها يمكن أن تراه. في هذه المرحلة، **الوجود** *esse* = **المحسوس** *percipi*، ليس فقط فيما يتعلَّق بالآخرين ولكن أيضًا فيما يتعلَّق بالنفس.

لعبت إحدى بناتي لعبة مماثلة وعمرها عامان وستة أشهر. اضطررتُ إلى تغطية عيني بيدي بالأمر، «لا ترنا». ثم، بناءً على الأمر، «أرني»، اضطررتُ فجأة إلى رفع يدي والتعبير عن دهشتي وسروري برؤيتها. كان عليَّ أيضًا أن أنظر إليها وأتظاهر بأنني لا أستطيع رؤيتها، وقد جبلت على لعب هذه اللعبة مع أطفال آخرين. ليس هناك من شكٍّ في عدم رؤيتهم يمارسون الشقاوة. يبدو أن النقطة الأساسية تكمن في أن الطفل يشعر مؤقتًا بأنه لا يُرى. لا تتعلق المسألة بأن الطفل لا يراني. يلاحظ المرء أيضًا أنه لا يحدث فصلٌ فيزيائي فعليٌّ في اللعبة. ليس على الكبار ولا الطفل، في هذه اللعبة، الاختباء أو الاختفاء فعليًّا، إنها نسخة سحرية من لعبة بيكابوو[١].

الطفل الذي يبكي حين تختفي أمه من الغرفة مهدَّدٌ باختفاء كيانه، لأن **الوجود** = **المحسوس** بالنسبة إليه أيضًا. فقط في حضور الأم يستطيع أن **يعيش ويتحرك** بشكلٍ كاملٍ **ويكون له كيانه**. لماذا يريد الأطفال النور في الليل، وكثيرًا ما يطلبون من والديهم الجلوس معهم حتى يناموا؟ قد

(١) بيكابوو peek-a-boo: لعبة تُلعب مع طفلٍ صغيرٍ، بالاختباء خلف شيء ما والظهور فجأة، قائلًا «بيكابوو».

يكون أحد جوانب هذه الاحتياجات أن الطفل يفزع إذا لم يعد يستطيع رؤية نفسه، أو يشعر أن من الممكن أن يراه شخصٌ آخر أو يسمع الآخرين ويسمعونه. يتكوَّن النوم، فينومينولوجيًّا، من فقد المرء إدراكه لكيانه وكيان العالم أيضًا. قد يكون هذا مخيفًا في حد ذاته، لذلك يحتاج الطفل إلى الشعور بأن شخصًا آخر يراه أو يسمعه، وهو يفقد إدراكه لكيانه في عملية النوم. في أثناء النوم ينطفئ الضوء «الداخلي» الذي ينير كيان المرء. إن ترك النور مضاء لا يوفر فقط تأكيدًا على أنه إذا استيقظ لن يشعر برعبٍ في الظلام، ولكنه يوفر تأكيدًا سحريًّا بأنه يكون في أثناء النوم في رعاية أشخاص لطاف (الآباء، الجنيات الطيبات، الملائكة). ربما أسوأ من احتمال وجود أشياء سيئة في الظلام الرعب من **عدم** وجود **شيء** أو **أحد** في الظلام. وبالتالي، فإن عدم وعي المرء بنفسه قد يُعادل عدم وجود كيان. يؤكد الفرد شبه الفصامي لنفسه أنه موجودٌ بإدراكه لنفسه دائمًا. إلا أنه يتعرض للاضطهاد بسبب بصيرته ووضوحه.

إن الحاجة إلى الإدراك ليست، بالطبع، مجرد مسألة بصرية، إنها تمتد لتشمل الحاجة العامة إلى أن يؤيد الآخر حضور المرء ويؤكده، والحاجة إلى الاعتراف الكامل بوجود المرء، في الواقع، الحاجة إلى أن يكون محبوبًا. وبالتالي، فإن الأشخاص الذين لا يستطيعون مواصلة الإحساس بهويتهم من داخل أنفسهم أو، مثل متوسل كافكا، ليس لديهم قناعة داخلية بأنهم أحياء، قد لا يشعرون أنهم أشخاصٌ حقيقيون أحياء إلا حين يشعر الآخرون أنهم كذلك، كما رأينا في حالة مسز R (ص ٧٧)، التي تعرضت للتهديد بتمويه الشخصية حين

لا يكون التعرف عليها ممكنًا أو لم يعد من الممكن أن تتخيل أنه قد تعرف عليها واستجاب لها شخصٌ يعرفها جيدًا بما يكفي لكي يكون اعترافه بها واستجابته لها أمرًا مهمًّا. استندت حاجتها إلى أن تُرى على معادلة «أنا الشخص الذي يعرفه الآخرون ويعترفون بأنه أنا». طلبت التأكيد الملموس لوجود شخص آخر يعرفها، ويمكن في وجوده تهدئة شكوكها مؤقتًا حول كينونتها.

* * *

٨

حالة بيتر

لست مولعًا بكلمة سيكولوجي. لا يوجد سيكولوجي. لنَقُلْ إنه يمكن للمرء تحسين سيرة الشخص.

جان بول سارتر

في الحالة التالية، يمكن للمرء أن يرى قضايا كثيرة نوقشت في الفصلين الأخيرين مجسَّدة.

كان بيتر رجلاً ضخمًا في الخامسة والعشـرين من عمره، ويبدو بصحة جيدة. جاءني يشكو من وجود رائحة كريهة دائمة تنبعث منه، كان يشمُّها بوضوحٍ، لكنه لم يكن متأكدًا تمامًا مما إذا كانت الرائحة يمكن أن يشمها الآخرون. كان يعتقد أنها تنبعث بشكلٍ خاص من الجزء السفلي من جسده ومنطقة الأعضاء التناسلية. في الهواء الطلق، كانت مثل رائحة الاحتراق، لكنها عادة رائحة شيء حامض، زنخ، قديم، عفن. شبَّهها برائحة الحبيبات الكريهة العفنة في غرفة انتظار السكك الحديدية، أو الرائحة التي تنبعث من «الدواليب» المحطمة في

مساكن الأحياء الفقيرة في المنطقة التي نشأ فيها. لم يستطع التخلص من هذه الرائحة مع أنه كان يستحم عدة مرات في اليوم.

وقد حصلْتُ على المعلومات التالية عن حياته من عمِّه:

لم يكن والداه سعيدين لكنهما كانا متلازمين. تزوجا قبل ولادته بعشر سنوات، كانا لا ينفصلان. الطفل، الطفل الوحيد، لم يحدث أي فرق في حياتهما. كان ينام في الغرفة نفسها مع والديه منذ ولادته حتى ترك المدرسة. لم يكن والداه قاسيين قطٌّ معه علانية، وبدا أنه كان معهما طول الوقت ومع ذلك فقد **عاملاه ببساطة كأنه لم يكن موجودًا**.

وتابع عمُّه قائلًا إن أمه لم تستطع قط أن تمنحه أي مودة لأنها هي نفسها لم تعرف المودة. كان يرضع رضاعة صناعية وكان وزنه يزيد بشكلٍ جيدٍ، لكنها لم تحضنه أو تلاعبه مطلقًا. وهو رضيع، كان يبكي دائمًا، لكن أمه لم ترفضه أو تهمله بشكلٍ واضحٍ. كان يتغذَّى ويلبس بشكلٍ مناسبٍ. ومرَّت بقية سنوات الطفولة والمراهقة من دون أي سماتٍ لافتة. ومع ذلك، قال عمُّه إن أمه نادرًا ما كانت تلتفت إليه عمومًا، كانت امرأة جميلة، وكانت دائمًا مولعة بالملابس ومعجبة بنفسها. وكان أبوه يحب رؤيتها بهذا الشكل، وكان يشتري لها ملابس حين يستطيع، وكان فخورًا جدًّا بالظهور مع زوجته الجذابة.

اعتقد العم أنه على الرغم من أن الأب كان مغرمًا جدًّا بالصبي بطريقته، فإن شيئًا ما منعه، على ما يبدو، من إظهار حبِّه له. كان يميل إلى الفظاظة، وتصيد العيوب، وأحيانًا يسحقه من دون سبب وجيه، ويقلل من شأنه بملاحظات مثل «يوستاس عديم الفائدة»، «أنت مجرد قطعة

كبيرة من العجين». اعتقد العم أن هذا كان مؤسفًا لأنه حين كان أداؤه جيدًا في المدرسة وبعد ذلك حين حصل على وظيفة في مكتب، وكانت خطوة اجتماعية كبيرة لهذه العائلة الفقيرة جدًّا، كان حقًّا «فخورًا جدًّا بهذا الصبي»، وكانت «ضربة مروعة له» حين بدا لاحقًا أن ابنه ليس لديه أي طموح.

كان طفلًا وحيدًا، وكان دائمًا جيدًا جدًّا. وهو في التاسعة، أصيبت فتاة صغيرة في مثل عمره كانت تسكن بجوارهم بالعمى في غارة جوية قُتِل فيها أبواها؛ لعدة سنوات قضى معظم وقته مع هذه الفتاة الصغيرة. كان لديه صبرٌ ولطفٌ لا ينضبان، علَّمها كيف تتجول في المنطقة، وأخذها إلى السينما، وجلس معها وتحدث معها. استعادت هذه الفتاة بصرها جزئيًّا في وقتٍ لاحقٍ، أخبرت عمَّه أنها تدين بحياتها لصبي صغير عمره تسعة أعوام، لأنه كان الشخص الوحيد الذي كان لديه حقًّا وقتٌ لها حين كانت عمياء، وعاجزة، وبلا أصدقاء، مع عدم وجود أي شخص كان يمكنه أن يحل محل والديها المتوفين.

في سنواته الأخيرة في المدرسة، أبدى عمُّه اهتمامًا خاصًّا به وبدفعه إلى الأمام، ومن خلال الترتيبات التي أعدها، التحق بمكتب محامٍ. ترك الصبي هذا المكتب بعد بضعة أشهر بسبب قلة الاهتمام، ولكنه حصل، مرة أخرى عن طريق عمه، على عملٍ في مكتب شحن. ظل مع هذه الشركة حتى استدعائه للجيش. في الجيش، بناءً على رغبته، تولى رعاية كلاب الحراسة، وحين ترك الجيش، بعد قضاء عامين من

دون حوادث، «كسر قلب أبيه» حرفيًّا، «ذهابه إلى الكلاب»، [1] حيث حصل على وظيفة مربي كلاب في ملعب لسباق الكلاب. لكنه ترك هذا العمل بعد عام، وبعد خمسة أشهر من القيام بوظائف غريبة مختلفة لا تتطلب مهارات، لم يفعل شيئًا لمدة سبعة أشهر قبل أن يذهب إلى الطبيب العام يشكو من الرائحة. في الواقع، لم تكن هناك أي رائحة تصدر منه، وبالتالي حوَّله الطبيب العام للحصول على مساعدة طبيب نفسي.

وصف المريض حياته على النحو التالي:

كان شعوره تجاه ولادته أنه لم يكن مرغوبًا فيه من أبيه وأمه، وبالفعل، لم يغفرا له قطُّ أنه وُلِد. شعر أن أمه استاءت من وجوده في العالم لأنه أفسد شكلها وأضرَّ بها وأذاها بولادته، وأكد أنها عبَّرت عن هذا كثيرًا في طفولته. وشعر أن أباه استاء لمجرد وجوده عمومًا، «لم يمنحني أي مكان في العالم». واعتقد أيضًا أن أباه ربما كان يكرهه لأن الضرر والألم اللذين سبَّبهما لأمه منذ ولادته جعلها تمتنع عن ممارسة الجنس. شعر أنه دخل الحياة مثل لصٍّ ومجرم.

يتذكر المرء تصريح عمه بأن والديه ظلَّا منغمسين إلى حدٍّ كبيرٍ في نفسيهما، وأنهما عاملاه كأنه لم يكن موجودًا. تظهر علاقة التجاهل بالانشغال بالذات بشكلٍ جيدٍ في النسخة التالية من التسجيل على شريط لمحادثة خلال مقابلتنا الثانية:

---

(١) في الأصل going to the dogs، ويعني ساءت حالته، لكني وجدت أن من الأفضل ترجمته حرفيًّا طبقًا للسياق (المترجم).

بيتر: بقدر ما أتذكر كنت أدرك نفسي بشكلٍ ما، نوع من الانشغال بالذات - واضح بطريقة ما، كما تعلم.

أنا: واضح؟

بيتر: حسنًا، نعم، هذا واضح. مجرد التواجد هناك كان مجرد إدراك لنفسي.

أنا: بأنك هناك؟

بيتر: أوه، مجرد وجودي عمومًا، على ما أعتقد. كان [أبوه] يقول إنني كنت قذى للعين منذ يوم مولدي.

أنا: قذى للعين؟

بيتر: نعم، يوستاس عديم الفائدة كان اسمًا آخر بالنسبة إلي، وكتلة كبيرة من العجين.

أنا: شعرت بالذنب لمجرد وجودك.

بيتر: حسنًا، نعم، لا أعرف حقًّا... **كان لمجرد الوجود في العالم في المقام الأول**، على ما أعتقد.

قال إنه لم يشعر بالوحدة وهو طفلٌ مع أنه كان يقضي وقتًا طويلًا بمفرده، لكن «الشعور بالوحدة ليس مرادفًا لوجود المرء وحيدًا».

كان لديه ما كان على الأرجح ذكرى «مشوشة» وعمره أربع سنوات أو خمس تقريبًا عن أمه وهي تقول له، وقد ضبطته يلعب بقضيبه، إنه لن ينمو إذا فعل ذلك: وحين كان في السابعة أو الثامنة هناك كانت هناك بضعة أحداث ذات طبيعة جنسية مع فتاة في سنِّه، لكنه لم يبدأ ممارسة العادة السرية قبل الرابعة عشرة تقريبًا. كان لهذا كله أهمية كبيرة

بالنسبة إليه وعمل على تكثيف انشغال بالذات. كانت الذكريات الأولى الوحيدة التي طلب مني أن أبدأ بها هي تلك الأحداث الجنسية. حكاها من دون أي دفء. ومرَّت عدة أشهر قبل أن يذكر، بطريقة عرضية، الفتاة الصغيرة العمياء، جان.

في المدرسة الثانوية، تبلورت مشاعره تجاه نفسه بشكلٍ محددٍ. وبقدر ما يمكن إعادة تشكيلها الآن، بدأ لديه شعورٌ متزايدٌ بأن الجميع وضعوه في وضع خاطئ. وشعر بالالتزام تجاه معلمه ووالديه بأن يكون شخصًا مهمًّا وأن يحقق النجاح، بينما كان يشعر طول الوقت أن هذا مستحيلٌ من ناحية، ومن ناحية أخرى غير منصفٍ. شعر أنه كان عليه أن يقضي كل وقته وطاقته في أن يكون موضع فخر لأبيه أو أمه أو عمه أو معلمته. ومع ذلك، كان مقتنعًا في أعماقه أنه نكرة وبلا قيمة، وأن كل هذا الجهد ليكون شخصًا مهمًّا خداعٌ وتظاهرٌ. أرادت معلمته، على سبيل المثال، أن «يتحدث بشكلٍ صحيحٍ»، وأن يرتدي «ملابس الطبقة الوسطى»، لكن كل هذا كان محاولة لجعله على غير طبيعته. جعلته، المستمني السري، يقرأ دروس الكتاب المقدس للأطفال الآخرين في المدرسة، واعتبرته نموذجًا يُحتذى به. حين تحدث الناس عن مدى طيبته لتمكنه من قراءة الكتاب المقدس جيدًا، سخر من نفسه. «لم يظهر هذا إلا مدى براعتي في التمثيل». لكنه، هو نفسه، إلى جانب الشعور بأنه ليس الشخص الذي يمثله، لم يكن يعرف ما يريد أن يحققه. إلى جانب الشعور بأنه بلا قيمة، كان هناك أيضًا انطباعٌ متزايدٌ بأنه شخصٌ مميزٌ للغاية، أرسله الله في مهمة خاصة، ولكن لمن أو ما طبيعتها... لم

يكن يعرف. في أثناء ذلك، استاء بشدة مما شعر أنه جهود الجميع لجعله قديسًا كان «إلى حد ما لمجرد أن أكون موضع فخر لهم». وبالتالي من دون بهجة عمل في وظيفته المكتبية. وازداد كراهية للآخرين، وللنساء بشكلٍ خاص. كان يدرك كراهية الآخرين، لكن لم يخطر بباله أنه يخشاهم. لماذا يجب أن يخشاهم، حين «لم يتمكنوا من منعني من التفكير فيما أريد»؟ هذا، بالطبع، يعني ضمنيًّا أنهم «يتمتعون» ببعض القوة لإجباره على فعل ما يريدون، ولكن طالما كان متوافقًا ظاهريًّا مع رغباتهم، فقد تجنب الشعور بالقلق الذي يجب أن نفترض أنه قاده إلى التوافق مع الآخرين ونادرًا ما كشف عن نفسه لهم.

في المكتب الثاني تعرض لأول مرة لهجمات القلق. حينها، تبلورت القضية المركزية بالنسبة إليه فيما يتعلق بأن يكون مخلصًا أو منافقًا؛ أن يكون حقيقيًّا أو يمثِّل دورًا. بالنسبة إلى نفسه، كان يعلم أنه منافقٌ، كذابٌ، زائفٌ، متظاهرٌ، وكان الأمر يتعلق عمومًا بالمدة التي يمكنه فيها خداع الناس قبل أن يُكتشَف. في المدرسة، كان يعتقد أنه كان قادرًا، إلى حدٍّ كبيرٍ، على الإفلات من العقاب. لكن كلما فكَّر فيما يعتبره مشاعره الحقيقية وفعل أشياء ودارت في ذهنه أفكارٌ يجب أن تبقى مخفية وسرية عن كل الآخرين، بدأ في تفحص وجوه الناس أكثر لمحاولة التعرف على ما يستطيع قراءته فيها، ما تخيل أنهم ظنوه فيه أو عرفوه عنه. في المكتب، كان ما اعتبره «مشاعره الحقيقية» فانتازيا جنسية سادية إلى حدٍّ كبير عن زميلاته، وخاصة امرأة كان يعتقد أنها تبدو محترمة بدرجة كافية ولكنها، كما تخيل، ربما كانت منافقة مثله.

اعتاد أن يمارس العادة السـرية في مرحاض المكتب في أثناء استحضار هذه الفانتازيا وذات مرة، كما حدث مع أمه من قبل، بعد أن فعل ذلك مباشرة، ظهر ووجد المرأة نفسها التي كان يغتصبها في ذهنه. كانت تنظر إليه مباشرة حتى بدت كأنها تخترق مباشرة شخصيته السـرية وترى ما كان يفعله بها. غمره الذعر. لم يعد بإمكانه الآن أن يؤمن بأي تأكيد بأنه يستطيع إخفاء أفعاله وأفكاره عن الآخرين. وخاصة، كما قال، لم يعد يشعر بالثقة بأن وجهه «لن يتخلى عنه». وفي الوقت نفسه خاف من أن تفضحه رائحة المنِّي.

كان على هذه الحال حين دخل الجيش. ومع ذلك، أكمل خدمته من دون ظهور علامات خارجية على محنته الداخلية. في الواقع، يبدو أنه حقق مظهرًا خارجيًّا أو حياة طبيعية وقدرًا من التحرر من القلق. كان إحساسه بتحقيق ذلك ممتعًا ومهمًّا. كانت طبيعته الواضحة نتيجة للتكثيف المتعمد للانقسام بين ذاته «الداخلية» «الحقيقية» وذاته «الزائفة» الخارجية بطريقة محسوبة تمامًا. عبَّر عن ذلك حلمٌ رآه في ذلك الوقت: كان في سيارة تتحرك بسـرعة، قفز منها، وألحق الأذى بنفسه ولكن ليس بشكلٍ خطيرٍ، وتحطمت السيارة. وهكذا أنهى اللعبة المنطقية الكارثية التي كان يلعبها مع نفسه لبعض الوقت. وقرر أخيرًا الانسحاب تمامًا منها بقدر ما كان يعرف؛ نأى بنفسه عن نفسه وعن الآخرين. كان التأثير الفوري لذلك تخفيف قلقه والسماح له بالظهور بشكلٍ طبيعي، لكنه لم يكن كل ما فعله ولم تكن هذه هي النتيجة الوحيدة.

تعزز إحساسه باللا مبالاة، والافتقار إلى الاتجاه، وعدم الجدوى، وكذلك اقتناعه بأنه نكرة «حقًّا». شعر أن التظاهر لم يعُد مجديًا. وصاغ الأمر لنفسه بهذه الكلمات: «أنا نكرة، لذا لن أفعل شيئًا». ولم يعزم فقط على النأي بنفسه عن ذاته الزائفة لكن على تدمير كل ما بدا أنه هو. وكما قال: «انتابني شعورٌ ساخرٌ بأنني أصبحتُ أقل مما كنت أعتقد أنه أنا أو كانوا يعتقدون أنه أنا».

كان يشعر طول الوقت أنه، بكلماته (وهي أيضًا كلمات هايدجر)، «على هامش الوجود»، بقدمٍ واحدة فقط في الحياة وليس له حتى الحق في ذلك. شعر أنه لم يكن حيًّا حقًّا، وأنه على أي حالٍ لا قيمة له ولا يحق له التظاهر بأن له حياة. تخيل نفسه خارج كل شيء، لكنه اعتز لبعض الوقت بذرة من الأمل. ربما كان السر لا يزال لدى المرأة. لو كان لامرأة أن تحبه بطريقة ما، لشعر أنه قد يستطيع التغلُّب على إحساسه بانعدام القيمة. لكن هذا الطريق المحتمل مغلقٌ في وجهه لاقتناعه بأن أي امرأة تقيم علاقة معه لا يمكن إلا أن تكون فارغة مثله، وأن أي شيء قد يستطيع الحصول عليه من المرأة، سواء أخذه أو أعطته له، لا يمكن إلا أن يكون بلا قيمة مثل الأشياء التي يصنعها بنفسه. وبالتالي، فإن أي امرأة ليست تافهة بقدر تفاهته لا يمكن أن يكون لها أي علاقة به، على الأقل من الناحية الجنسية. كانت جميع علاقاته الجنسية الفعلية مع النساء فاسقة تمامًا ومن خلالها لم يستطع قطُّ اختراق «صمته». مع الفتاة الوحيدة التي اعتبرها «نقية»، حافظ على علاقة هشَّة وأفلاطونية لبضع سنوات، لكنه لم يستطع ترجمة علاقته بهذه الفتاة إلى أكثر من

هذا. ربما اتفق مع كيركجارد لو قرأه، وهو لم يقرأه، على أنه إذا كان لديه إيمانٌ لتزوج من ريجينا.[1]

على المرء أن يسأل لماذا استغرق وقتًا طويلًا ليخبرني بهذه الصداقة، وكانت بلا شكٍّ من أهم الأشياء في حياته، وربما ساعدت على منعه من الإصابة بالفصام بشكلٍ واضحٍ في سن المراهقة. كان من سمات بيتر، وهذا النوع من الأشخاص، الميل إلى إخفاء هذا النوع من الأشياء في حياته عن الآخرين، في حين أنه لم يكن لديه أي مانع من التحدث عن الأحداث الجنسية غير الشرعية الطفولية، والاستمناء، والفانتازيا الجنسية السادية في سن الرشد.

المناقشة:

بقدر ما استطعت أن أجمع، لم يكن بيتر قطُّ «على راحته» سواء في جسده أو في العالم. شعر بأنه أخرق، مرتبكٌ، ومكشوفٌ. يتذكر المرء رواية عمِّه عن أمه النرجسية، التي لم تحضنه أو تلعب معه. حتى وجوده المادي في العالم لم يعترف به. عومل كأنه غير موجود. من جانبه، لم يشعر بأنه مرتبكٌ ومكشوفٌ فقط، بل شعر بالذنب ببساطة «لوجوده في العالم من الأساس».

يبدو أن أمه كانت لا ترى إلا نفسها. كانت عمياء عنه. لم يُرَ. لم يكن مجرد صدفة أنه أصبح رفيقًا جيدًا، بل «أمًّا» للفتاة الصغيرة العمياء

(١) ريجينا Regina (١٨٢٢-١٩٠٤): امرأة دنماركية كانت خطيبة كيركجارد من سبتمبر ١٨٤٠ إلى أكتوبر ١٨٤١. وكان لعلاقتها به تأثيرٌ حاسمٌ على تطوره الفكري وفلسفته (المترجم).

التي لم تستطع رؤيته. كانت لهذه الصداقة جوانب كثيرة، لكن أحد جوانبها المهمة أنه شعر بالأمان معها، لأنه يستطيع رؤيتها وهي لا تستطيع رؤيته. بالإضافة إلى ذلك، كانت في حاجة ماسة إليه؛ أعطاها عينيه، وهو، بالطبع، يمكنه أن يتحمَّل الأسف من أجلها بطريقة لا يستطيع أن يتحمَّل بها الأسف من أجل أمه. كانت هذه الفتاة وكلاب الحراسة وكلاب ساحة السباق الكائنات الحية الوحيدة التي يمكن أن ينكشف لها، ويمكن أن يتلقَّى منها المودة بشكلٍ تلقائي.

مع الجميع تقريبًا بدأ العمل بنظام الذات الزائفة، بناءً على الامتثال لرغباتهم وطموحاتهم بالنسبة إليه. وهو يواصل ذلك، زادت كراهيته لنفسه وللآخرين. وشعوره بما ينتمي حقًّا إلى ذاته «الحقيقية» يتقلص أكثر وأكثر، بدأ شعور هذه الذات بالضعف يزداد، وازداد خوفه من أن يتمكَّن الآخرون من اختراق شخصيته المزيفة في العرين الداخلي لفانتازياه وأفكاره السرية.

كان قادرًا على أن ينفذ بطريقة طبيعية ظاهريًّا الاستخدام المتعمد لتقنيتين أطلق عليهما «الانفصال» و»فك الاقتران». بالانفصال، كان يعني توسيع المسافة الوجودية بين ذاته والعالم، وبفك الاقتران كان يعني قطع أي علاقة بين ذاته «الحقيقية» وذاته الزائفة المنبوذة. كانت هذه التقنيات في الأساس لتجنب الاكتشاف، وكان لها أشكالٌ كثيرة. على سبيل المثال، حين يكون في البيت أو بين أشخاص يعرفهم، يرتبك ويتوتر، حتى يتمكَّن من الانهماك في دورٍ أو جزءٍ لا يكون فيه على طبيعته، ويشعر أنه تمويه مناسب. ثم يقول إنه استطاع أن «يفك اقتران»

ذاته بأفعاله، ويتصـرف بشكلٍ مريحٍ، من دون قلقٍ. ومع ذلك، لم يكن هذا حلًّا مُرْضيًا للمشاكل التي واجهها لأسبابٍ مختلفة. إذا عجز دائمًا عن وضع ذاته في أفعاله لفترة طويلة، كان يشعر أن زيف حياته يزداد كثافة، وتنعدم رغبته في فعل أي شيء، وينتابه إحساسٌ مستمرٌّ بالملل. بالإضافة إلى ذلك، لم يكن الدفاع مضمونًا لأنه من وقت لآخر كان يفاجأ ويشعر بنظرة أو ملاحظة تخترق جوهر «ذاته». وصار إحساسه بأنه «في خطر» من نظرة الآخرين أكثر ثباتًا، وبأن تهدئته أصعب بحيلة عدم السماح لهم برؤية «ذاته». كان يشعر أحيانًا، ويواجه صعوبة في تبديد الانطباع، بأنهم يستطيعون رؤية ادعاءاته.

كان انشغاله بأن يُرى، في اعتقادي، محاولة لاستعادة نفسه من إحساسه الأساسي بأنه نكرة (لم يكن له جسدٌ).[١] كان هناك نقصٌ أساسي في حقيقة إحساسه بأنه مجسد ومنه نشأ انشغاله بأن جسده للآخرين، أي أن جسده يمكن أن يراه الآخرون ويسمعونه ويشمونه ويلمسونه. مهما كان هذا الانشغال «بالذات» مؤلمًا بالنسبة إليه، فقد نشأ حتمًا من حقيقة أن خبرات جسده كانت غير مقترنة بذاته لدرجة أنه احتاج إلى أن يدرك أنه كائنٌ حقيقي بالنسبة إلى الآخرين ليطمئن نفسه، بهذه الطريقة الملتوية، بأن له وجودًا ملموسًا.

بالإضافة إلى ذلك، صار هذاؤه بشأن الرائحة التي تنبعث منه أكثر رسوخًا.

---

(١) يلعب المؤلف على كلمة nobody، وتعني أنه لا أحد، أو أنه نكرة؛ ولم يكن له جسد had no body (المترجم).

ومع ذلك، وجد طريقة أخرى للتكيُّف مع مخاوفه الخاصة، التي كانت لها المزايا العكسية والعيوب العكسية بالضبط. شعر أنه يمكن أن يكون على طبيعته مع الآخرين إذا لم يعرفوا شيئًا عنه. ومع ذلك، كان هذا طلبًا يتطلَّب تنفيذًا بارعًا. كان ذلك يعني أن عليه أن يذهب إلى جزء آخر من البلاد يكون فيه «غريبًا». كان ينتقل من مكانٍ إلى آخر، ولا يبقى طويلًا بما يكفي ليُعرَف، وفي كل مرة تحت اسم مختلف. في ظل هذه الظروف، يمكن أن يكون سعيدًا (تقريبًا) - لبعض الوقت. يكون «حرًّا»، ويمكن أن يكون «عفويًّا». ويستطيع حتى إقامة علاقات جنسية مع فتيات. لم يكن «ينشغل بذاته» ولا يحمل «أفكار إحالة».[1] لم تعد تنشأ لأن عدم الاقتران الداخلي لذاته بجسده لم يعد ضروريًّا. يمكن أن يكون شخصًا متجسدًا إذا تنكر حقًّا. ومع ذلك، إذا عُرِف، فإنه يضطر إلى العودة إلى الوضع غير المجسد.

إن الفانتازيا التي نفَّذها بأن يكون مجهولًا أو متخفيًا أو غريبًا في أرض غريبة، أمرٌ شائعٌ بين الأشخاص الذين لديهم أفكار إحالة. إنهم يشعرون أنهم إذا تمكَّنوا من الابتعاد عن زملائهم في العمل، أو غادروا بلدتهم، وبدؤوا من جديدٍ، فسيكون كل شيء على ما يرام. وكثيرًا ما ينتقلون من وظيفة إلى أخرى، أو من مكانٍ إلى آخر. وهذه الآلية الدفاعية تعمل لفترة قصيرة، ولا يمكن أن تستمر إلا إذا كانوا مجهولين؛ من الصعب جدًّا ألَّا يتم «اكتشافهم»: وهم عرضة للشك والحذر مثل

(١) أفكار الإحالة ideas of reference: أو هذاء الإحالة، اعتقاد خاطئ بأن الأحداث أو التفاصيل غير ذات الصلة في العالم تتعلق مباشرة بالمرء (المترجم).

أي جاسوسٍ في أرض العدو يحاول الآخرون «القبض عليه» لكي «يكشف عن نفسه»[1].

تردَّد بيتر، على سبيل المثال، حتى في بلدة غريبة في الذهاب إلى صالون حلاقة، لم يكن قلقه من الحلاق في الأساس تعبيرًا عن قلق الإخصاء، بأي حال وبأي معنى مألوف للمصطلح. كان، بالأحرى، لا يرتاح للاضطرار إلى الإجابة عن أي أسئلة عن نفسه قد يسألها الحلاق، مهما كانت «بريئة»، على سبيل المثال، «هل تحب كرة القدم؟»، «ما رأيك في ذلك الشاب الذي فاز بخمسة وسبعين ألفَ جنيه؟» إلخ. كان يتجمد في كرسي الحلاق: بالنسبة إليه كان الموقف كابوسًا حيث بينما يقص شعره يقص إخفاءه لهويته بالاضطرار إلى توريط نفسه، بأن يتجمد لحظة في شخص محدد. «بينما يقول الناس عادة إنهم يأتون من هذا المكان أو ذاك، أو يعملون في هذه الوظيفة أو تلك، أو يعرفون هذا الشخص وذاك الشخص، أحاول قدر الإمكان ألا أفصح عن المكان الذي أتيت منه، أو طبيعة عملي، أو من أعرفهم...».

وبالمثل، لم يكن قادرًا على التردد على مكتبة عامة واحدة والاحتفاظ ببطاقة دخول واحدة باسمه. بدلًا من ذلك، استعار كتبًا من مكتبات مختلفة في جميع أنحاء المدينة، وفي كل منها كان يحمل بطاقات دخول باسمٍ مستعار وعنوان مزيف، وإذا اعتقد أن أمين المكتبة قد «يتعرَّف عليه»، لا يعود إلى تلك المكتبة.

(١) لا أقترح أن تُفهم جميع أفكار الإحالة من هذا المنظور.

وعلى الرغم من صعوبة الحفاظ على هذه الآلية الدفاعية، لأنها تطلَّبت بالفعل لنجاحها قدرًا من الجهد والمهارة واليقظة بقدر ما يحتاج إليه جاسوسٌ في منطقة العدو، طالما كان يشعر أنه لم «يُكتشف» أو «يتعرَّف عليه أحدٌ»، فإن هذه الطريقة أدت إلى تخليصه من الحاجة إلى أن يكون» غير مقترنٍ» و»منفصلًا» باستمرارٍ. لكنها تطلَّبت يقظة قلقة دائمة لأنه لا يمكن أن يكون خارج دائرة الخطر. في هذه المرحلة، ومع ذلك، لم يكن وضعه، رغم صعوبته، يائسًا تمامًا. أصبح وضعه، بالطبع، أمرًا بالغ الأهمية بالطريقة التي أصبح بها نظام دفاعه شبه الفصامي، وكان **أسلوب حياته** كلها، محاولة لإيجاد طريقة ممكنة للعيش في العالم، **مشروعًا متعمدًا لإبادة الذات**. حين حدث هذا، بدأ عقله المزعزع يمرُّ بنقطة حرجة ويصاب بالذهان.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الذنب الحقيقي والزائف:

علينا الآن أن ننظر عن قربٍ في الشعور بالذنب الذي انتاب بيتر وعواقبه. نتذكر أنه لم يشعر بأنه مرتبكٌ ومكشوفٌ فقط، بل شعر بالذنب «لوجوده في العالم من الأساس». على هذا المستوى، لم يكن شعوره بالذنب مرتبطًا بأي شيء يفكر فيه أو يفعله؛ شعر أنه **ليس له الحق في شغل مساحة**. ليس هذا فقط، كانت لديه قناعة راسخة بأن المواد التي تشكَّل منها فاسدة. كانت فانتازياه عن الجماع الشرجي وإنتاج أطفال من براز تعبيرًا عن هذا الاقتناع. وتفاصيل هذه الفانتازيا ليست مهمتنا الحالية إلا بقدر ما ساهمت في إدراكه الاستنباطي بأن ذاته مكونة من الوحل والروث. إذا قال أبوه إنه «قطعة كبيرة من العجين»، فقد ذهب هو نفسه

إلى أبعد من ذلك بكثيرٍ. بتأثير الاقتناع بأنه كتلة من الوحل والروث لا قيمة لها، **شعر بالذنب لأنه بدا أنه شيء جديرٌ باهتمام** الآخرين.

شعر أنه سيِّئ بسبب ممارسة العادة السرية، ومع ذلك، فقد ظهر جوهر إحساسه بالذنب، على ما أعتقد، في الاكتشاف الغريب بأنه **حين تخلَّى عن ممارسة العادة السرية، ازداد شعوره بانعدام القيمة**، وحين بدأ الفعل حقًّا وصار عدمًا، أصبحت رائحته لا تطاق. وكما قال لاحقًا عن هذه الرائحة: «كانت إلى حدٍّ ما التقدير الذي أحمله لنفسي، كانت حقًّا شكلًا من أشكال كراهية الذات»، أي أنه كان ينفث رائحة كريهة بشكل سيِّئ من أنفه لدرجة لا يتحمَّلها.

كان لديه، في الواقع، مصدران متناقضان ومتعارضان تمامًا للشعور بالذنب: مصدر يحثُّه على الحياة، والآخر يحثُّه على الموت. مصدر بنَّاء والآخر مدمر. وكانت المشاعر التي ولَّداها مختلفة لكنهما كليهما كانا مؤلمين بشدة. إذا فعل أشياء تعبيرًا عن تأكيد الذات، وأنه شخصٌ مهمٌّ وذو شأن، حقيقي وحي، يُقال له «هذا تكلُّف، ادعاء، أنت عديم القيمة». ومع ذلك، إذا أصرَّ ورفض المصادقة على هذه المشورة الزائفة للضمير، لا يشعر أنه عقيمٌ أو غير واقعي أو ميت، ولا تكون رائحته كريهة بهذه الدرجة. من ناحية أخرى، إذا حاول بحزمٍ أن يكون عدمًا، يظل يشعر أنه مدَّعٍ أو متكلِّفٌ، يظل يعاني من القلق. وكان يدرك جسده بشكلٍ قهري على أنه موضوعٌ لإدراك الآخرين.

كان أسوأ تأثير لجميع الجهود المبذولة ليكون عدمًا هو الموات الذي حلَّ على وجوده كله. تغلغل هذا الموات في خبرته «بذاته غير

المقترنة»، وخبرته بجسده، وإدراكه للعالم «المنفصل». بدأ كل شيء يتوقف. فقد العالم ما كان عليه بالنسبة إليه، ووجد صعوبة في تخيل أن له أيَّ وجود بالنسبة إلى الآخرين. الأسوأ من ذلك كله، أنه بدأ يشعر بأنه «ميت». من وصفه اللاحق لهذا الشعور بأنه «ميت»، كان من الممكن أن نرى أنه ينطوي على فقدان الإحساس بواقعية جسده وحيويته. كان جوهر هذا الشعور **غياب** خبرة جسده ككائنٍ حقيقي بالنسبة إلى الآخرين. كان يوجد لنفسه فقط (بشكلٍ لا يطاق)، ويتوقف عن الشعور بأن له أي وجود في أعين العالم.

يبدو من المحتمل أنه كان في كل هذا يتنافس مع فجوة أساسية في الخبرة ثنائية الأبعاد لنفسه وقد جرَّده منها تعامل والديه معه، أو بالأحرى فشلهما في التعامل معه. كان انشغاله القهري (الذي شعر بأنه مزعجٌ للغاية) بأن يكون ملموسًا ومشمومًا، إلخ، بالنسبة إلى الآخرين، محاولة يائسة للاحتفاظ بهذا البعد لجسدٍ حي: إن له وجودًا بالنسبة إلى الآخرين. لكن كان عليه أن «يدفع» الإحساس بهذا البعد لجسده بطريقة ثانوية ومصطنعة وقهرية. كان هذا بُعدًا من أبعاد خبرته التي لم تترسخ بالمعنى الأساسي نتيجة الموقف الطفولي الأصلي، وقد سُدَّت الفجوة، ليس نتيجة أي تطور لاحق للشعور بالحب والاحترام كشخص، لكن بشعور بأن الحب كله عمليًّا كان اضطهادًا مقنَّعًا، لأنه يهدف إلى تحويله إلى شيء من الآخر - ريشة في قبعة مُدرِّسته، على حد تعبيره.

وعلى الرغم من أن هذا المريض واجه صعوبات في المدرسة وفي عمله، وعلى الرغم من أنه شعر أنه مدَّعٍ ومتكلف في المدرسة، وعانى من الذعر في المكتب، فإن الأمر كان أوضح حين بدأ هو نفسه عمدًا

زرع الانقسامات في كيانه، وأخذت حالته منعطفًا ينذر بالسوء. قال إنه حاول «الانفصال عن كل شيء» وهذا صحيحٌ، وأضاف لهذا طريقته في «فك الاقتران». وبهذا حاول قطع الروابط التي تربط مختلف جوانب كيانه معًا. وحاول بشكلٍ خاص ألا يكون له وجودٌ «في» تصرفاته أو تعبيراته: ألا يكون ما يفعله. يرى المرء أنه كان يلعب هنا على الموقف الانتقالي لأفعال الجسد وتعبيره بين الذات والعالم. الآن يحاول أن يقول، «لسْتُ كل ما يمكن أن يكون موضوعًا بالنسبة إلى الآخر».

من الواضح أن الجسد يحتل موقعًا انتقاليًّا غامضًا بيني وبين العالم، إنه، من ناحية، جوهرُ عالمي ومركزه، ومن ناحية أخرى، شيء في عالم الآخرين. حاول بيتر الانفصال عن أي شيء يمكن أي شخص آخر أن يدركه منه. بالإضافة إلى جهوده للتنصل من مجموعة كاملة من المواقف والطموحات والأفعال، إلخ، نشأت متوافقة مع العالم، ويحاول الآن فك اقترانها بذاته الداخلية، ويبدأ في محاولة تقليص وجوده كله إلى لا وجود، بدأ بشكلٍ منهجي قدر استطاعته ليصبح عدمًا. تحت الاقتناع بأنه نكرة، وأنه عدمٌ، دفعه شعورٌ رهيبٌ بالصدق إلى أن يكون عدمًا. شعر أنه إذا كان نكرة فعليه أن يصبح نكرة. وكان عدم الكشف عن الهوية إحدى الطرق السحرية لترجمة هذه القناعة إلى حقيقة. حين تخلَّى عن عمله تجوَّل في جميع أنحاء البلاد، متنقلًا باستمرارٍ. لم ينتمِ إلى مكانٍ. كان يذهب من أي مكان إلى أي مكان: بلا ماضٍ أو مستقبل، لا ممتلكات ولا أصدقاء. ولأنه عدم، لا يعرف أحدًا، ولا أحد يعرفه، خلق الظروف التي جعلت من السهل عليه تصديق أنه نكرة.

كانت خطيئة أونان في إراقة بذرته على الأرض أنه بذلك يهدر إنتاجيته وإبداعه.[1] إن شعور بيتر بالذنب، كما عبَّر عنه لاحقًا، لم يكن ببساطة أنه استمنى ولديه فانتازيا سادية، لكن لأنه لم يتحلَّ بالشجاعة ليفعل مع الآخرين ما تخيل في الفانتازيا أنه يفعله معهم؛ وحين حاول ونجح إلى حدٍّ ما في كبح الفانتازيا، إن لم يكن كبتها، أصبح ذنبه ليس فقط أنه لديه هذه الفانتازيا، بل كبتها. وحين قرر أن يكون عدمًا، لم يكن شعوره بالذنب فقط لأنه ليس له الحق في فعل كل ما يمكن لأي شخص عادي أن يفعله، ولكن لأنه لم يكن يتحلَّى بالشجاعة لتكرار فعل هذه الأشياء على الرغم من ضميره الذي سعى لإخباره أن كل ما فعله أو يمكن أن يفعله في هذه الحياة بين الآخرين خطأ. كان شعوره بالذنب في تأييده بقراره لهذا الشعور بأنه ليس له الحق في الحياة، وفي حرمان نفسه من الوصول إلى إمكانيات هذه الحياة.

لم يشعر بالذنب بسبب رغباته أو دوافعه أو اندفاعاته في حد ذاتها، بل لأنه لم تواته الشجاعة ليصبح شخصًا حقيقيًّا يفعل أشياء حقيقية مع أناس حقيقيين في الواقع. لم يكن شعوره بالذنب نتيجة رغباته فقط، ولكن لأنها بقيت مجرد رغبات. نشأ إحساسه بالعقم من حقيقة أن رغباته لم تتحقق إلا في الفانتازيا، وليس في الواقع. كان الاستمناء نشاطًا استبدل فيه بامتياز علاقة عقيمة بأشباح الفانتازيا بعلاقة إبداعية مع آخر

(١) عن خطيئة أونان، ورد في سفر التكوين ٣٨: ٨-١٠: فَقَالَ يَهُوذَا لأُونَانَ: «ادْخُلْ عَلَى امْرَأَةِ أَخِيكَ وَتَزَوَّجْ بِهَا، وَأَقِمْ نَسْلًا لأَخِيكَ». فَعَلِمَ أُونَانُ أَنَّ النَّسْلَ لاَ يَكُونُ لَهُ، فَكَانَ إِذْ دَخَلَ عَلَى امْرَأَةِ أَخِيهِ أَنَّهُ أَفْسَدَ عَلَى الأَرْضِ، لِكَيْ لاَ يُعْطِيَ نَسْلًا لأَخِيهِ. فَقَبُحَ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ مَا فَعَلَهُ، فَأَمَاتَهُ أَيْضًا. (المترجم).

حقيقي؛ وبدلًا من شعور محتمل بالذنب قد ينشأ عن رغبة حقيقية في شخص حقيقي، شعر بالذنب لأن رغباته مجرد رغبات فانتازية.

يقول هايدجر إن الشعور بالذنب دعوة كيان لنفسه في صمتٍ. ما يمكن للمرء أن يسميه **الذنب الحقيقي** لبيتر أنه استسلم **لذنبه غير الحقيقي**، وكان هدف حياته ألا يكون على طبيعته.

ومع ذلك، كان في هذا المريض أيضًا انقسام ذاته الداخلية الذي ذكرناه من قبل. منذ أيامه الأولى، طارده الإحساس بأنه نكرة، وقد عزم الآن بشدة على خلق الظروف التي تؤكد هذا الشعور. ومع ذلك، شعر في الوقت نفسه أنه شخصٌ مميزٌ للغاية، وله مهمة وهدف خاصان، أرسله الرب إلى هذه الأرض. كانت هذه القدرة المطلقة الفارغة والإحساس بالرسالة مفزعين له، وقد وضعهما جانبًا على أنهما «نوعٌ من الشعور بالجنون». شعر أنه إذا تساهل مع هذا الشعور بهذه الطريقة فقد وضع، بتعبير إمبسون،[1] «المصحة النفسية وكل شيء هناك». ومع ذلك، فرضت عقوبة شديدة عليه بسبب الانغماس في البديل. نظرًا لأنه حاول أن يكون نكرة بعدم العيش في جسده ومن خلاله، أصبح جسده، بمعنى ما، ميتًا.

وبالتالي حين تخلى عن الادعاء، فرض الادعاء نفسه على ملاحظته حيث استدعاه على أنه شيءٌ متعفنٌ وفاسدٌ وغريبٌ - في الواقع، غير حي وميت. كان قد فصل نفسه عن جسده بسدادة نفسية، وطور كل من

(١) وليم إمبسون Empson (١٩٠٦-١٩٨٤): شاعر وناقد إنجليزي (المترجم).

ذاته غير المجسدة وجسده «غير المقترن» شكلًا من أشكال الغرغرينا الوجودية.

توضح إحدى ملاحظاته اللاحقة جوهر الأمر باختصارٍ:

كنتُ ميتًا إلى حدٍّ ما. انعزلْتُ عن الآخرين وأغلقتُ على نفسي. ويمكن أن أرى أن المرء يصبح ميتًا إلى حدٍّ ما حين يفعل هذا. عليه أن يعيش في العالم **مع** آخرين. وإذا لم يفعل ذلك يموت شيءٌ ما في الداخل. يبدو الأمر سخيفًا. ولا أفهمه حقًّا، لكن يبدو أنه حدث شيء مثل هذا. إنه ممتعٌ.

* * *

الجزء الثالث

٩

التطورات الذهانية

الأشياء تنهار، والمركز لا يصمد،

والفوضى تجتاح العالم.

وليم بتلر ييتس

تناولنا بالفعل، خاصة في حالتَي ديفيد وبيتر، المظاهر شبه الفصامية التي اقتربت بشكلٍ خطيرٍ من الذهان الصريح. وندرس في هذا الفصل بعضَ طرق عبور الحدود إلى حالة ذهانية. هنا، بالطبع، لا يمكن التمييز دائمًا بحدة بين العقل والجنون، بين الشخص شبه الفصامي العاقل والشخص الذهاني. أحيانًا يكون ظهور الذهان دراميًّا ومفاجئًا للغاية، وتكون مظاهره واضحة للغاية، بحيث لا يمكن وجود تساؤل أو شك بشأن التشخيص. ومع ذلك، لا يوجد في حالات كثيرة مثل هذا التغيير النوعي المفاجئ على ما يبدو، لكن الانتقال يمتد على مدى سنوات، ولا توجد أي نقطة يتضح عندها عمومًا ما إذا كان قد حدث تجاوز لأي نقطة حرجة.

لفهم طبيعة الانتقال من العقل إلى الجنون حين تكون نقطة الانطلاق الشكل الخاص للوضع الوجودي شبه الفصامي الموصوف في الصفحات السابقة، من الضـروري النظر في الاحتمالات الذهانية التي تنشأ من هذا السياق الوجودي الخاص. في هذا الوضع، ذكرنا أن الذات، لتطوير هويتها واستقلاليتها والحفاظ عليهما، ولتكون في مأمنٍ من التهديد والخطر المستمرين من العالم، انعزلت عن الارتباط المباشر بالآخرين، وسعت إلى أن تصبح موضوع نفسها: أن ترتبط، في الواقع، مباشرة بنفسها فقط. وتصبح وظائفها الأساسية فانتازيا ومُراقَبة.

الآن، بقدر ما ينجح هذا السعي، تكون إحدى النتائج الضـرورية أن الذات تجد صعوبة في الحفاظ على أي **شعورٍ بالواقع**[1] للسبب نفسه الذي لا يجعلها «على اتصال» بالواقع، فهي لا «تلبي» الواقع أبدًا. وكما قال مينكوفسكي (١٩٥٣)، يوجد فقدان «للتواصل الحيوي» مع العالم. وبدلًا من ذلك، تحال العلاقة مع الآخرين والعالم، كما رأينا، إلى نظام الذات الزائفة، وهو نظام يكون «معامل» واقع تصوراته ومشاعره وأفكاره وأفعاله منخفضًا نسبيًّا.

قد يبدو الفرد في هذا الوضع طبيعيًّا نسبيًّا، لكنه يحافظ على مظهره الخارجي الطبيعي بالمزيد والمزيد من الوسائل الشاذة واليائسة. تنخرط الذات في الفانتازيا في «عالم» الأشياء «العقلية»، أي أشيائها، وتراقب الذاتَ الزائفةَ، التي تنخرط وحدها في العيش في «العالم المشترك». ونظرًا لأن الاتصال المباشر مع الآخرين في هذا العالم المشترك الحقيقي

---

(١) **شعور بالواقع** *sentiment du réel*: بالفرنسية في الأصل (المترجم).

تحول إلى نظام الذات الزائفة، يمكن للذات بهذه الوسيلة فقط التواصل مع العالم الخارجي المشترك. ومن ثم، يمكن لما صُمِّم في المقام الأول على أنه حارسٌ أو حاجزٌ لمنع التأثير التخريبي على الذات، أن يصبح جدرانًا لسجنٍ لا يمكن للذات الهروب منه.

وهكذا تفشل الدفاعات ضد العالم حتى في وظائفها الأساسية: منع الصدامات الاضطهادية (الانهيار) والحفاظ على الذات حية، بتجنب أن يستولي عليها ويتلاعب بها شخصٌ آخر. يزحف القلق مرة أخرى بشكلٍ أكثر كثافة من أي وقتٍ. يمتد عدم واقعية الإدراك وزيف أهداف نظام الذات الزائفة إلى مشاعر الموات في العالم المشترك ككل، إلى الجسد، وفي الواقع، إلى كل ما يمثِّله ذلك، ويتسلَّل حتى إلى الذات «الحقيقية». يغمر العدم كلَّ شيء. تصبح الذات الداخلية نفسها غير واقعية تمامًا أو «فانتازية» ومنقسمة وميتة، وعاجزة عن الحفاظ على الشعور المزعزع بهويتها التي بدأت به. يتفاقم هذا باستخدام الاحتمالات الأكثر شؤمًا كدفاعاتٍ، على سبيل المثال تجنب تحديد الهوية للحفاظ على الهوية (بما أنه، كما أشرنا من قبل، يتم الوصول إلى الهوية والحفاظ عليها ثنائية الأبعاد، فهي تتطلب أن يتعرَّف الآخرون على الذات وتتطلَّب أيضًا اعترافًا بسيطًا يتفق عليه المرء مع نفسه)، أو الرعاية المتعمدة لحالة الموت في الحياة لمقاومة آلام الحياة.

تتحد الجهود المبذولة في كل من الانسحاب الإضافي للذات وتجاه عودة الذات إلى موضعها في اتجاه الذهان نفسه. بطريقة ما، قد يحاول الشخص شبه الفصامي بيأسٍ أن يكون على طبيعته، وأن يستعيد كيانه

ويحافظ عليه، ومع ذلك، من الصعب للغاية فصل الرغبة في الوجود عن الرغبة في عدم الوجود، لأن الكثير مما يفعله الشخص شبه الفصامي غامضٌ بطبيعته بشكلٍ لا يمكن التخلُّص منه. هل يمكن للمرء أن يعرف بشكلٍ لا لبس فيه إن كان بيتر يسعى لتدمير نفسه أم للحفاظ على نفسه؟ لا يمكن تقديم الإجابة إذا فكرنا في المصطلحين إما/ أو على أن كلًّا منهما يستبعد الآخر. كانت دفاعات بيتر ضد الحياة، إلى حدٍّ كبيرٍ، خلقًا لشكل من أشكال الموت داخل الحياة، بدا أنه يوفر في حد ذاته قدرًا من التحرر من القلق، على الأقل لبعض الوقت. للبقاء، كان عليه، كما في التمارض، أن يتظاهر بقدرٍ من الموت. يمكن أن يكون بيتر «نفسه» حين يكون مجهولًا أو متخفيًا، أي حين لا يكون معروفًا للآخرين، أو يمكن أن يترك نفسه ليعرفه الآخرون إذا لم يكن هو نفسه. لا يمكن أن يستمر هذا الالتباس إلى أجل غير مسمًّى، **لأن الشعور بالهوية يتطلَّب وجودَ شخصٍ آخر يعرف المرء**، والاقتران بين تعرف هذا الشخص الآخر على ذات المرء بالتعرف الذاتي. لا يمكن الاستمرار في العيش إلى أجل غير مسمى بطريقة عاقلة إذا حاول المرء أن يكون إنسانًا منفصلًا عن الآخرين وغير مقترن حتى بجزءٍ كبيرٍ من كيانه.

مثل هذا النمط من الوجود مع الآخرين يفترض القدرة على الحفاظ على واقع المرء عن طريق هوية التوحد أساسًا. قد يفترض في النهاية أنك من المحتمل أن تكون إنسانًا من دون علاقة ديالكتيكية بالآخرين. ويبدو أن الهدف الكامل لهذه المناورة هو الحفاظ على هوية «داخلية» من دمارٍ فانتازي من مصادر خارجية، باستبعاد أي وصول مباشر من

الخارج إلى هذه الذات «الداخلية». ولكن من دون أن تكون «الذات» محددة بواسطة الآخر، وملتزمة بالعنصر»الموضوعي»، ومن دون أن تعيش في علاقة ديالكتيكية مع الآخرين، لن تستطيع «الذات» الحفاظ على الهوية المزعزعة أو الحيوية التي ربما تتمتع بها بالفعل.

وقد وُصِفتْ بالفعل التغييرات التي تمر بها الذات «الداخلية» جزئيًّا، ونسردها هنا على النحو التالي:

١- تصبح «فانتازية» أو «متطايرة» وبالتالي تفقد أي هوية راسخة بقوة.

٢- تصبح غير واقعية.

٣- تصبح فقيرة وفارغة وميتة ومنقسمة.

٤- تصبح مشحونة أكثر بالكراهية والخوف والحسد.

هذه أربعة جوانب لعملية واحدة، بالنظر إليها من وجهات نظر مختلفة.

حمل جيمس هذه العملية إلى حدود العقل، وربما تجاوزها بالفعل. كان هذا الشاب في الثامنة والعشرين، وقد غذَّى بشكلٍ متعمدٍ، كما هو الحال غالبًا، الانقسام بين ما اعتبره «ذاته الحقيقية» ونظام الذات الزائفة.

وكان يرى أن من الصعب ألا تكون أي طريقة للنظر إلى أي شيء، أو أي فكرة أو فعل، زائفة وغير حقيقية. كانت الرؤية والتفكير والشعور والتصرف «ميكانيكية» و «غير واقعية» تمامًا لأنها ببساطة الطريقة التي رأى الآخرون بها الأشياء أو فكروا فيها أو شعروا بها أو تعاملوا معها.

حين كان يسير إلى قطاره في الصباح، إذا التقى بأي شخصٍ، فعليه أن يضبط خطوته على خطوة الآخر، ويتحدث ويضحك على أشياء تحدَّث عنها الجميع وضحكوا عليها. «إذا فتحت باب القطار وسمحت لشخصٍ ما بالدخول قبلي، فهذه ليست طريقة للتعبير عن احترامه، إنها ببساطة وسيلة للتصرف بقدر ما أستطيع مثل أي شخص آخر». ومع ذلك، كانت جهوده للظهور على أنه مثل أي شخص آخر تبذل باستياءٍ شديدٍ من الآخرين وازدراء للذات لأن سلوكه الفعلي كان نتاجًا غريبًا للصـراع بين الإخفاء والكشف عن مشاعره «الحقيقية».

حاول تأكيد هويته بغرابة الأفكار. كان داعية للسلام، ثيوصوفيًّا،(١) منجمًا، روحانيًّا، مؤمنًا بالقوى الخارقة، نباتيًّا. يبدو أن حقيقة أنه **كان يستطيع أن يشارك الآخرين** على الأقل بأفكاره الغريبة ربما كانت العامل الوحيد الأكثر أهمية في الحفاظ على سلامة عقله. لأنه في تلك المجالات المحدودة كان يستطيع أحيانًا أن يكون **مع** الآخرين الذين شاركهم أفكاره وخبراته الخاصة. تميل مثل هذه الأفكار والخبرات إلى عزل الإنسان عن زملائه في ثقافتنا الغربية الحالية، وما لم تفد في الوقت نفسه لجذبه إلى مجموعة صغيرة من «غريبي الأطوار» المتشابهين، تكون عزلته معرضة بشدة لخطر الانتقال إلى اغترابٍ ذهاني. على سبيل المثال، امتدَّ «مخطط جسده» من قبل الولادة إلى ما بعد الوفاة، وألغى

---

(١) الثيوصوفية Theosophy: ديانة تأسست في أمريكا في أواخر القرن التاسع عشر على يد المهاجرة الروسية هيلينا بلافاتسكي، وتستمد تعاليمها غالبًا من كتابات بلافاتسكي. صنَّفها علماء الدين حركة دينية جديدة وهي تعتمد على فلسفات أوروبية قديمة مثل الأفلاطونية الحديثة وديانات آسيوية مثل الهندوسية والبوذية (المترجم).

الحدود المعتادة للزمان والمكان. مرَّ بخبراتٍ «صوفية» مختلفة شعر فيها بأنه متَّحدٌ مع **المطلق، الحقيقة الوحيدة**. كانت القوانين التي «عرف» سرًّا أنها تحكم العالم قوانين سحرية تمامًا. وعلى الرغم من أنه كان كيميائيًّا، فإن إيمانه «الحقيقي» لم يكن بقوانين الكيمياء والعلوم ولكن بالخيمياء والسحر الأسود والأبيض وعلم التنجيم. انغمستْ ذاته، كما أُدرِكتْ جزئيًّا فقط، حتى في العلاقة مع الآخرين الذين يشاركونه وجهات نظره ومن خلالها، في عالم السحر تدريجيًّا، وكانت هي نفسها جزءًا من عالم السحر. تخضع موضوعات الفانتازيا أو الخيال لقوانين السحر؛ ولها علاقاتٌ سحرية، لا علاقات حقيقية. حين تشارك الذات أكثر في العلاقات الخيالية، تشارك مباشرة بشكلٍ أقل في العلاقات الحقيقية، وبذلك تفقد واقعها. تصبح، مثل الأشياء التي ترتبط بها، شبحًا سحريًّا. أحد الآثار المترتبة على ذلك أن كل شيء وأي شيء، بالنسبة إلى مثل هذه الذات، يصبح ممكنًا، وغير محددٍ، كما يجب أن تكون كل رغبة عاجلًا أو آجلًا، بالواقع والضرورة والارتباط الشرطي والمحدود. وإذا لم يكن الأمر كذلك، يمكن أن تكون الذات أي شخصٍ، وأن تكون في أي مكانٍ، وتعيش في أي وقتٍ. مع جيمس كان هذا هو الحال. «في الخيال»، كان الاقتناع ينمو ويتجمَّع بشأن التمتُّع بقوى خيالية (غامضة، سحرية، صوفية)، غامضة وغير محددة بشكلٍ مميزٍ ولكنها تساهم في فكرة أنه لم يكن مجرد جيمس في ذلك الوقت وهذا المكان، من هؤلاء الآباء، ولكنه شخصٌ مميزٌ للغاية، يحمل مهمة غير عادية، ربما كان تناسخًا لبوذا أو المسيح.

أي أن الذات «الحقيقية»، التي لم تعُد مرتبطة بالجسد الفاني، تصبح «فانتازية»، وتتطاير إلى شبحٍ متقلب من أشباح خيال الفرد. وبالطريقة نفسها، بعزلة الذات كآلية دفاعية ضد الأخطار التي يبدو أنها تهدد هويتها من دون ذلك، تفقد الذات الهوية المزعزعة التي تتمتع بها بالفعل. وبالإضافة إلى ذلك، يؤدي الانسحاب من الواقع إلى إفقار «الذات». وتستند قدرتها المطلقة على العجز. وتعمل حريتها في فراغٍ. ويكون نشاطها بلا حياة. تجف الذات وتموت.

شعر جيمس، في عالم أحلامه، أنه يشعر بأنه وحيدٌ في عالمٍ مقفرٍ أكثر مما يشعر وهو يقظٌ، على سبيل المثال:

١ - وجدتُ نفسي في قرية، أدركتُ أنها مهجورة: إنها في حالة خراب؛ لا حياة فيه ....

٢ - ... كنتُ أقف وسط أرض قاحلة، كانت مسطَّحة تمامًا. لا حياة في الأفق. كان العشب ينمو بالكاد. كانت قدماي عالقتين في الوحل...

٣ - ... كنتُ في مكانٍ منعزلٍ يتكوَّن من صخورٍ ورمالٍ. هربتُ من شيء ما. الآن كنت أحاول العودة إلى مكانٍ ما لكني لا أعرف في أي طريق أمضي ....

المفارقة التراجيدية أننا لا نتجنَّب أي قلقٍ حتى في النهاية، بينما يصبح كلُّ قلقٍ وكل ما عداه أكثر تعذيبًا بالتسرب إلى كل خبرات حياة اليقظة والأحلام التي تشهد إحساسًا دائمًا بالعدم والموات.

لا يمكن أن تكون الذات «حقيقية» إلا في علاقة بأشخاصٍ حقيقيين وأشياء حقيقية. لكنها تخشى الانغماس في أي علاقة حتى لا تبتلعها. إذا كان «ضمير المتكلم» لا يلعب دورًا إلا في مواجهة موضوعات الفانتازيا، بينما تدير الذات الزائفة التعاملات مع العالم، تحدث تغيرات فينومينولوجية متنوعة وعميقة في جميع عناصر الخبرة.

وهكذا تكون النقطة التي وصلنا إليها بالفعل أن الذات، لأنها متسامية وفارغة ومطلقة القدرة وحرة بطريقتها الخاصة، تصبح أي شخص في الفانتازيا، ونكرة في الواقع.

وترتبط هذه الذات في المقام الأول بأشياء من فانتازياها. ولأنها كلها ذات في فانتازيا، تصبح متطايرة في النهاية. في فزعها من مواجهة الالتزام بالعنصر الموضوعي، سعت إلى الحفاظ على هويتها؛ لكنها لم تعد مرتبطة بالحقيقة، بالمشروط والنهائي، وتتعرض لخطر فقدان ما كانت تسعى إلى حمايته قبل كل شيء. بفقد المشروط تفقد هويتها؛ وبفقد الواقع، تفقد إمكانية ممارسة حرية الاختيار الفعالة في العالم. بالهروب من خطر القتل، تموت. ربما لم يعُد الفرد الآن يشعر بالعالم كما يشعر به الآخرون، على الرغم من أنه ربما لا يزال يعرف كيف يبدو بالنسبة إلى الآخرين إن لم يعرف كيف يبدو بالنسبة إلى نفسه. لكن لا يمكن لنظام الذات الزائفة أن يدعم الإحساس المباشر بواقعية العالم. بالإضافة إلى ذلك، لا يمكن لنظام الذات الزائفة أن يختبر الواقع، لأن اختبار الواقع يتطلب عقلًا خاصًّا يمكنه اختيار أفضل البدائل وما إلى ذلك، وعدم وجود مثل هذا العقل هو ما يجعل الذات الزائفة زائفة.

حين ترشح الخبرة من العالم الخارجي إلى الذات الداخلية، لا يمكن لهذه الذات بعد ذلك أن تشعر برغباتها الخاصة أو تعبِّر عنها بطريقة مقبولة اجتماعيًّا.

أصبح القبول الاجتماعي مجرد خدعة، حيلة. من المرجح الآن أن تكون نظرته الخاصة للأشياء، والمعنى الذي تحمله بالنسبة إليه، ومشاعره، وتعبيراته، على الأقل غريبة وشاذة، إن لم تكن عجيبة ومجنونة. تبقى الذات محصورة أكثر وأكثر داخل نظامها الخاص، بينما يكون على الذات الزائفة أن تحقق التكيف والتوافق مع الخبرات المتغيرة. يبدو أن نظام الذات الزائفة مرنٌ: يعمل مع أشخاصٍ جدد، ويتكيَّف مع بيئة متقلبة. لكن الذات لا تواكب التغيرات في العالم الحقيقي. تبقى موضوعات علاقاتها الفانتازية من دون تغيير جوهري على الرغم من خضوعها للتعديل، على سبيل المثال، في اتجاه المثالية، أو تصبح اضطهادية بصورة أكبر. لا يوجد تفكير في فحص هذه الأشكال الفانتازية (الصور الخيالية) واختبارها وتصحيحها من منظور الواقع. ليس هناك في الواقع أي فرصة للقيام بذلك. لا تبذل ذات الفرد الآن أيَّ جهدٍ للتصرف بناءً على الواقع، لإحداث تغييرات حقيقية فيه.

وبينما تخضع الذات وصورها الخيالية للتعديل المذكور، يخضع نظام الذات الزائفة لتغييراتٍ موازية.

نذكر الموقف الأصلي الذي مثَّلناه بشكلٍ تخطيطي على النحو التالي:

الجسد معيار نظام الذات الزائفة ولكن هذا النظام يتصور الفرد ليجسد نطاق نشاط الجسد ويمتد إلى ما بعده فقط. وهو يتكوَّن إلى حدٍّ كبيرٍ من جميع جوانب «كيان» الفرد التي تنكرها «الذات» الداخلية باعتبارها ليست تعبيرًا عن نفسه. وهكذا، كما هو الحال مع جيمس، بينما تتراجع الذات أكثر وأكثر إلى العلاقات الفانتازية الحصرية والملاحظة «المنفصلة» وغير المشاركة لمعاملات الذات الزائفة والآخرين، يبدو أن نظام الذات الزائفة يتعدى أكثر وأكثر، ليقوم بانتهاكاتٍ أعمق وأعمق في كيان الفرد حتى يتم تصور أن كل شيء ينتمي عمليًّا إلى هذا النظام. لم يستطع جيمس في النهاية إدراك أي شيء عن طريق البصر أو الصوت أو اللمس، أو يفعل، بشكلٍ خاص،[1] أي شيء من دون أن يشعر بأنه «ليس على طبيعته». وقد قدمنا بالفعل بعض الأمثلة. ويمكن أن تتضاعف إلى ما لا نهاية، لأنه بهذه الطريقة واجه تصرفاته بارتياحٍ، في العمل ومع الأصدقاء. ويمكن الآن تلخيص عواقب هذا النمط من الوجود على طبيعة نظام الذات الزائفة على النحو التالي:

١- يصبح نظام الذات الزائفة أكثر اتساعًا.

٢- يصبح أكثر استقلالية.

٣- «تزعجه» شظايا السلوك القهري.

٤- يزداد كل ما ينتمي إليه موتًا وعدم واقعية وزيفًا وآلية.

---

(١) تبقى علاقة الانقسامات في كيان المرء بمختلف الحواس غير مفهومة بشكلٍ كافٍ.

إن انفصال الذات عن الجسد والارتباط الوثيق بين الجسد والآخرين، يفسح المجال للوضع الذهاني حيث لا يعتبر أن الجسد يعمل فقط ليمتثل للآخرين ويسترضيهم، بل على أن الآخرين يستحوذون عليه بالفعل. لا يبدأ الفرد بالشعور فقط بأن تصوراته زائفة لأنه ينظر باستمرارٍ إلى الأشياء بأعين الآخرين، لكن بالشعور بأن الناس يمارسون معه حيلًا لأنهم ينظرون إلى العالم بعينيه.

وصل جيمس إلى هذه النقطة تقريبًا. شعر بالفعل أن الأفكار التي في «دماغه»، كما قال دائمًا، لم تكن أفكاره في الحقيقة. كان جزءٌ كبيرٌ من نشاطه الفكري محاولة ليستحوذ على أفكاره؛ ليضع أفكاره ومشاعره تحت سيطرته. على سبيل المثال، كانت زوجته تعطيه كوبًا من الحليب في الليل. ومن دون تفكيرٍ، كان يبتسم ويقول، «شكرًا». وعلى الفور يتغلب عليه الاشمئزاز. كانت زوجته ببساطة تتصرف بطريقة آلية وكان يستجيب من منظور «الآليات الاجتماعية» نفسها. هل كان يريد الحليب، هل كان يشعر بالرغبة في الابتسام، هل كان يريد أن يقول «شكرًا»؟ لا، ومع ذلك فقد فعل هذا كله.

الموقف الذي يواجه شخصًا في وضع جيمس موقفٌ حرجٌ. صار جيمس خياليًّا وميتًا إلى حدٍّ كبيرٍ. قد لا يحس الواقع والحياة بشكلٍ مباشرٍ، على الرغم من عدم فقد الإحساس بإمكانية وجودهما. الواقع والحياة لدى الآخرين. الواقع والحياة موجودان، ربما، في **الطبيعة** (بشكلٍ أكثر تحديدًا، داخل جسد **الطبيعة الأم**)،[1] أو يمكن

---

(١) **الطبيعة الأم** Mother Nature: تجسد الطبيعة كقوة إبداعية، ومسيطرة، تؤثر على العالم والبشر (المترجم).

استيعابهما في أنواع معينة من الخبرة: يمكن استعادتهما من خلال التدريبات الفكرية والتحكم. ومع ذلك، فإن الذات مشحونة بالكراهية في حسدها لحياة الثراء والحيوية والوفرة الموجودة دائمًا في مكانٍ آخر؛ دائمًا هناك، وليس هنا أبدًا. الذات، كما قلنا، فارغة وجافة. قد يسميها المرء ذاتًا شفهية بقدر ما تكون فارغة وتتوق إلى أن تتحقق وتفزع من أن تمتلئ. لكن شفهيتها لا يمكن أبدًا أن تشبع بأي قدرٍ من الشـرب والتغذية والأكل والمضغ والبلع. إنها تعجز عن دمج أي شيء. تبقى حفرة بلا قاعٍ؛ هوة هائلة لا يمكن أن تُملَأ. في عالمٍ رطبٍ، لا يمكن أن تروي ظمأها. لا يمكن أن ينشأ الشعور بالذنب، الذي قد ينشأ إذا كان من الممكن استيعاب العالم وتدميره كغذاء (بمعنى ما)، لأغراض بناءة. تحاول الذات تدمير العالم بتحويله إلى غبارٍ ورمادٍ من دون استيعابه. تقلص كراهيتها الموضوع إلى عدم من دون هضمه. وهكذا، على الرغم من أن «الذات» مقفرة، وتحسد بشدة الخير (الحياة، الواقع) التي تتخيل أن الآخرين يعيشون فيه، فإن عليها أن تدمِّره بدل أن تستوعبه. تصبح المسألة «الحصول» على حياة وواقع بطريقة ما لا تؤدي إلى إبادة الذات. لكن تدمير الواقع والاستحواذ الخفي عليه كانا إجراءين سحريين إلى حدٍّ كبيرٍ بحلول هذا الوقت. تتضمن هذه الطرق السحرية للحصول على الواقع خلسة ما يلي:

١- اللمس.

٢- النسخ والتقليد.

٣- الأشكال السحرية لسرقته.

قد يجد الفرد أيضًا قدرًا من الطمأنينة إذا استطاع أن يثير بنفسه انطباعًا فوريًّا بالواقعية في الآخرين. (هذه الطرق موضحة في حالة روز، ص ٢١٣ وما يليها).

يمكن للمرء القيام بمحاولة إضافية للشعور بمشاعر حقيقية بتعريض نفسه لألمٍ أو رعبٍ شديدٍ. وهكذا، أوضحت مريضة بالفصام اعتادت على إطفاء سجائرها في ظهر يدها، والضغط بإبهامها بقوة على مقلتي عينيها، وتمزيق شعرها ببطء، إلخ، أنها تفعل ذلك لتشعر بشيء «حقيقي». ومن المهم تمامًا أن نفهم أن هذه المرأة لم تكن تسعى إلى إشباع مازوشي؛ ولم تكن فاقدة الإحساس. لم تكن أحاسيسها أقل حدة من المعتاد. كانت تشعر بكل شيء ما عدا أنها حية وحقيقية. أفاد مينكوفسكي أن إحدى مرضاه أضرمت النار في ملابسها لأسبابٍ مماثلة. إن الشخص شبه الفصامي الهادئ قد «يركل»، وينهمك في إثارة شديدة، ويندفع إلى مخاطر شديدة لكي «يبث قدرًا من الحياة في نفسه»، كما قال أحد المرضى. كتب هولدرين:[1] «يا ابنة الأثير، اظهري لي من بساتين أبيك، وإذا لم تعديني بسعادة مميتة، ليكن الفزع إذن، ابعثي الفزع في قلبي بشيء آخر». ومع ذلك، فإن هذه المحاولات لا يمكن أن تصل إلى أي شيء. كما قال جيمس، بكلمات متوسل كافكا تقريبًا: «الواقع يتراجع عني، كل شيء ألمسه، كل ما أفكر فيه، كل شخص ألتقي به، يصبح غير واقعي بمجرد أن أقترب منه».

في الخسارة المتفاقمة للوجود الحقيقي للآخر، وبالتالي فقدان

(١) ‹Entreaty (to Hope)›, quoted by Binswanger (1958), p. 311.

الإحساس بوجودي معك، بوجودنا معًا، قد تصبح النساء أكثر بُعدًا وأكثر تهديدًا من الرجال. قد يكون الأمل الأخير لنقطة اختراق لما يسميه بينسوانجر (١٩٤٢) النمط المزدوج للوجود في العالم بالارتباط المثلي، أو قد يكون رابط المحبة الأخير مع الآخر باعتباره طفلًا أو حيوانًا. يصف بوس[١] (١٩٤٩) الدور الذي لعبه بشكل من أشكال الحب المثلي في رجلٍ تقلَّصت ذاته وعالمه وضاقا في عزلته:

> هذا الإنسان، الذي تنقبض فيه حتى «فروة الرأس وعضلة القلب»، أقل قدرة على «الوصول» إلى توسيع الامتلاء الوجودي لاتحاد الحب بين الذكر والأنثى وتعميقه. لم يعد يستطيع بلوغ «النعيم السماوي»، «الشغف والتنوير»، الذي كان يعنيه له ذات يومٍ حب ابنة العم. كانت الخطوة الأولى في عملية زيادة عقم وجوده أن المرأة فقدت شفافية حبها، لأنها قطب وجود «غريب» بعيد ومختلف تمامًا؛ صارت «شاحبة»، «سرابًا»، ثم مثلت «طعامًا لا يمكن هضمه»، وفي النهاية خرجت تمامًا من إطار عالمه. حين «استنفد» فصامه المتفاقم «رجولته»، حين «نفدت» معظم مشاعره الذكورية، شعر فجأة ولأول مرة في حياته بأنه مدفوعٌ إلى «الانفتاح» على شكلٍ معين من الحب المثلي. وقد وصف بشكلٍ واضحٍ كيف نجح في هذا الحب المثلي في الشعور بأن وجوده امتلأ للنصف على الأقل. لم يضطر إلى «بذل» جهدٍ كبيرٍ لتحقيق هذا القدر من الامتلاء، وكان خطر «فقدان نفسه» و«الانتهاء» إلى اللا محدود في هذا النطاق والعمق المحدودين ضئيلًا. على العكس من ذلك، استطاع الحب المثلي أن «يجدد» وجوده ليصبح «إنسانًا كاملًا».

---

(١) مدارد بوس Boss (١٩٠٤-١٩٩٠): طبيب نفسي ومحلل نفسي سويسري (المترجم).

يقول بوس، أعتقد، بشكلٍ صحيحٍ، أن

> هذه الملاحظة تلقي ضوءًا جديدًا على التصـريح المهم لفرويد عن ظهور الميول الجنسية المثلية بانتظامٍ في جميع حالات البارانويا. يعتقد فرويد أن هذه المثلية الجنسية سبب تطور أفكار الاضطهاد. ومع ذلك، لا نرى في الظاهرتين، في هذا النوع من المثلية الجنسية وفي أفكار الاضطهاد، إلا شكلين متوازيين للتعبير عن الانكماش الفصامي نفسه وتدمير وجود الإنسان، أي أنهما محاولتان مختلفتان لاستعادة الأجزاء المفقودة من شخصية المرء. (ص ١٢٢-١٢٤).

الفرد في عالم يموت فيه، مثل كابوس ميداس، كل ما يقترب منه. ربما لا يوجد الآن سوى احتمالين آخرين متاحين له في هذه المرحلة:

١. قد يقرر «أن يكون على طبيعته» على الرغم من كل شيء، أو

٢. أن يحاول قتل نفسه.

ومن المحتمل أن يؤدي المشـروعان، إذا نُفِّذَا، إلى ذهانٍ واضحٍ، وسوف ننظر في كلٍّ منهما على حدة.

يمكن للفرد الذي ظل نظام ذاته الزائفة سليمًا ولم تدمره هجماتٌ من الذات، أو من تراكم شظايا انتقالية من سلوكٍ غريبٍ، أن يبدو طبيعيًّا تمامًا. ومع ذلك، وراء هذه الواجهة العقلانية، قد تحدث عملية ذهانية داخلية سرًّا وفي صمتٍ.

إن الذات «الحقيقية» للفرد تتصور تأقلمه الطبيعي والناجح على ما يبدو وتكيفه مع الحياة العادية باعتباره ادعاءً مخجلًا و/ أو مثيرًا للسخرية

بشكلٍ يزداد باستمرارٍ. **في خطين متساويين** *Pari passu* صارت «ذاته»، في علاقاتها الفانتازية الخاصة، أكثر تقلبًا باستمرارٍ، وتحررت من الاحتمالات والضـرورات التي ترهقها باعتبارها موضوعًا بين مواضيع أخرى في العالم، حيث يعرف الشخص أن عليه الالتزام بأنه في هذا الزمان وهذا المكان، وأنه خاضعٌ للحياة والموت، ومجسدٌ في هذا اللحم وهذه العظام. وإذا كانت «الذات» التي تتبخر بهذه الطريقة في الفانتازيا تتصور الآن الرغبة في الهروب من صمتها، لإنهاء الادعاء، ولتكون صادقة، وتكشف نفسها وتعلن عنها وتتركها لتُعرَف بوضوحٍ، فقد نكون شهودًا على بداية ذهان حاد.

مثل هذا الشخص على الرغم من أنه عاقلٌ خارجيًّا فإنه يُصاب تدريجيًّا بالجنون داخليًّا. قد تظهر في حالات من هذا النوع بالفحص السطحي مشكلة محيِّرة للغاية لأنه عند مراجعة التاريخ «الموضوعي»، قد لا نجد ضغوطًا مسبِّبة مفهومة، أو نجد، حتى في وقتٍ لاحقٍ، أي مؤشرات واضحة على أن مثل هذا الشكل المفاجئ الحاد للأحداث كان وشيكًا. فقط حين يمكن أن نأخذ من الفرد نفسه تاريخ **ذاته، وليس التاريخ النفسي كما يكون في مثل هذه الظروف عادة، تاريخ نظام الذات الزائفة**، يصبح ذهانه قابلًا للتفسير.

فيما يلي روايتان عاديتان تمامًا عن بداية الذهان «من دون مقدمات»، من النوع المألوف لأي طبيبٍ نفسي، بالنظر من «الخارج». ومن هذا المنظور، يجب أن تظلَّا حالتين محيرتين للغاية.

شاب في الثانية والعشرين كان والداه وأصدقاؤه يعتبرونه «طبيعيًّا» تمامًا. في إجازة على البحر، استقلَّ قاربًا إلى البحر، وعُثِر عليه بعد بضع ساعات، وقد جرفه التيار بعيدًا عن الأرض. قاوم عملية الإنقاذ، قائلًا إنه فقد الرب، وانطلق في المحيط للبحث عنه، وقد ميز هذا الحادث بداية ذهان واضح استدعى الحجز في مستشفى لعدة أشهر.

ذهب رجلٌ في العقد السادس من العمر، لم يعانِ من قبل أي مشكلة «عصبية»، لم يعانِ على الأقل في حدود علم زوجته، وقد بدا لها، حتى بداية الذهان الحاد، أنه في «حالته المعتادة»، ذهب مع زوجته وأطفاله في نزهة على ضفاف النهر، في عصر يوم صيفي حار. بعد الوجبة، خلع ملابسه تمامًا، على الرغم من وجود متنزهين آخرين في المكان، ونزل إلى الماء. ربما كان هذا مجرد تصرفٍ غير عادي. بعد أن خاض حتى وصل الماء إلى الخصر، ألقى الماء على نفسه، ورفض الخروج قائلًا إنه يعمد نفسه ليكفِّر عن خطاياه في أنه لم يحب زوجته أو أطفاله قطُّ، وأنه لن يترك الماء حتى يتطهر. وفي النهاية، اضطرَّت الشرطة إلى سحبه من النهر وحجزه في مستشفى للأمراض النفسية.

في الحالتين، وفي الحالات الأخرى الموصوفة في مواضع أخرى، حافظ نظام الذات الزائفة على سلامة العقل، أي المظهر الخارجي واللبس والسلوك، الحركي واللفظي (كل ما يمكن ملاحظته)، بينما لم تنخرط «الذات» في عالمها الخاص وانخرطت أكثر في العالم كما تراه الذات. أنا متأكدٌ تمامًا من أن عددًا كبيرًا من «حالات شفاء» الذهان تتمثَّل في الحقيقة في أن المريض قرَّر، لسببٍ أو لآخر، **أن يلعب دور العاقل** مرة أخرى.

ليس من غير المألوف بالنسبة إلى المرضى مموهي الشخصية، سواء كانوا مرضى فصام أم لا، أن يتحدثوا عن قتلهم لأنفسهم وأيضًا عن فقدهم لأنفسهم أو سرقتها منهم.

وتُسمَّى هذه العبارات هذاءات عادة، ولكن إذا كانت هذاءات، فهي هذاءات تحتوي على حقيقة وجودية، ويجب فهمها على أنها تصريحات صحيحة حرفيًا في نطاق معرفة الفرد الذي يقدمها.

قد يكون واضحًا تمامًا لمريض الفصام الذي يقول إنه انتحر، أنه لم يقطع حلقه أو يلقِ بنفسه في قناة، وقد يتوقع أن يكون هذا واضحًا بالقدر نفسه بالنسبة إلى من يخاطبه، وإلا اعتُبِر ذلك الشخص أحمق. في الواقع، إنه يدلي بتصريحاتٍ كثيرة حول هذا الأمر، وقد يكون الهدف منها صراحة أن تكون فخاخًا لمن يعتبرهم أغبياء وقطيعًا لا يفهمون. بالنسبة إلى مثل هذا المريض، من المحتمل أن تكون محاولة قتل نفسه، عن طريق قطع حنجرته، **استنباطًا غير منطقي** *non sequitur* تمامًا، حيث قد تبدو العلاقة بين نفسه وحلقه ضعيفة ويبدو كلٌّ منهما بعيدًا عن الآخر، بعيدًا بما يكفي بحيث لا يكون لما يحدث لأحدهما تأثيرٌ يُذكَر على الآخر. أي أن ذاته غير مجسدة فعليًا. ربما يُنظر إلى الذات على أنها خالدة أو مصنوعة من مادة غير جسدية خالدة تقريبًا. قد يسميها «جوهر الحياة» أو «روحه»، أو حتى يُطلق عليها اسمًا خاصًا، ويشعر أنه يمكن أن تُسرَق منه. كانت هذه إحدى الأفكار الأكثر أهمية

في ذهان شريبر[1] (١٩٥٥) الشهير.

قد نتناول هذه المادة الذهانية الصعبة إلى حدٍّ ما بمقارنة الخوف من فقدان «الذات» بقلقٍ عصابي مألوف قد يكمن وراء شكوى من العنة. في العنة، قد يجد المرء الفانتازيا الكامنة التالية. يخاف الفرد من فقدان وظيفته التناسلية، فيحافظ على استخدامها (يتجنَّب الإخصاء)، بأن يبدو مخصيًّا. يتصدى لخطر الإخصاء بالتظاهر لنفسه بأنه مخصي، ويتصرف كما لو كان مخصيًّا. استخدم الذهاني آلية دفاعية بالمبادئ نفسها، ولكنها لا تنفذ من منظور الوظائف العقابية بل من منظور الذات. إنه آخر الدفاعات المحتملة وأكثرها عبثية بشكلٍ ينطوي على مفارقة، ولا يمكن للدفاعات السحرية تجاوزه. وهو، بشكلٍ أو آخر، الدفاع الأساسي، بقدر ما تمكنت من رؤيته، في كل أشكال الذهان. ويمكن التعبير عنه في أكثر صوره عمومية على النحو التالي: **إنكار الوجود، باعتباره وسيلة للحفاظ على الوجود**. يشعر مريض الفصام أنه قتل «نفسه»، ويبدو أن هذا لتجنُّب التعرُّض للقتل. مات ليبقى حيًّا.

قد تتلاقى مجموعة متنوعة من العوامل تدفع الفرد بطريقة أو بأخرى للتخلص من نفسه. حتى جهود الذات لتصبح قابلة للانفصال وغير متماهية مع الجسد، وقد فشلت عمليًّا كل فكرة أو شعور أو فعل أو تصور في تحريرها من التعرض للقلق لفترة طويلة؛ لم تُترك لها أي

---

(١) شريبر Schreber (١٨٤٢-١٩١١): كان قاضيًا ألمانيًّا عانى من ثلاث نوبات عقلية متميزة، وصف النوبة الثانية، مشيرًا أيضًا إشارة موجزة إلى النوبة الأولى في كتابه **مذكرات مرضي العصبي** (*Memoirs of My Nervous Illness*). أصبحت المذكرات كتابًا مؤثرًا في تاريخ الطب النفسي والتحليل النفسي بفضل تفسير فرويد لها (المترجم).

مزايا محتملة للانفصال، وتخضع لكل القلق الذي سعت في الأصل إلى تجنُّبه.

تظهر الحالتان التاليتان المحنة الكبيرة لفردٍ تورَّط في مثل هذه القضايا.

رأيتُ روز وهي في الثالثة والعشرين، وحين رأيتها قالت إنها تخشى أن تُجن، وكانت قد جُنَّتْ في الواقع. قالت إن الذكريات المروعة عادت إليها، ولا تستطيع نسيانها مهما حاولت. لكنها اكتشفت الحل الآن. قالت إنها تحاول الآن أن تنسى هذه الذكريات بنسيان نفسها. وقد حاولت القيام بذلك بالنظر طول الوقت إلى أشخاص آخرين بحيث لا تلاحظ نفسها أبدًا. في البداية كان شعورها بأنها تتدهور وبأنها لا تريد المقاومة يسبِّب لها قدرًا من الارتياح. لكن شيئًا ما فيها قاوم. كانت مكتئبة واستمرت في محاولة القيام بهذه الأشياء، لكنها أصبحت تتطلَّب جهدًا أكبر وأعظم، حتى بدا أن بداية كل فكرة أو حركة بفعلٍ إرادي متعمد أمرٌ سيِّئ. لكنها بدأت بعد ذلك تشعر أنها لم يعُد لديها قوة إرادة- استهلكتها كلها. وبالإضافة إلى ذلك، كانت تخشى فعل أي شيء بنفسها أو تحمُّل المسئولية الشخصية عن أي شيء تفعله. في الوقت نفسه، قالت إنها تشعر بالضيق من الشعور بأن حياتها لم تعُد حياتها لتعيشها: «كياني في كل يدٍ إلا يدي». لم تكن لها حياة خاصة بها، كانت موجودة فقط. لم يكن لها غرضٌ، لا «وجهة»، لا هدف لنفسها. شعرت، كما قالت: «أنها سقطت على الفور» مؤخرًا وتريد الخروج من «مأزقها» الآن، قبل فوات الأوان. ومع ذلك كانت تشعر بأن

الأمور سارت أبعد مما ينبغي لها، وأنها «لا تستطيع التحكُّم في نفسها» لفترة أطول، وأن «نفسها» كانت «تبتعد» عنها. لو كانت تحب الناس لكانت أفضل.

بعد أيامٍ قليلة كانت تعبر عن نفسها بالطريقة التالية:

> هذه الأفكار تتكرر، إنني أعبر الحدود. تراجعت ذاتي الحقيقية – كان من المعتاد أن تكون في حلقي بالضبط، لكنها هبطت أكثر. أفقد نفسي. تغطس تدريجيًّا. أريد أن أخبرك بأشياء، لكنني خائفة. رأسي مليء بالأفكار والمخاوف والكراهية والغيرة. رأسي لا يستطيع السيطرة على هذه الأمور. لا أستطيع السيطرة عليها. إنني خلف جسر أنفي – أعني أن وعيي هناك. إنهم يفتحون رأسي، أوه، إنها أعراض فصامية، أليس كذلك؟ لا أعرف ما إذا كانت تنتابني هذه الأفكار أم لا. أعتقد أنني اختلقتها آخر مرة لأخضع للعلاج. أوه، لو استطعْتُ أن أحب وأعشق مرة أخرى بدلًا من هذه الكراهية. أود أن أحب الناس، لكنني أريد أن أكرههم. إنني أقتل نفسي أيضًا.

واصلت الحديث في الأسابيع التالية بهذه الطريقة. تحوَّل الانطباع بأنها كانت تقتل نفسها إلى قناعة بأنها قد قتلت «نفسها». وأكدت بشكلٍ شبه دائم أنها قتلتْ نفسها بالفعل أو أنها فقدت نفسها أحيانًا. وكانت تشعر، حين لا تشعر أنها «ضائعة» أو «ميتة» تمامًا، أنها «غريبة» عن نفسها، ولم تعد تشعر أنها هي والأشياء الأخرى واقعية بالقدر نفسه. كانت تدرك بألمٍ فقدانَ بعض القدرة على الشعور بالأشياء بطريقة واقعية، والقدرة على التفكير بأفكار واقعية. وكانت تدرك بالقدر نفسه

أن الآخرين يتمتعون بهذه القدرة، ووصفت التقنيات المختلفة التي تمارسها الآن عن قصدٍ أو عن غير قصدٍ لكي «تستعيد الواقع». على سبيل المثال، إذا قال لها أيُّ شخصٍ أيَّ شيء تصنفه بأنه «واقعي»، تقول لنفسها: «سأفكر في ذلك»، وتستمر في تكرار الكلمة أو العبارة لنفسها على أمل أن ينتقل إليها قدرٌ من واقعية التعبير. شعرت أن الأطباء حقيقيون لذا حاولت إبقاء اسم الطبيب في ذهنها طول الوقت. حاولت إحداث تأثيرات في أناس آخرين مثل قول شيء تأمل أن يحرجهم. ووجدت الأمر سهلًا تمامًا لأنها شعرت بأنها منفصلة تمامًا عن المشاعر التي قد يحملونها. إذا رأت، وهي تنظر إلى الشخص الآخر، علامات إحراج، قالت لنفسها إنها يجب أن تكون حقيقية لأنها يمكن أن تحدث تأثيرًا حقيقيًّا في شخص آخر حقيقي. بمجرد أن «يتبادر إلى ذهنها» أي شخصٍ، تقول لنفسها إنها ذلك الشخص. شعرت الآن أنه بقدر ما يمكن أن تحب شخصًا، تكون مثل ذلك الشخص. تتبَّعت الناس، وقلَّدت مشيتهم، ونسخت عباراتهم، وقلَّدت إيماءاتهم. بطريقة كثيرًا ما أثارت غضب الآخرين، ووافقت تمامًا على كل ما يقال. ومع ذلك، ظلَّت تقول طول الوقت إنها تبتعد تدريجيًّا عن ذاتها الحقيقية. تمنَّت أن تستطيع «الوصول» إلى أناس آخرين والسماح لأناس لآخرين بالوصول إليها، لكن الأمر ازداد استحالة. وحين يزداد شعورها باليأس، يقل شعورها بالذعر، لكنها مع ذلك ظلَّت مسكونة برهبة مستمرة. صارت عاجزة عن معرفة الغرض من أي شيء. رأت الناس يفعلون أشياء، لكنها قالت إنها «لا تستطيع إدراكهم، إنه شعورٌ فارغٌ». كانت مقتنعة بأن الجميع أكثر

ذكاء منها. إنهم جميعًا يقومون بأشياء ذكية لكنها لا تستطيع تحديد ما يفترض أن تحققه أبسط أفعالهم. كانت بلا مستقبلٍ. توقَّف الزمن عن الحركة. لا تستطيع النظر إلى الأمام، وكانت كل ذكرياتها أشياء كثيفة وصلبة، تتصارع في رأسها. كان من الواضح أنها تفقد أي إحساسٍ بالتمييز بين الأحداث في الزمن مثل الماضي أو الحاضر أو المستقبل، الزمن «المعيش»، بمفهوم مينكوفسكي.

كانت الحقيقة الأكثر أهمية أنها كلما ازداد شعورها بأنها لا تستطيع الوصول إلى أشخاص آخرين، وأن الآخرين لا يستطيعون الوصول إليها، وازداد شعورها بأنها في عالمها الخاص - «لا يمكنهم الدخول ولا يمكنني الخروج» - غزت عالمها الخاص والمغلق أخطارٌ ذهانية من الخارج، أي صار أكثر «عمومية» بمعنى ما. صارت أكثر تشكُّكًا في الآخرين وبدأت في إخفاء الأشياء في خزانتها؛ كانت تظن أن شخصًا ما يسرق أشياءها. وكانت تفحص حقيبة يدها وممتلكاتها الشخصية بشكلٍ متكررٍ للتأكد من عدم سرقة أي شيء منها. وقد وجدت هذه المفارقة، زيادة الانسحاب وفي نفس الوقت زيادة الهشاشة، أوضح تعبير عنها في التصريح بأنها تقتل نفسها من جهة، وخوفها من فقد نفسها أو السرقة من جهة أخرى. كان تراودها أفكار الآخرين فقط ولا يمكن أن تفكر إلا فيما قاله الآخرون.

كانت تتحدث الآن عن أنها اثنتان: «إنني اثنتان». «إنها أنا، وأنا هي طول الوقت». سمعتْ صوتًا يأمرها بقتل أمها وكانت تعرف أنه صوت «واحدة من الاثنتين اللتين تمثلهما». «من هنا [تشير إلى صدغيها] إنها

مجرد قطعة قطن. لا أفكار تخصني. أنا مرتبكة للغاية، أنا، أنا، أنا طول الوقت، أنا وأنا، أنا ونفسي، حين أقول نفسي، أعلم أن هناك شيئًا خاطئًا، شيئًا ما يحدث لي، لا أعرفه».

وهكذا، وعلى الرغم من الخوف من فقدان ذاتها، فإن كل جهودها «لاستعادة الواقع» قد تضمنت ألَّا تكون على طبيعتها، واستمر استخدام محاولات الهروب من نفسها أو قتل نفسها كدفاعات أساسية، وصارت مكثَّفة في الواقع.

لا يُدفَع الفرد إلى «قتل نفسه» تحت ضغط القلق وحده، بل نتيجة إحساسه بالذنب، وهو لدى هؤلاء الأشخاص نوع جذري وساحق جدًّا، ويبدو أنه لا يترك مجالًا للمناورة.

وقد رأينا بالفعل كيف دُفِع بيتر، تحت ضغط الذنب، ليكون لا شيء، ليكون بلا جسدٍ. وهنا مثالٌ آخر، لمريضة كانت تتبع مسارًا مشابهًا إلى حدٍّ ما، ولحسن الحظ أوقفت على ما يبدو، أو، قد يكون من الأصوب القول، إنها أوقفت الأمر قبل الانقياد إلى حالة ذهانية تكون العودة منها صعبة.

كانت ماري، في العشرين، طالبة جامعية لم تجتز امتحاناتها لمدة عام. كانت تصل للامتحان قبل الموعد بعدة أيام أو بعد فوات الأوان. وإذا حضرت في الوقت المحدد أو في أثناء إجراء الاختبار، كان الأمر يبدو مصادفة إلى حدٍّ ما، ولم تكن تهتم بالإجابة عن الأسئلة. في عامها الثاني، توقفت عن حضور الدروس تمامًا، وبدا أنها لا تفعل أي شيء على الإطلاق. كان من الصعب للغاية معرفة أي حقائق ملموسة عن

حياة هذه الفتاة. أتت إليَّ باقتراحٍ من شخصٍ آخر. وحددت لها موعدًا منتظمًا لزيارتي مرتين في الأسبوع. لم يكن من الممكن قطُّ التكهن بموعد وصولها. إن القول بأنها غير دقيقة قد يكون عدم تقديرٍ إلى حدٍّ كبيرٍ. كان الوقت النهائي للمقابلة نقطة زمنية محددة بشكل غامض فقط لتوجيهها. كانت تحضـر صباح السبت لإجراء مقابلة بعد ظهر الخميس أو تتصل بالتليفون في الساعة ٥ مساءً لتقول إنها استيقظت للتوِّ وبالتالي لا يمكنها حضور مقابلتها في الساعة الرابعة، ولكن هل يكون من المناسب أن تأتي في غضون ساعة تقريبًا. فاتتها خمس جلسات متتالية من دون إخطارٍ، ووصلت في الموعد المحدد للسادسة من دون تعليق، واستمرت من حيث توقفت قبل التوقف.

كانت مخلوقة شاحبة ونحيفة وهزيلة، بشعرٍ مفرودٍ من دون تمشيط. كانت ترتدي ملابس غامضة وغريبة بشكلٍ غير محدد. كانت مراوغة بشكل غير عادي ومتحفظة بشأن نفسها. بقدر ما استطعت أن أجمع، لم يعرف أحدٌ من الأشخاص الكثيرين الذين تواصلتْ معهم بشكلٍ عابرٍ كيف قضت حياتها. كان بيتها خارج لندن، لكنها كانت تقيم منذ الالتحاق بالجامعة في غرف مستأجرة في المدينة وتغيِّر الغرف كثيرًا. لم يعرف والداها قطُّ مكان إقامتها؛ كانت تزورهما في لحظاتٍ غريبة، وتمضـي اليوم كأنها من المعارف العرضيين للأسرة. كانت في الواقع الابنة الوحيدة. كانت تسير بسـرعة وصمتٍ على أطراف أصابعها تقريبًا. كان حديثها رقيقًا ومتميزًا، لكنه فاترٌ، وبعيدٌ، ساكنٌ ومتكلفٌ، ويفتقر إلى أي حيوية. فضَّلت ألَّا تتحدث عن نفسها بل عن مواضيع

مثل السياسة والاقتصاد. وعاملتني بلا مبالاة واضحة. وأوضحت لي عادة أنها لا تعتبرني أكثر من مجرد واحد آخر من معارفها العرضيين العديدين، توقفت عنده لتتحدث معه. لكنها قالت لي ذات مرة إنني شخصٌ رائعٌ لكن طبيعتي شريرة وقذرة. لم تخن أي رغبة أو توقع في الحصول على أي شيء مني ولم يتضح تمامًا قطُّ ما بدا أنها استمدته مني. وحين شعرتْ أنها غير مبالية بي لم تفهم سبب قطعها لمسافات طويلة لرؤيتي.

كان يمكن للمرء أن يعتقد أن النظرة المستقبلية في حالة هذه الفتاة تبعث على اليأس إلى حدٍّ كبيرٍ، لأنها قدَّمت بشكلٍ لا لبس فيه الصورة النفسية الإكلينيكية للخرف المبكر[1] أو الفصام البسيط.

ومع ذلك، وصلت في يومٍ من الأيام في الموعد المحدد متغيرة تغيرًا مدهشًا. لأول مرة في خبرتي معها ترتدي ملابسها على الأقل باهتمامٍ عادي ومن دون هذا المظهر الغريب المثير للقلق في أسلوب اللبس الذي يميز هذا النوع من الأشخاص ويصعب تحديده. في حركاتها وتعبيراتها حياة بشكلٍ لا لبس فيه. بدأت الجلسة قائلة إنها أدركت أنها قطعت أي علاقة حقيقية لها مع الآخرين، وأنها خائفة من الطريقة التي تعيش بها، لكنها، بصرف النظر عن ذلك، تعرف في أعماقها أنها ليست الطريقة الصحيحة للحياة. من الواضح أن شيئًا حاسمًا للغاية حدث. وفقًا لها، ولا أرى أي سبب للشك في هذا، كان ذلك نتيجة الذهاب لمشاهدة

(١) للخرف المبكر dementia praecox: اسم قديم أطلقه الطبيب النفسي الألماني إميل كريبلين على الفصام (المترجم).

فيلم. كانت تذهب كل يوم لمدة أسبوع لمشاهدة فيلم **الطريق**.[1] وهو فيلم إيطالي عن رجل وفتاة. الرجل رجل قوي متجول يسافر من مدينة إلى أخرى لأداء عرضه، ويتمثل من انفجار بتمدد الصدر لسلسلة مثبتة حول الرجل. أخذ فتاة من والديها لتعمل مساعدة له. إنه قوي وقاسٍ وقذرٌ وشريرٌ. يعامل الفتاة كأنها قذارة. يغتصبها ويضـربها ويتخلى عنها كما شاء. يبدو أنه بلا ضميرٍ ولا يعرف الندم: لا يعترف بأنها شخصٌ، ولا يظهر أدنى امتنان حين تحاول إرضاءه أو حين تخلص له. أوضح لها أنه لا يوجد شيء يمكنها أن تفعله له، ولا يمكن لشخصٍ آخر أن يفعله بشكلٍ أفضل. لا ترى فائدة لحياتها منذ تسلمها هذا الرجل، وهي بالنسبة إليه بلا قيمة وبلا فائدة. وعلى الرغم من عدم وجود مرارة مستمرة في حزنها وأساها، فإنها في حالة يأسٍ لأنها عديمة الأهمية. تصادق لاعب سيرك يسير على حبلٍ مشدودٍ. وتندب له عدم أهميتها. ومع ذلك، حين يطلب منها هذا البهلوان أن تأتي معه، ترفض قائلة إنها إذا فعلت ذلك، فلن يكون لدى الرجل من يتحمَّله. يلتقط البهلوان حصاة ويقول إنه لا يصدق أنها عديمة الفائدة **بشكلٍ مطلقٍ** لأنه ينبغي لها أن تكون على الأقل بقيمة الحصاة، والحصاة موجودة على الأقل. بالإضافة إلى ذلك، يشير إلى أنه ينبغي لها أن تكون مفيدة أيضًا مع أنها لا تعرفها، لأنها تعلم أنها الشخص الوحيد الذي لا يبتعد عنه هذا الرجل. الكثير من سحر الفيلم مستمدٌّ من هذه الفتاة. لا تعرف أي مكرٍ أو خداعٍ. يظهر أي ظل شعور ببساطة وفورًا في كل تصـرفاتها. حين يقتل الرجلُ القويُّ البهلوانَ أمام

---

(١) **الطريق** *La Strada*: فيلم درامي إيطالي من عام ١٩٥٤ أخرجه فيليني (المترجم).

عينيها، ويتهرب من العدالة بدلًا من الاعتراف بجريمته، تصمت إلا أنها تئن: «الأحمق مريض، الأحمق مريض». لا تفعل شيئًا ولا تأكل شيئًا. وحين يبدو أنها لا تتحسَّن، يتخلى الرجل عنها وهي نائمة بجانب طريق شتوي، ويتركها للصدفة.

تماهت هذه المريضة مع الفتاة، وفي الوقت نفسه رأت أنها على عكس هذه الفتاة. جسَّد الرجل القوي بشراسته ولا مبالاته وقسوته تصورها لوالدها وإلى حدٍّ ما تصورها لي. لكن أكثر ما أدهشها أن تلك الفتاة، على الرغم من اليأس الشديد والتعاسة، فإنها لم تنفصل عن الحياة، بصرف النظر عن فظاعتها. لم تصبح قط عاملًا من عوامل تدمير نفسها. ولم تحاول تشويه بساطتها. لم تكن الفتاة متدينة بالضبط؛ بدا أنها لم يكن تؤمن، أكثر من ماري، بكيان يمكن أن تسميه الرب؛ وعلى الرغم من أن إيمانها كان بلا اسم، فإن أسلوب حياتها كان تأكيدًا للحياة بطريقة ما وليس نفيًا لها. رأت ماري في هذا كل تناقضًا مرعبًا مع طريقتها في قضاء حياتها. لأنها شعرت أنها تحرم نفسها من الوصول إلى نضارة الخلق وتسامحه. حتى الفتاة في الفيلم يمكن أن تضحك على مهرجي السيرك، وتشعر بالإثارة مع الرجل الذي يسير على حبلٍ مشدودٍ، وتجد ارتياحًا في أغنية، ولا تقل قيمتها عن حصاة.

من وجهة النظر «الموضوعية» للطب النفسي الإكلينيكي، يمكن القول إنه حدث توقف في عملية التدهور التدريجي للفصام ربما على أساسٍ عضوي. من وجهة النظر الوجودية، يمكن القول إنها توقفت عن محاولة قتل نفسها. رأت أن حياتها أصبحت محاولة منهجية لتدمِّر

هويتها وتصبح نكرة. تجنَّبت كلَّ ما يمكن من خلاله تعريفها بوضوحٍ بأنها شخصٌ حقيقي يشارك في مهام محددة مع الآخرين. حاولت أن تتصـرف بحيث لا يكون لأفعالها أي تبعاتٍ حقيقية، وبالتالي لا يمكن أن تكون أفعالًا حقيقية على الإطلاق. وبدلًا من استخدام الفعل كما نفعل عادةً لتحقيق غايات حقيقية وبالتالي نُعرَّف بشكلٍ أكبر في أفعالنا ومن خلالها كأشخاص محددين يمثلوننا، حاولت اختزال نفسها إلى نقطة التلاشي بعدم فعل أي شيء محدد أبدًا، وعدم التواجد في أي مكان معين في أي وقتٍ معين، أو مع أي شخصٍ محددٍ، تفعل شيئًا محددًا. كانت دائمًا، مثلنا جميعًا، في مكانٍ محددٍ في وقتٍ محددٍ، لكنها حاولت تجنُّب الآثار المترتبة على ذلك بأن تكون مجردة دائمًا، وأن تكون «في مكانٍ آخر إذا جاز التعبير». تصـرَّفت كأن من الممكن ألَّا «تضع نفسها في» أفعالها. واشتمل الجهد المبذول للنأي بنفسها عن أفعالها على كل ما فعلته، وما بدا أنها تفعله، والصداقات التي بدا أنها تشكِّلها، وكل إيماءاتها وتعبيراتها. بهذه الوسائل سعت إلى أن تصبح نكرة. وبالتالي كان موقفها مماثلًا تمامًا لموقف بيتر. شعر هذان المريضان بشكلٍ متزايدٍ أن كونهما شخصين كان مجرد ادعاء، وأن المسار الصادق الوحيد الذي يمكن أن يتَّخذاه أن يصيرا نكرة، لأن هذا هو كل ما يمكن أن يشعرا أنه يمثِّلهما «حقًّا». ما قدَّمته عملية الإبادة الذاتية هذه للإكلينيكي الملاحظ لم يكن سوى عملية العته في الفصام البسيط.

كما كان مع بيتر وماري، لا يشعر المرضى في المرحلة التي نصفها الآن بالذنب كثيرًا فيما يتعلَّق بأفكارٍ أو أفعالٍ معينة استمتعوا بها أو

لم يستمتعوا، نفَّذوها أو لم ينفِّذوها. إذا شعروا بالذنب فيما يتعلق بهذا، يحل محله شعورٌ أكثر شمولًا بأنهم سيئون أو بلا قيمة، شعور يهاجم حقهم في أن **يكونوا** بأي شكلٍ. يشعر الفرد بالذنب لجرأته على أن يكون، ويشعر بالذنب بشكلٍ مضاعفٍ لأنه ليس كائنًا، لأنه خوفه يمنعه من أن يكون، ويحاول قتل نفسه إن لم يكن بيولوجيًا فوجوديًّا. إن شعوره بالذنب هو العامل المُلح في منعه من المشاركة الفعالة في الحياة، وفي إبقاء «الذات» في عزلة، ودفعها إلى مزيدٍ من الانسحاب. وبناءً على ذلك، يظل الشعور بالذنب مرتبطًا بهذه المناورة ذاتها، التي كان الشعور بالذنب هو الدافع إليها في الأصل.

حلم جيمس، على سبيل المثال، الحلم التالي:

«كانت ذرتان تتحركان في اتجاه موازٍ ثم حوَّلتا مسارهما للخلف لتستقرَّا متجاورتين تقريبًا». حدَّد دورتيهما بيديه. استيقظ من هذا الحلم فجأة، في ذعرٍ، وشعورٍ بشؤمٍ فظيعٍ.

كانت قراءته لهذا الحلم أن الذرتين نفسُه: وبدل الاستمرار في «مسارهما الطبيعي»، «انقلبتا على نفسيهما». وبذلك، «انتهكتا الترتيب الطبيعي للأشياء». كشفت المزيد من تداعيات هذا الحلم أن جيمس شعر بذنبٍ عميقٍ في علاقته «المتراجعة» مع نفسه، لأنها كانت:

١- شكلًا من أشكال الاستمناء، أي إهدار قدرته على الإبداع والإنتاجية.

٢- انسحابًا من العلاقات الفعلية بين الجنسين، وإقامة علاقة بين جزأين من كيانه، يكون أحدهما ذكرًا والآخر أنثى.

٣- انسحابًا من العلاقات مع الرجال الآخرين، وإقامة علاقة جنسية مثلية حصرية مع نفسه.

وهذا يوضح المشكلة الصعبة الأخرى، وهي أن علاقة الذات بنفسها في هذه الظروف علاقة آثمة، لأنها، كما أشرنا سابقًا، تتجمع في نفسها، أو تسعى إلى نمط علاقة «في النظام الطبيعي لأشياء» لا يمكن أن توجد إلا بين شخصين اثنين، ولا يمكن أن تعيشها الذات في الواقع بشكلٍ حصري.

يشكِّل انشطار الذات («ذاتان» في حالة روز، والحالة التي تمثِّلها ذرتا جيمس) أساسًا لنوعٍ من الهلوسة. يبدو أن إحدى شظايا الذات بشكلٍ عام تحتفظ بإحساس «الأنا». وبالتالي قد يُطلق على «الذات» الأخرى «هي». لكن «هي» تبقى «أنا». تقول روز، «**إنها أنا**، وأنا **هي** طول الوقت». قالت مريضة فصام: «**إنها أنا** أبحث **عني**». (يبدو أن الذات في حالات الفصام المزمن تنقسم إلى عدة بؤر لكل منها إحساسٌ معينٌ بالأنا، وكلٌّ منها تشعر بأن الشظايا الأخرى ليست أنا جزئيًّا). يميل «التفكير» الذي ينتمي للذات «الأخرى» إلى بعض خصائص الإدراك حيث إن الذات التي تشعر به لا تدركه باعتباره نتاجًا لخيالها ولا باعتباره ينتمي إليها. أي أن **الذات الأخرى** أساس الهلوسة. وتبدو الهلوسة كأنها إدراك شظية من الذات «الأخرى» المتحللة ببقايا (من بؤرة الذات) تحتفظ بإحساس ما تبقى من الأنا، ويتضح هذا أكثر في مرضى الذهان الجلي. بالإضافة إلى ذلك، توفر علاقة الذات بالذات الإعداد الداخلي للهجمات العنيفة بين الأشباح المتحاربة في الداخل، التي يبدو أنها تمتلك نوعًا من

الواقع الشبحي (انظر الفصل التالي). ومثل هذه الهجمات من الأشباح الداخلية هي، في الواقع، التي تجبر الفرد على القول بأنه قُتل، أو أنه قتل «نفسه». ومع ذلك، في النهاية، حتى عند التحدث بلغة «الفصام»، من المستحيل في الواقع قتل «الذات» الشبحية الداخلية على الرغم من أنه من الممكن قطع حلق المرء. لا يمكن قتل الشبح. ما قد يحدث هو أن مكان «الذات» الشبحية الداخلية ووظيفتها «يسيطر» عليه بشكلٍ كاملٍ تقريبًا وكلاء نمطيون يبدو كأنهم يسيطرون تمامًا ويهيمنون على جميع جوانب كيان الفرد. وبالتالي تكون المهمة في العلاج إقامة اتصال مع «الذات» الأصلية للفرد، التي يجب أن نعتقد أنها لا تزال احتمالية، إن لم تكن فعلية، ولا يزال من الممكن إعادتها إلى الحياة العملية. لكن هذه قصة لا يمكن أن نتناولها ونجعلها قابلة للتفسير إلا بعد دراسة العمليات والظواهر الذهانية بإسهابٍ، ونقوم الآن بهذه المهمة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

* * *

١٠

الذات والذات الزائفة في حالة فصامٍ

نحاول الآن دعم روايتنا بأوصافٍ مختارة لحالة فصامٍ قدَّمتها مريضة أمريكية في مرحلة النقاهة. ذكر هذه الحالة مؤلفان أمريكيان، هيوارد وتايلور (١٩٥٦)، وكانت تخضع للعلاج النفسي مع أحدهما. يقولان:

> جوان امرأة بيضاء في السادسة والعشرين، ظهر مرضها أول مرة في بدايات عام ١٩٤٧ وهي في السابعة عشرة. في العامين التاليين، خضعت للعلاج النفسي في أربعة مستشفيات خاصة، مع أربع وثلاثين صدمة كهربائية وستين جلسة أنسولين. تعرَّضت لخمسين غيبوبة. أظهرت «تحسنًا طفيفًا، إن وجد» وأحيلت أخيرًا إلى أحد الكاتبين (م. ل. هيوارد)، حيث بدت في حالة ميؤوس منها.
>
> في بداية علاج الكاتب لها، كانت جوان باردة ومنطوية ومنعزلة ومرتابة. وكانت الهلوسات البصرية والسمعية نشطة. لم تكن تشارك في أي أنشطة بالمستشفى، وكثيرًا ما تدخل في حالة ذهولٍ لدرجة أنه كان من الصعب استخراج أي استجابة منها. إذا تعرَّضت لضغطٍ بشأن الحاجة إلى العلاج، تقاوم بعنادٍ أو تغضب معلنة عن رغبتها في تركها بمفردها. حاولت الانتحار ثلاث

مرات، بتقطيع جسمها بكأسٍ مكسورة أو تناول جرعة زائدة من المهدئ، وأحيانًا تصبح عدوانية بشدة لدرجة يتحتم معها وضعها في عنبر المهتاجين.

اخترت الاعتماد على هذه المادة لعدة أسبابٍ. يبدو أن رواية هذه الفتاة لذهانها توفر تأكيدًا صارخًا للآراء المعروضة هنا. ويتعزز التأكيد بحقيقة أن الكتاب الحالي كتب في الأصل قبل نشر المادة الأمريكية. يكتب المؤلفان الأمريكيان بمصطلحات التحليل النفسي الكلاسيكية، الأنا والأنا العليا والهو، التي أشعر أنها تضع قيودًا غير ضرورية على فهم المرء للمادة: يبدو أن رواية المريضة نفسها هي إلى حدٍّ كبيرٍ طريقتها الخاصة في النظر إلى نفسها، ولم يفرضها عليها أو يقترحها المؤلفان. في هذه الحالة، يتم تجنب المغالطة المحتملة في تقديم مادة من إحدى مرضاي بأن المريضة كانت مجرد تكرار ببغاوي لنظرياتي الخاصة بشأنها.

أخيرًا، قدمت هذه المريضة رواية واضحة وثاقبة عن نفسها بلغة «عادية» مثل أي لغة في حدود معرفتي. آمل أن تُظهر أنه، إذا نظرنا إلى السلوك الاستثنائي لمريض الذهان من وجهة نظره الخاصة، يصبح الكثير منه مفهومًا.

أولًا: أود أن ألخص بإيجازٍ الآراء التي قدَّمتها حتى الآن.

إن حدوث انفصال الذات عن الجسد مؤلمٌ، ويجعل من يعاني منه يتوق بشدة إلى شخصٍ ما للمساعدة في إصلاح الأمر، لكنه يُستخدَم أيضًا وسيلةً أساسية للدفاع. وهذا في الواقع يحدد المعضلة الأساسية.

تتمنى الذات أن تقترن بالجسد وتتجسد فيه، لكنها تخشى باستمرارٍ أن تستقر في الجسد خوفًا من التعرض لهجماتٍ ومخاطر لا تستطيع الهروب منها. ومع ذلك، تجد الذات أنه على الرغم من أنها خارج الجسد، فإنها لا تستطيع الحفاظ على المزايا التي قد تأمل فيها في هذا الموقف. وقد ذكرنا بالفعل ما يحدث:

١ - توجهها توجه شفهي بدائي، معني بمعضلة الحفاظ على حيويتها، بينما تخشى «استيعاب» أي شيء. تجف من العطش وتقفر.

٢ - تشحن بالكراهية لكل ما هو **هناك**. ربما تبدو الطريقة الوحيدة لتدمير ما هو موجود وعدم تدميره تدمير نفسها.

٣ - قد تتم محاولة قتل النفس عمدًا؛ إنها دفاعية من ناحية («لا يمكن قتلي إذا كنت ميتًا»). ومن ناحية محاولة لتأييد الشعور الساحق بالذنب الذي يخمد الفرد (لا يوجد إحساس بالحق في الحياة).

٤ . تنقسم الذات «الداخلية» نفسها وتفقد هويتها وسلامتها. إنها تفقد واقعها والمدخل المباشر إلى الواقع خارج نفسها.

٥ - (أ) يصبح مكان أمان النفس سجنًا، ويصبح ملاذها المحتمل جحيمًا.

(ب) تكف عن التمتع بأمان زنزانة انفرادية. تصبح مقاطعتها الخاصة غرفة تعذيب. تُضطهد الذات الداخلية داخل هذه الغرفة بتقسيم الأجزاء الملموسة بنفسها أو بواسطة الأشباح الخاصة بها التي أصبحت لا يمكن السيطرة عليها.

يتضح قدرٌ معينٌ من الكلام والأفعال غير المفهومة لمريض الفصام إذا تذكرنا أن هناك انقسامًا أساسيًّا في انتقاله من الحالة شبه الفصامية. يشق كيان الفرد شقين، منتجًا ذاتًا غير مجسدة وجسدًا هو ما تتطلع إليه الذات، معتبرة إياه أحيانًا كأنه مجرد شيء آخر في العالم. ينفصل الجسم كله والكثير من العمليات «العقلية» عن الذات، التي قد تستمر في العمل في منطقة محدودة للغاية (الفانتازيا والمراقبة)، أو قد يبدو أنها تتوقف عن العمل تمامًا (أي ماتت أو قتلت أو سرقت). هذا الرواية، بالطبع، تخطيطية إلى حدٍّ بعيدٍ وبها إخفاقات أي تبسيط أولي مفرط.

أوضحنا بالفعل بعض الطرق التي قد يفشل فيها هذا الانقسام في دعم الخبرة العاقلة، ويمكن أن يصبح نواة الذهان.

في الكثير من مرضى الفصام، يبقى انقسام الجسد الانقسام الأساسي. ومع ذلك، حين يفشل «المركز» في الصمود، لا يمكن لخبرة الذات أو خبرة الجسد الاحتفاظ بالهوية أو التكامل أو التماسك أو الحيوية، ويسقط الفرد في حالة وصفت نتيجتها النهائية التي اقترحناها بأنها حالة «عدم فوضوي».[1] وهذا التفكك الكامل، في شكله النهائي، حالة افتراضية ليس لها نظائر لفظية. ومع ذلك، نشعر بأن لدينا ما يبرر

---

(١) أفضل وصف لأي حالة من هذا القبيل تمكنت من العثور عليه في الأدب موجود في الكتب النبوية Prophetic Books لوليم بليك. في الأوصاف اليونانية للجحيم، وفي دانتي، تبقى الظلال أو الأشباح، على الرغم من أنها بعيدة عن الحياة، محتفظة بتماسكها الداخلي. في بليك، الأمر ليس كذلك. تخضع شخصيات كتبه للانقسام في ذاتها. تتطلب هذه الكتب دراسة مطولة، ليس لتوضيح سيكوباثولوجيا بليك، ولكن لنتعلم منه، بطريقة ما، ما عرفه بأكثر الطرق حميمية، وبقي عاقلًا.

افتراض مثل هذه الحالة الافتراضية. ربما لا تتوافق في أكثر أشكالها تطرفًا مع الحياة. من المفترض أن يكون مريض الفصام الهيبيفريني التخشبي المزمن المتدهور الشخص الذي استمرت فيه هذه العملية إلى أقصى درجة ولا يزال من الممكن أن يحيا بيولوجيًّا.

أحد أكبر العوائق التي تحول دون التعرُّف على مريض الفصام هو عدم فهمه تمامًا: الغرابة والشذوذ والغموض في كل ما يمكن أن ندركه. وهناك أسبابٌ كثيرة وراء ذلك. حتى حين يسعى المريض ليحكي لنا، بطريقة واضحة ومباشرة بقدر ما يعرف، عن طبيعة مخاوفه وخبراته، وكيف تتشكَّل بهذا الشكل بطريقة مختلفة اختلافًا جذريًّا عن خبرتنا، يكون تتبُّع محتوى الكلام صعبًا بالضرورة. وبالإضافة إلى ذلك، تكون العناصر الشكلية للكلام مرتبة في حد ذاتها بطرقٍ غير معتادة، ويبدو أن هذه الخصائص الشكلية، على الأقل إلى حدٍّ ما، انعكاس في لغة الترتيب البديل لخبرته، مع وجود انشقاقاتٍ فيها حيث نعتبر التماسك أمرًا مُسلَّمًا به، واختلاط (تشوش) العناصر التي نستبعدها معًا.

ومع ذلك، من المؤكد عمليًّا أن هذه الصعوبات غير القابلة للاختزال ستزداد كثيرًا، على الأقل في أول اللقاءات مع المريض، باستخدامه المتعمد للغموض والتعقيد ستارة من الدخان للاختباء وراءها. وهذا يخلق موقفًا ينطوي على مفارقة حيث يتلاعب مريض الفصام غالبًا بمسألة أنه ذهاني، أو يتظاهر بأنه كذلك. وكما قلنا، يستخدم مرضى الفصام، في الواقع، التظاهر والمراوغة بشكلٍ كبيرٍ. ومن المحتمل أن تخدم الأسباب الكامنة وراء ذلك، في أي حالة، أكثر

من غرضٍ في وقتٍ واحدٍ. وأكثر هذه الأغراض وضوحًا أنها تحافظ على سرية الذات وخصوصيتها ضد التطفل (الابتلاع، الانهيار). تشعر الذات، بتعبير أحد المرضى، أنها محطَّمة ومشوَّهة حتى في محادثة عادية. وعلى الرغم من توق مريض الفصام إلى أن يكون محبوبًا «لذاته الحقيقية»، فإنه يفزع من الحب. إن أي شكلٍ من أشكال التفاهم يهدد نظامه الدفاعي برمته. سلوكه الخارجي نظامٌ دفاعي مشابه للفتحات التي لا تعد في ممرات الأنفاق التي قد يتخيل المرء أنها تأخذه إلى القلعة الداخلية، لكنها لا تؤدي إلى أي مكانٍ أو إلى مكان آخر. لن يكشف مريض الفصام نفسه للفحص والكشف العرضي لأي عابر سبيل. تكون الذات آمنة إذا لم تكن معروفة. آمنة من الملاحظات النافذة؛ آمنة من أن يخنقها الحب أو يبتلعها، بقدر ما تكون آمنة من الدمار نتيجة الكراهية. إذا تنكر مريض الفصام، يمكن التعامل مع جسده والتلاعب به ومداعبته وملاطفته وضربه وإعطاؤه حقنة أو ما شابه، لكنه «هو»، يبقى متفرجًا مصونًا.

وتتوق الذات في الوقت نفسه إلى أن تُفهم؛ تتوق، في الواقع، إلى شخصٍ كاملٍ قد يقبل كيانه كله، وعند القيام بذلك: «تدعه يتحقق» ببساطة. لكن من الضروري توخي الحذر والحرص بشدة. «لا تحاول»، بتعبير بينسوانجر، «الاقتراب قبل الأوان، بسرعة هائلة».

تقول جوان: «نحن مرضى الفصام نقول ونفعل أشياء كثيرة غير مهمة، ثم نمزج أشياء مهمة بها لنرى إذا كان الطبيب يهتم بما يكفي ليراها ويشعر بها».

شرح لي مريض فصام نوعًا مختلفًا من أسلوب مزج أشياء مهمة «بأشياء كثيرة غير مهمة»، وقدَّم مثالًا حقيقيًا. في أول لقاء مع طبيبٍ نفسـي شعر بازدراءٍ شديدٍ له، وكان يفزع من كشف هذا الازدراء إذا أجريت له عملية بضع (أي استئصال) للفص الأمامي ومع ذلك كان يرغب بشدة في التعبير عنه. وفي المقابلة، شعر أنه يتظاهر أكثر، وأنه تافه، لأنه يتظاهر بواجهة زائفة تمامًا، ويبدو أن الطبيب النفسـي يأخذ هذا المظهر الزائف على محمل الجد. كان يعتقد أن حماقة الطبيب النفسي تزداد باستمرارٍ. سأله الطبيب النفسـي إن كان يسمع صوتًا، فكر المريض حين سمع صوت الطبيب النفسي قائلًا لنفسه: يا له من سؤالٍ غبي. وبالتالي أجاب بنعم، وعلى السؤال التالي بأن الصوت صوت ذكر. وكان السؤال التالي «ماذا يقول لك الصوت؟» وكان ردّه: «أنت أحمق» بلعب دور المجنون، عرف كيف يقول رأيه في الطبيب النفسـي ويفلت من العقاب.

إن قدرًا كبيرًا من الفصام كلامٌ غير منطقي ببساطة، ومتهورٌ، ومماطلة مطولة لتضليل الأشخاص الخطرين، لخلق شعور بالملل والتفاهة في الآخرين. غالبًا ما يخدع مريض الفصام نفسه والطبيب. يلعب دور الجنون ليتجنَّب بأي ثمنٍ إمكانية تحميله المسئولية عن فكرة أو نيَّة واحدة متماسكة.

تقدم جوان أمثلة أخرى:

> يضحك المرضى ويتخذون أوضاعًا معينة حين يدركون
> حقيقة الطبيب الذي يقول إنه سيساعد لكنه في الحقيقة لن يساعد

أو لا يستطيع. اتخاذ وضع معين، بالنسبة إلى فتاة، مغرٍ، لكنه أيضًا محاولة لصرف انتباه الطبيب عن جميع وظائفها الجنسية. يحاول المرضى تشتيت انتباهه. يحاولون إرضاء الطبيب لكنهم يربكونه أيضًا حتى لا يبدأ أي شيء مهم. حين تجد أشخاصًا يساعدونك حقًّا، فلن تحتاج إلى تشتيت انتباههم. يمكنك التصرف بطريقة طبيعية. أستطيع أن أشعر إذا كان الطبيب لا يريد المساعدة، ولكنه يستطيع المساعدة أيضًا وسوف يساعد.

يقدم هذا تأكيدًا صارخًا لتصريح يونج بأن مريض الفصام لا يبقى مريض فصام حين يقابل شخصًا يشعر أنه يفهمه. وحين يحدث هذا، تتبخر ببساطة معظم السلوكيات الغريبة التي تعتبر «علامات» على «المرض».

جعلني لقاؤك أشعر كأنني مسافرٌ تائه في أرضٍ لا يتحدث فيها أحدٌ لغته. والأسوأ من ذلك كله، أن المسافر لا يعرف حتى إلى أين يذهب. يشعر بالضياع التام والعجز والوحدة. ثم يلتقي فجأة بغريبٍ يمكنه التحدث بالإنجليزية. حتى لو كان الغريب لا يعرف الطريق الصحيح، من الأفضل بكثيرٍ أن تكون قادرًا على مشاركة المشكلة مع شخصٍ ما، حتى يفهم مدى سوء ما تشعر به. لن تشعر باليأس إذا لم تكن وحيدًا، بطريقة ما يمنحك الأمر الحياة والاستعداد للقتال مرة أخرى.

الجنون يشبه كابوسًا تحاول فيه طلب المساعدة ولا يخرج صوت. أو إذا كنت تستطيع النداء، فلا أحد يسمع أو يفهم. لا يمكنك الاستيقاظ من الكابوس ما لم يسمعك أحدٌ ويساعدك على الاستيقاظ.

العامل الأساسي في تعافي المريض، وإتاحة الفرصة لالتئام الأجزاء والتحامها، هو حب الطبيب، وهو الحب الذي يعترف بكيان المريض كله، ويقبله بلا قيودٍ.

لكن هذا العامل ببساطة هو العتبة وليس نهاية العلاقة مع الطبيب. يظل المريض مريض ذهان من منظور الانقسامات المستمرة في كيانه، على الرغم من أن «العلامات» الخارجية الأكثر قدرة على الاقتحام قد لا تكون واضحة بقدرٍ كبيرٍ.

لاحظنا أن الذات فقدت الاتصال بالواقع، ولا يمكن أن تشعر أنها حقيقية أو حيَّة.

تقدم جوان أمثلة على بعض الطرق التي يحاول بها مريض الفصام استحضار تأكيدات على أنه حقيقي من إدراكه أنه يُرَى، وبالتالي على الأقل يوجد هناك. ولا يستطيع مريض الفصام تعزيز هذا الاقتناع من مصادره الداخلية.

> يركل المرضى ويصرخون ويتشاجرون حين لا يكونون متأكدين من أن الطبيب يستطيع رؤيتهم. إنه شعورٌ مرعبٌ للغاية أن تدرك أن الطبيب لا يستطيع أن يراك على حقيقتك، ولا يستطيع أن يفهم ما تشعر به وأنه يستغرق في أفكاره. كنت أبدأ في الشعور بأنني غير مرئية أو ربما لست موجودة على الإطلاق. اضطررتُ إلى إثارة ضجة لمعرفة إذا كان الطبيب سيستجيب لي، وليس فقط لأفكاره الخاصة.

خلال رواية هذه المريضة، تناقضت بشكلٍ متكررٍ ذاتها الحقيقية مع ذات مطيعة زائفة. وقد عبَّرت عن الانقسام بين «ذاتها الحقيقية» وجسدتها بجلاءٍ في الفقرة التالية:

لو أنك خدعتني بالفعل لدمر الخداع كل شيء. لأقنعني بأنك لم تهتم إلا بالمتعة بجسدي الحيواني، وأنك لا تهتم حقًّا بالجزء الذي يمثِّل شخصًا. كان هذا يعني أنك كنت تستخدمني بصفتي امرأة ولم أكن امرأة في الحقيقة وكنت في حاجة إلى قدرٍ كبيرٍ من المساعدة لأكبر وأصير امرأة. كان هذا يعني أنك لا تستطيع أن ترى إلا جسدي، ولا تستطيع أن ترى ذاتي الحقيقية التي لا تزال فتاة صغيرة. كان من الممكن أن تكون ذاتي الحقيقية على السقف تشاهدك وأنت تفعل ما تفعله بجسدي. قد تبدو راضيًا عن السماح لذاتي الحقيقية بالموت. حين تطعم فتاة، تجعلها تشعر بأن جسدها ونفسها موضع رغبة. وهذا يساعدها على الالتئام. وحين تضاجعها تشعر أن جسدها منفصلٌ وميتٌ؛ يمكن للناس أن يضاجعوا الجثث، لكنهم لا يطعمونها أبدًا.

يجب أن تكون ذاتها الحقيقية نقطة الانطلاق لتطوير حالة حقيقية متكاملة. ومع ذلك، لم يكن الوصول إلى هذه «الذات الحقيقية» سهلًا، بسبب الأخطار التي تهددها:

كانت المقابلات معك هي المكان الوحيد الذي شعرتُ فيه بالأمان وأنني على طبيعتي، لإخراج كل مشاعري ومعرفتها على حقيقتها من دون خوفٍ من أن تنزعج وتتركني. كنتُ بحاجة إلى أن تكون صخرة هائلة يمكنني دفعها ودفعها، ولا تتدحرج أبدًا

وتتركني. كان أمانًا بالنسبة إليَّ أن أكون مشاكسة معك. مع أي شخص آخر كنت أحاول تغيير نفسي لإرضائه.

لكن أيضًا لأنها تبدو مشحونة جدًّا بالكراهية والإمكانيات المدمرة لدرجة أنه لا يمكن لأي شيء أن ينجو منها:

لا بُدَّ أن تأتي الكراهية أولًا. يكره المريضُ الطبيبَ لأنه يفتح الجرح مرة أخرى ويضطر إلى السماح له بلمسه مرة أخرى. والمريض على يقينٍ من أن ذلك لن يؤدي إلا إلى المزيد من الأذى، وهو يريد حقًّا أن يموت ويختبئ في مكانٍ حيث لا يمكن لأي شيء أن يلمسه ويسحبه للخلف.

يجب على الطبيب أن يهتم بما يكفي للبقاء وراء المريض حتى يكرهه. لن تتأذَّى إذا كرهْتَ، بقدر ما تتأذى إذا أحببْتَ، لكن يبقى من الممكن أن تحيا مرة أخرى، ولا تكون باردًا وميتًا، ويعني الناس لك شيئًا مرة أخرى.

يجب على الطبيب أن يبقى وراء المريض حتى يكرهه، فهذه هي الطريقة الوحيدة للبدء. لكن يجب ألَّا يشعر المريض بالذنب أبدًا بسبب الكراهية. يجب أن يتأكد الطبيب من أن له الحق في اقتحام المرض، تمامًا كما يعلم أحد الوالدين أن له الحق في دخول غرفة طفلٍ، بغض النظر عمَّا يشعر به الطفل حيال ذلك. يجب أن يعرف الطبيب أنه يفعل الشيء الصحيح.

المريض يخشى مشاكله بشكلٍ رهيبٍ، لأنها دمَّرته، وبالتالي يشعر بالذنب بشكلٍ رهيبٍ لأنه سمح للطبيب بالتورط في المشاكل. المريض مقتنع بأن الطبيب يتحطم أيضًا. وليس من العدل أن يطلب الطبيب الإذن بالدخول؛ يجب أن يشق الطبيب

طريقه، وبالتالي لا ينبغي للمريض أن يشعر بالذنب. يمكن للمريض أن يشعر بأنه بذل كل جهده لحماية الطبيب. يجب أن يقول الطبيب بأسلوبه، «أنا قادمٌ بصرف النظر عمَّا تشعر به».

مرة أخرى:

تكمن مشكلة مرضى الفصام في أنهم لا يثقون بأحدٍ. لا يمكن أن يضعوا بيضهم في سلة واحدة. ويضطر الطبيب عادة إلى القتال للدخول بغض النظر عن مقدار ما يعترض عليه المريض. رائع أن تُضـرَب أو تُقتَل لأن لا أحد يفعل ذلك بك أبدًا ما لم يكن يهتم بك حقًّا ويمكن أن ينزعج بشدة. يَقتُل شخصًا لأنه يريد حقًّا إحياء الآخر، وليس لمجرد أن يرديه ميتًا.

المحبة مستحيلة في البداية لأنها تحولك إلى طفلٍ صغيرٍ عاجزٍ. لا يشعر المريض بالأمان للقيام بذلك حتى يتأكد تمامًا من أن الطبيب يفهم المطلوب ويوفره.

وهكذا فإن الخوف من قبول أي شيء أو أي شخص يمتد إلى الطيب والشـرير. يدمر الشريرُ الذاتَ، وتدمر الذاتُ الطيبَ.

وبالتالي تكون الذات في الوقت نفسه فارغة تتضور جوعًا. ويكون التوجه الكامل للذات من منظور الشوق للأكل، وأيضًا تدمير الطعام أو التدمير بواسطته.

يعيش بعض الناس والقيء على شفاههم. يمكنك الشعور بجوعهم الرهيب لكنهم يتحدونك ولن تستطيع إطعامهم.

إنه لأمر جهنمي أن ترى الثدي يُقدم بسـرورٍ وحبٍّ، وتعرف أن الاقتراب منه يجعلك تكرهه كما كرهْتَ أمك. يجعلك تشعر

بالذنب بشكل جهنمي لأنه ينبغي لك، قبل أن تستطيع أن تحب، أن تقدر أيضًا على الشعور بالكراهية. وعلى الطبيب أن يظهر أنه يمكن أن يشعر بالكراهية لكنه يمكن أن يفهمها ولا يتأذَّى منها. إنه لأمر مروع للغاية إذا تأذَّى الطبيب من المرض.

جحيم أن ترغب في الحليب كثيرًا ويمزقك الشعور بالذنب لكراهية الثدي في الوقت نفسه. وبالتالي، على مريض الفصام أن يحاول القيام بثلاثة أشياء في وقتٍ واحدٍ. يحاول الوصول إلى الثدي ويحاول أيضًا أن يموت. ويحاول جزءٌ ثالثٌ منه ألا يموت.

وفيما بعد نعود إلى القضايا المطروحة في الجملة الأخيرة. حاليًّا يجب أن نستمر مع جهود الذات لتجنُّب دخول أي شيء إليها إذا كانت ستُدمَّر (الذات و/ أو الشيء).

إن الذات، كما قلنا، تحاول أن تكون خارج كل شيء. كل الوجود **هناك**، ولا شيء **هنا**.

يصل هذا أخيرًا إلى وضعٍ يكون فيه كل ما يمثِّل حقيقة المريض يبدو أنه «ليس أنا». إنه يرفض كل ما هو حقيقته، باعتباره مجرد مرآة لواقعٍ غريبٍ. هذا الرفض التام لوجوده يجعله «هو»، أي ذاته «الحقيقية»، مجرد نقطة تلاشي. لا يمكن أن يكون «هو» حقيقيًّا، جوهريًّا؛ لا يمكن أن تكون له هوية حقيقية، أو شخصية حقيقية. كل ما هو حقيقته يأتي بالتعريف، ويقع، بالتالي، في نطاق نظام الذات الزائفة. وقد يتجاوز الأمر الأفعال والكلمات، ويمتد إلى التفكير والأفكار وحتى الذكريات والفانتازيا. نظام الذات الزائفة أرضٌ خصبة لمخاوف البارانويا، لأنه يتبع ذلك بسهولة أن نظام الذات الزائفة، الذي امتد ليشمل كلَّ شيء وتنكرت

له الذات باعتباره مجرد مرآة لواقعٍ غريبٍ (كائن، شيء، ميكانيكي، روبوت، ميت)، يمكن اعتباره وجودًا غريبًا أو شخصًا يكون الفرد في حوزته. تنصلت الذات من المشاركة فيه، وأصبح نظام الذات الزائفة أرضًا يحتلها العدو، ويبدو أن وكالة أجنبية معادية ومدمرة تسيطر عليها وتوجهها. وبالنسبة إلى الذات، توجد في فراغٍ. لكن هذا الفراغ يُغلَّف، وإن كان في البداية، ربما في لحظاتٍ، بطريقة حميدة ووقائية نسبيًّا.

> شعرتُ كأنني في زجاجة. شعرتُ أن كل شيء بالخارج ولا يمكن أن يلمسني.

لكنه يتحوَّل إلى كابوس. تصبح جدران الزجاجة سجنًا يبعد الذات عن كل شيء، بينما، على العكس من ذلك، تُضطهد الذات كما لم يحدث من قبل حتى داخل حدود سجنها. وبالتالي تكون النتيجة النهائية رهيبة على الأقل بقدر رهبة الحالة التي كانت في الأصل دفاعًا ضدها. وبالتالي:

> لا لطف ولا رقة ولا دفء
> في هذا الكهف العميق.
> تحسَّست يدي جوانب الكهف الحجرية بطولها،
> وفي كل شقٍّ، عمق أسود فقط.
> أحيانًا، لا يوجد هواء تقريبًا.
> فألهث من أجل هواء جديد،
> مع أنني، طول الوقت، أتنفس
> الهواء نفسه في هذا الكهف.

لا فتحة، لا مخرج، أنا مسجون.

لكنني لسْتُ وحيدًا.

وهكذا يحتشد ضدي عددٌ كبيرٌ من الناس.

يتدفَّق عمودٌ ضيقٌ من الضوء إلى هذا الكهف،

من مساحة دقيقة بين صخرتين.

الجو مظلمٌ هنا.

إنه رطبٌ والهواء عطن جدًّا.

الناس هنا كبار وضخام.

يرددون صدى أنفسهم حين يتحدثون.

وظلالهم على جدران الكهف

تتبعهم وهم يتحركون.

لا أعرف كيف أبدو،

ولا كيف يبدو هؤلاء الناس.

هؤلاء الناس يدوسونني،

أحيانًا، بالخطأ نتيجة الإهمال،

على ما أعتقد. آمل.

إنهم أناس ثقال.

يزداد الأمر إحكامًا وتشديدًا هنا.

إنني خائفٌ.

إذا خرجت من هنا، فقد يكون الأمر فظيعًا.

في الخارج المزيد من هؤلاء الناس.

سوف يسحقونني تمامًا،

لأنهم أثقل ممن هم

هنا، على ما أعتقد.

وسرعان ما يدوسونني الناس هنا

(بالخطأ على ما أعتقد) وغالبًا،

لن يتبقَّى مني الكثير،

وسأكون جزءًا من جدران الكهف.

ثم أكون صدى وظلًّا،

مع أناس آخرين، هنا،

أصبحوا أصداء وظلالًا.

لم أعد قويًّا جدًّا.

إنني خائفٌ.

لا شيء لي، بعيدًا عن هنا.

الناس أضخم وسوف يدفعونني

للعودة إلى هذا الكهف.

الناس في الخارج لا يريدونني.

الناس هنا لا يريدونني.

لا أبالي.

جدران الكهف خشنة وصلبة للغاية.

قريبًا، أكون جزءًا منها، صلبًا

وثابتًا أيضًا. صلبًا جدًّا.

*

أتألم لأن الناس يدوسونني
هنا، لكنهم لا يقصدون أن يدوسوني،
وهو مجرد خطأ نتيجة الإهمال،
على ما أعتقد، آمل.
قد يكون من الممتع أن أرى كيف أبدو.
لكن لا يمكنني أبدًا الدخول في عمود الضوء
الذي يتسلَّل في هذا الكهف، لأن الناس
يسدُّون طريقي بالخطأ، على ما أعتقد، آمل.
لكن قد يكون الأمر مروعًا أن أرى كيف أبدو.
لأنني، حينها، قد أرى أنني مثل
الناس الآخرين، هنا.
لست مثلهم.
آمل.

*

جرِّدْ هذا الكهف!
جرِّده من كل حوافه القاسية
التي تصيب أطرافي بالكدمات وتقطعها
صب الضوء فيه.
نظفه!
انزع منه الصدى والظلال!
أغرقْ همهمة الناس!

فجِّر الكهف! بالديناميت!

*

لا، لم أفعل – لم أفعل بعد.

انتظر حتى أقف في هذه الزاوية.

الآن، أمشي.

هناك دست عليك أنت،

وأنت وأنت وأنت!!

هل تشعر بكعبي؟

هل تعاني من ركلة؟

ها! !الآن، أدوس عليك!

هل تبكي؟

حسنًا.

أصبحت الزجاجة كهفًا، بحوافٍ قاسية تسبِّب لها كدماتٍ وتقطع أطرافها، تسكنها أصداء وظلال تضطهد المريضة، وتضطهدها بدورها.

ومع ذلك، تبقى خائفة من التخلي عن الكهف حتى مع ما يصاحبه من أهوالٍ، لأنها لا تستطيع الاحتفاظ ببعض الإحساس بالهوية إلا في الكهف.

هناك! لا كهف هناك.

تلاشى.

لكن متى ذهبْتُ؟

لا أستطيع أن أجد نفسي.
أين أنا؟
ضعتُ.
وكل ما أعرفه أنني أشعر بالبرد،
برد أشد مما شعرت به وأنا في الكهف.
برد قارس، قارس جدًّا.
والناس - ساروا فوقي،
كأنني لم أكن هناك، بينهم -
بالخطأ، على ما أعتقد. آمل.
نعم، أريد الكهف،
هناك، أعرف مكاني.
أستطيع أن أتلمس طريقي، في الظلام،
وأشعر بجدران الكهف.
والناس، هناك، يعرفون أنني هناك،
ويدوسون عليَّ بالخطأ -
على ما أعتقد، آمل.
لكن في الخارج - أين أنا؟

في النهاية، ربما لا يصح أبدًا أن نقول إن «الذات» فُقدت تمامًا أو دُمرت، حتى في أكثر حالات «الفصام الهيبيفريني تدميرًا»، باستخدام مصطلح هـ. س. سوليفان، الفظيع بشكلٍ مناسبٍ. لا يزال هناك «أنا» لا يمكن أن تجدني. لم تتوقف «الأنا» عن الوجود، لكنها بلا معنى،

ومتحررة من الجسد، وتفتقر إلى صفة الواقعية، وبلا هوية، وبلا «أنا» تتماشى معها. قد يبدو أن هناك تناقضًا في المصطلحات بالقول إن «أنا» تفتقر إلى الهوية لكنها تبدو كذلك. مريض الفصام إما أنه لا يعرف من هو أو ما هو وإما يصبح شيئًا أو شخصًا آخر غير نفسه. وعلى أي حال، من دون مثل هذه المزقة الأخيرة أو بقايا الذات، يكون علاج «الأنا» من أي نوعٍ مستحيلًا. يبدو أنه لا يوجد سببٌ كافٍ للاعتقاد بعدم وجود مثل هذه المزقة الأخيرة في أي مريضٍ يستطيع الكلام، أو يستطيع على الأقل تنفيذ بعض الحركات المتكاملة.

ويمكن أن نرى أيضًا، في حالة جوان، أنَّ هويتها كانت أكثر ما ترغب في الحفاظ عليه، ومع ذلك شعرت أنها لا تستطيع، أو لا ينبغي لها أن تفعل ذلك، أو لا تجرؤ على أن تكون نفسها بصفتها شخصًا مجسدًا. كان الإحساس بالذنب نتيجة مشاكل مغازلتها بشكلٍ مميزٍ، وعدم اندماجها، وطبيعة نظام ذاتها الزائفة، وقدرتها غير الآمنة على تمييز كيانها عن الآخرين، مترابطة ارتباطًا وثيقًا.

> يجب أن يكون كلُّ شخصٍ قادرًا على إعادة النظر في ذاكرته والتأكد من وجود أم تحبه، تحب كل ما فيه حتى بوله وبرازه. يجب أن يكون على يقين من أن أمه أحبَّته فقط كما هو، ليس لما يمكن أن يفعله، وإلا شعر أنه ليس له الحق في الوجود؛ شعر أنه ما كان ينبغي له أن يولد أبدًا.
>
> وبغض النظر عمَّا يحدث لهذا الشخص في الحياة، وبغض النظر عن مدى تعرُّضه للأذى، يمكنه دائمًا الرجوع إلى هذا والشعور بأنه محبوبٌ. يستطيع أن يحب نفسه ولا يمكن أن

ينكسـر. إذا لم يستطع الرجوع لهذا، يمكن أن ينكسر.

لا يمكن أن تنكسـر إلا إذا كنت بالفعل ممزَّقًا. طالما أن ذات طفولتي لم تُحَب قطٌّ، كنتُ ممزقة. من خلال حبك لي وأنا طفلٌ، جعلْتِني كاملًا.

مرة أخرى:

ظللتُ أطلب منك أن تضـربني لأنني كنت متأكدة من أنك لن تحب مؤخرتي أبدًا، ولكن إذا تمكَّنت من التغلب عليها، فسوف تَقْبلها على الأقل بطريقة ما. ثم يمكنني قبولها وجعلها جزءًا مني. لن أضطر إلى القتال لقطعها.

منحها جنونها امتيازًا معينًا لم يكن غير مقبولٍ تمامًا:

كان من الصعب عليَّ تمامًا التوقف عن أن أكون مريضة فصام. كنت أعرف أنني لا أريد أن أصبح سميث (اسم عائلتها)، لأنني لم أكن حينها سوى حفيدة البروفيسور سميث العجوز. لم أكن متأكدة من أنني يمكن أن أشعر كما لو كنت ابنتك، ولم أكن متأكدة من نفسـي. الشـيء الوحيد الذي كنت متأكدة منه هو أن أكون «متخشبة وبارانويا ومريضة فصام». رأيتُ ذلك مكتوبًا على ملفي. كان له معنى على الأقل ومنحني هوية وشخصية. [ما الذي دفعك إلى التغيير؟] حين تأكدت من أنك ستسمح لي بأن أشعر بأنني مثل ابنتك وأنك ستهتم بي بحبٍّ. إذا كنتَ تحب ذاتي الحقيقية، يمكن أيضًا أن أحبها، يمكن لي أن أسمح لنفسي أن أكون ذاتي فقط ولا أحتاج إلى لقبٍ.

عدتُ مؤخرًا لأرى المستشفى، وللحظة كان يمكن لي أن أفقد نفسـي في الشعور بالماضي. فيها يمكن أن أترك وحدي.

كان العالم يسير في الخارج، لكن في داخلي عالمًا كاملًا، لا أحد يستطيع الوصول إليه وإزعاجه. للحظة شعرتُ بشوقٍ هائلٍ للعودة، كانت المستشفى آمنة وهادئة. لكنني أدركتُ بعد ذلك أنني أستطيع الاستمتاع بالحب والمرح في العالم الحقيقي وبدأتُ أكرهها. كرهت الجدران الأربعة والشعور بأنني محبوسة، كرهت ذكرى أنني لم أرضَ بالفانتازيا حقًّا.

لم تكن قادرة على أن تحصل من مواردها على حق الاكتفاء الذاتي في أن تكون نفسها، وتكون مستقلة.

لم تكن قادرة على أن تحصل على استقلالية حقيقية لأنها لم تستطع أن تكون أمام والديها إلا شيئًا مطيعًا.

لم يحاول أطبائي إلا أن يجعلوني «فتاة طيبة»، وأن يصلحوا الأمور بيني وبين والديَّ. حاولوا أن يجعلوني أنسجم مع والديَّ، وكان هذا متعذرًا. لم يروا أنني أتوق لآباء جدد وحياة جديدة. لا يبدو أن أي طبيب أخذني على محمل الجد، ليرى مدى مرضي وطبيعة التغيير الكبير الذي أحتاج إليه في الحياة. لا يبدو أن أحدًا أدرك أنني إذا عدتُ إلى عائلتي فسوف أتدهور وأفقد نفسي. يشبه الأمر صورة لمجموعة عائلية كبيرة التقطت عن بُعدٍ، يمكن أن ترى فيها أشخاصًا لكن لا يمكن أن تتأكد من هويتهم؛ سأضيع في مجموعة.

ومع ذلك، فإن الطريقة الوحيدة التي يمكن بها أن تخلص نفسها كانت بالتسامي الفارغ، إلى «عالم» الأشباح. حتى حين بدأت «تتصرف على طبيعتها»، لم تجرؤ في البداية على فعل ذلك إلا بانعكاسٍ كاملٍ لواقع الطبيب. ومع ذلك استطاعت أن تفعل ذلك، لأنه على الرغم من

أن واقعه (رغباته لها) لا يزال واقع الآخر، فإنها لم تكن غريبة عنها: كانت متطابقة مع رغبتها الحقيقية في أن تكون على طبيعتها.

> لم أوجد إلا لأنك أردتَ ذلك، ويمكنني فقط أن أكون ما أردتَ أن تراه. شعرتُ بالواقعية فقط بسبب ردود الأفعال التي استطعت إنتاجها فيك. إذا خدشتك ولم تشعر، أكون ميتة حقًّا.
>
> لا يمكن أن أكون طيبة إلا إذا رأيْتَ ذلك داخلي. فقط حين نظرْتُ إلى نفسي بعينيك تمكَّنت من رؤية شيء طيب. بخلاف ذلك، لم أرَ نفسي إلا شقية مزعجة تتضور جوعًا، كرهْتُ الجميع وكرهْتُ نفسي لأنني بهذا الشكل، أردْتُ تمزيق معدتي لأنني جائعة بهذا الشكل.

وهي، في هذه المرحلة، لا تتمتع باستقلالية حقيقية. يمكن للمرء أن يرى هنا بجلاء شديدٍ كيف يقف شعور مريض الفصام بالذنب في طريق وجوده هو نفسه. إن الفعل البسيط، فعل تحقيق الاستقلالية والانفصال بالنسبة إليه فعلٌ ينتحل لنفسه شيئًا ليس ملكه حقًّا: فعل الغطرسة البروميثية. نتذكر، في الواقع، أن عقاب بروميثيوس كان بالتهام نسر لأحشائه («كنت أريد تمزيق معدتي لأنني جائعة بهذا الشكل»)، وهو مقيد في صخرة. في الواقع، في نسخة من الأسطورة، فقد بروميثيوس هويته المنفصلة جزئيًّا وانصهر مع الصخرة التي قُيد فيها. من دون محاولة تقديم تفسير متوازن للأسطورة كلها، يبدو أنه يمكن اعتبار الصخرة والنسر وجهين للأم، يقيد أحدهما المرء (الصخرة: «صدر اليأس الجرانيتي»)، ويلتهمه الآخر (النسر). النسر الملتهم والأحشاء، التي تتجدد لتُلتهم مرة أخرى، يمثِّلان معًا انقلابًا كابوسيًّا لدورة التغذية العادية.

إن الإعجاب بشخصٍ ما، بالنسبة إلى مريض بالفصام، يساوي أن تكون مثل ذلك الشخص: أن تعجب بشخصٍ يساوي أنك مثل ذلك الشخص، وبالتالي تفقد الهوية. لذلك قد يشعر المرء بأن ممارسته للكراهية وتعرضه لها يهددان بفقد الهوية بدرجة أقل مما يهدده أن يُحِبَّ ويُحَبَّ.

افترضنا أن الانشقاق الأساسي في الشخصية شبه الفصامية كان شقًّا فصل الذات عن الجسد:

الذات / (الجسد-العالم)

يشق مثل هذا القطع كيان الفرد إلى قسمين، بحيث يتفكك إحساس الأنا، ويصبح الجسم مركز نظام الذات الزائفة.

تم التمييز بين مجمل الخبرة بخط الانشقاق داخل كيان الفرد إلى الذات/ الجسد.

حين يكون هذا هو الانشقاق الأساسي أو حين يوجد مع الانشقاق الرأسي الإضافي للذات/ الجسد/ العالم، يحتل الجسد موقعًا ملتبسًا جدًّا.

يمكن النظر إلى الجزأين الأساسيين للخبرة على أنهما

هنا هناك

ويتم تمييز إضافي لهما بالطريقة العادية إلى

داخل خارج

(أنا) (لسْتُ أنا)

يفسد الانشقاق شبه الفصامي الإحساس الطبيعي للذات بنزع تجسيد الإحساس «بالأنا». وهكذا تُزرع البذرة للركض المستمر معًا، أو الاندماج، أو الارتباك عند السطح البيني بين هنا وهناك، الداخل والخارج، لأن الجسد لا يبدو «أنا» بقوة مقابل «لسْتُ أنا».

ولا يمكن البدء في حل جميع المشكلات التي ينطوي عليها الترابط/ الانفصال، بين أشخاصٍ كاملين منفصلين، بالطريقة المعتادة إلا حين يمكن تمييز الجسد عن الآخرين. لا تحتاج الذات بمثل هذا اليأس إلى أن تظل حبيسة في تساميها الدفاعي. يمكن أن يكون الشخص مثل شخص ما من دون أن يكون ذلك الشخص الآخر؛ يمكن مشاركة المشاعر من دون تشويشها أو دمجها بمشاعر الآخر. ولا يمكن أن تبدأ مثل هذه المشاركة إلا بترسيخ تمييز واضح بين هنا-أنا، وهناك-لسْتُ أنا. في هذه المرحلة، من المهم جدًّا لمريض الفصام أن يختبر التفاصيل الدقيقة التي تكمن في السطح البيني بين الداخل والخارج، وكل ما يشتمل عليه التعبير والكشف عمَّا ينتمي حقًّا إلى الذات الحقيقية، بهذه الطريقة تصبح الذات ذاتًا **مجسَّدة** تجسيدًا حقيقيًّا.

> حين بكيْتُ أول مرة، ارتكبْتَ خطأً فادحًا؛ مسحْتَ دموعي بمنديلٍ، لم تكن تعرف مدى رغبتي في الشعور بتلك الدموع وهي تنهمر على وجهي، على الأقل كان لديَّ بعض المشاعر في الخارج. لو استطعت فقط أن تلعق دموعي بلسانك، لسعدْتُ تمامًا، لكنْتَ شاركتني مشاعري.

تشير جوان عدة مرات إلى الموت والرغبة في الموت، وتقول إن

المريض «يريد حقًّا أن يموت ويختبئ في مكانٍ حيث لا يمكن لأي شيء أن يلمسه ويسحبه إلى الخلف».

وقد أشرنا إلى الرغبة في الموت، والرغبة في عدم الوجود، باعتبارهما ربما أخطر رغبة يمكن متابعتها في مريض الفصام. يتشكَّل دافعان رئيسيان في قوة واحدة تعمل في اتجاه تعزيز حالة الموت في الحياة. وهناك الذنب الأساسي نتيجة عدم الحق في الحياة في المقام الأول، وبالتالي لا يحق له إلا حياة ميتة. ثانيًا، ربما يكون هذا هو الموقف الدفاعي الأكثر تطرفًا الذي يمكن تبنيه. لم يعد المرء يخاف أن يسحقه ويبتلعه ويغمره الواقع والحيوية (سواء ظهرا في أشخاص آخرين، أو في المشاعر أو الانفعالات «الداخلية»، إلخ)، لأن المرء ميتٌ بالفعل. ولأن المرء ميت، لا يمكن أن يموت، ولا يمكن أن يُقتَل. إن المخاوف المصاحبة للقوة المطلقة الفانتازية في مريض الفصام يقوضها العيش في حالة من العجز الفانتازي.

ونظرًا لأن جوان لا يمكن أن تكون أي شيء آخر غير ما أراد والداها أن تكون، وبما أنهما أرادا لها أن تكون صبيًّا، فلا يمكن أن تكون إلا – عدمًا.

> كنتُ أحتاج إلى السيطرة عليَّ وأعرف ما تريد أنت أن أكون. وحينها أكون على يقينٍ من أنك تريدني. مع والديَّ، لم أستطع أن أكون صبيًّا، ولم يوضِّحا قطُّ ما يريدان أن أكون باستثناء ذلك، وبالتالي حاولتُ أن أموت بأن أكون متخشبة.

إنها تضع الأمر كلَّه بإيجازٍ شديدٍ في المقطع التالي:

حين كنتُ متخشبة، حاولتُ أن أكون ميتة وبلا شخصية وساكنة، اعتقدتُ أن أمي قد تحب ذلك، يمكن أن تحملني مثل دمية.

شعرتُ كأنني في زجاجة، شعرت أن كل شيء بالخارج ولا يمكن أن يلمسني.

كان عليَّ أن أموت لأتجنَّب الموت. أعلم أن هذا يبدو جنونًا ولكن ذات مرة جرح صبي مشاعري بشدة وأردتُ أن أقفز أمام مترو الأنفاق، وبدلًا من ذلك، دخلتُ في حالة تخشُّبٍ إلى حدٍّ ما حتى لا أشعر بأي شيء. (أعتقد أنه كان عليك أن تموت عاطفيًّا وإلا قتلتك مشاعرك) هذا صحيحٌ. أعتقد أنني أفضِّل أن أقتل نفسـي على أن أؤذي شخصًا آخر.

هناك، بالطبع، طرقٌ أخرى للنظر في المادة السابقة وجوانب أخرى كثيرة لها. تعمدت التركيز أساسًا على طبيعة خبرة جوان مع ذاتها «الحقيقية»، وذاتها «الزائفة»، على أمل أن أوضح أن هذه الطريقة في النظر إليها لا يبدو أنها تفرض تحريفًا على شهادة المريضة ولا تتطلَّب منَّا إنكار الجوانب غير «المتوافقة». في حالة جوان، يتطلَّب الأمر أدنى حدٍّ من إعادة البناء من جانبنا، لأنها هي نفسها تزودنا ببيانٍ واضحٍ لفينومينولوجيا ذهانها بلغة بسيطة ومباشرة. ومع ذلك، حين نتعامل مع مريض يعاني من الذهان النشط، يجب أن نخاطر بترجمة لغة المريض إلى لغتنا الخاصة، إذا لم يكن علينا أن نقدم رواية فصامية في ذاتها. وهذه مشكلتنا في الحالة التالية.

١١
شبح حديقة الأعشاب:
دراسة لحالة فصامٍ مزمنٍ

... لأن الحق أبعد من كل مواساة

مكسيم جوركي

كانت جولي، حين عرفتها، مريضة في جناحٍ بمستشفى للأمراض النفسية منذ كانت في السابعة عشرة، أي لمدة تسع سنوات. في هذه السنوات، أصبحت مريضة فصام مزمنٍ نموذجي «منطوية ويتعذَّر فهمها». كانت تهلوس، نظرًا للأوضاع، والأفعال النمطية والغريبة وغير المفهومة؛ كانت تصمت غالبًا وحين تتحدث يكون بأسوأ أشكال «الفصام» «تدهورًا». عند دخول المستشفى، شُخِّصت حالتها على أنها فصام هيبيفريني وخضعت للعلاج بالأنسولين، دون تحسُّن، ولم تُبذل أي محاولات محددة أخرى لتذكيرها بالعقل. إذا تُركت لنفسها، لا شك في أنها سوف «تتداعى» بسرعة جسديًّا بالكامل، لكن مظهرها الخارجي بقي جيدًا نتيجة الاهتمام اليومي تقريبًا من أمها، بالإضافة إلى عمل طاقم التمريض.

بسبب تفوهها وقيامها في ذلك الوقت بعدة أشياء غريبة ومثيرة للقلق إلى حدٍّ ما، أخذها أبوها لزيارة طبيب نفسي وهي في السابعة عشرة. في مقابلتها مع الطبيب النفسي، سجَّل أنه لا يوجد شيء غير عادي بشكلٍ خاص في سلوكها غير اللفظي في حد ذاته، لكن الأشياء التي قالتها كانت كافية لتأكيد تشخيص الفصام. بالمصطلحات النفسية الإكلينيكية، عانت من تموُّه الشخصية. تموُّه الواقع، التوحد، الهذاءات العدمية، هذاءات الاضطهاد والقدرة المطلقة، كانت لديها أفكار إحالة وفانتازيا عن نهاية العالم، هلوسات سمعية، فقر الوجدان، إلخ.

قالت إن المشكلة أنها لم تكن شخصًا حقيقيًّا، كانت تحاول أن تصبح شخصًا. كانت حياتها تفتقر إلى السعادة وكانت تحاول أن تجد السعادة. شعرت أنها غير واقعية وشعرت بوجود حاجزٍ غير مرئي بينها وبين الآخرين. كانت فارغة وبلا قيمة. كانت قلقة خشية أن تكون مدمِّرة تمامًا، وبدأت تعتقد أن من الأفضل ألا تلمس أي شيء حتى لا تسبِّب إتلافه. قالت الكثير عن أمها. كانت تخنقها، ولم تسمح لها بأن تعيش، ولم تكن تريدها قطُّ. ونظرًا لأن أمها كانت تحثُّها على أن يكون لها المزيد من الأصدقاء، وأن تخرج إلى الرقص، وأن ترتدي فساتين جميلة، وما إلى ذلك، فقد بدت هذه الاتهامات في ظاهر الأمر عبثية بشكلٍ واضحٍ.

ومع ذلك، كان التصريح الذهاني الأساسي الذي أدلت عن «قتل طفلة». كانت غامضة إلى حدٍّ ما بشأن التفاصيل، لكنها قالت إنها سمعت ذلك بصوت أخيها (ليس لها أخ). وتساءلت، مع ذلك، عما

إذا كان هذا الصوت ربما لم يكن صوتها. كانت الطفلة ترتدي ملابسها حين قُتلت. يمكن أن تكون الطفلة هي نفسها. لم تكن متأكدة مما إن كانت قد قتلت نفسها أم قتلتها أمها. اقترحت أن تخبر الشرطة.

الكثير مما كانت تقوله جولي وهي في السابعة عشرة مألوفٌ لنا من الصفحات السابقة. يمكن أن نرى الحقيقة الوجودية في تصريحاتها بأنها ليست شخصًا، وأنها غير واقعية، ويمكن أن نفهم ما كانت تعنيه حين قالت إنها كانت تحاول أن تصبح شخصًا، وكيف حدث أنها شعرت في الحال بأنها فارغة ومُدمَّرة بقوة. ولكن بعد هذه النقطة، يصبح التواصل معها «بالأمثال». نعتقد أن اتهاماتها لأمها تتعلق بفشلها في أن تصبح شخصًا لكنها تبدو، على السطح، جامحة إلى حدٍّ ما وغير محتملة (انظر ما يلي). ومع ذلك، حين تتحدث عن «قتل طفلة»، يُطلب من الفطرة السليمة للفرد أن تمتد إلى أبعد مما تذهب إليه، وتُترك وحيدة في عالم لن يشاركها فيه أحدٌ.

الآن، سأفحص طبيعة الذهان، الذي بدا كأنه يبدأ وهي في السابعة عشرة، وأعتقد أنه يمكن تناوله بشكلٍ أفضل بالنظر أولًا في حياتها حتى ذلك الحين.

سيرة إكلينيكية لمريضة فصام:

ليس من السهل أبدًا الحصول على رواية كافية للحياة المبكرة لمريض الفصام. كل بحث في حياة أي مريض فصام قطعة مجهدة من بحث أصلي. يمكن التأكيد بقوة على أن «الروتين» أو حتى ما يُسمَّى بالتاريخ

الموجه ديناميكيًّا الذي نحصل عليه في سياق مقابلات عديدة لا يمكن أن يعطي إلا القليل جدًّا من المعلومات الحاسمة اللازمة لتحليل وجودي. في هذه الحالة بالذات، رأيتُ الأم مرة أسبوعيًّا لعدة أشهر وأجريت مقابلة (لكل واحد في عدة مناسبات) مع أبيها وأختها التي تكبرها بثلاث سنوات وهي أختها الوحيدة وعمتها. ومع ذلك، لا يوجد في جمع الحقائق دليلٌ ضد التحيز. يؤكد سيرلز[1] (١٩٥٨)، على سبيل المثال، وأعتقد على صواب تمامًا، وجودَ مشاعر إيجابية بين مريض الفصام وأمه، وهو اكتشاف «أغفله» بشكلٍ منفردٍ معظم المراقبين الآخرين. ليس لديَّ أوهامٌ بأن الدراسة الحالية محصَّنة ضد تحيز لا أستطيع رؤيته.

الأب والأم والأخت والعمة هم العالَم الشخصي الفعَّال الذي نشأت فيه هذه المريضة. وحياة المريضة في عالمها الصغير الشخصي نواة أي سيرة ذاتية نفسية إكلينيكية. وبالتالي تكون مثل هذه السيرة الإكلينيكية محدودة النطاق فيما يتعلق بالانشغال بالذات. العوامل الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع الأكبر الذي تعتبر أسرة المريض جزءًا لا يتجزَّأ منه ليست ذات صلة مباشرة بالموضوع الذي يشغلنا. وهذا لا يعني أن مثل هذه العوامل لا تؤثر بشكلٍ عميقٍ على طبيعة الأسرة وبالتالي على المريضة. ولكن، تمامًا كما يضع عالم الخلايا، باعتباره عالم الخلايا، معرفته بالتشريح بين قوسين وهو يصف الظواهر الخلوية، وبينما في الوقت نفسه نمتلك هذه المعرفة، نضع بالتالي القضايا الاجتماعية

(١) هـ. ف. سيرلز Searles (١٩١٨-٢٠١٥): طبيب نفسي، تخصص في علاجات التحليل النفسي للفصام (المترجم).

الأكبر بين قوسين على أنها ليست ذات صلة مباشرة وفورية لفهم كيف أصبحت هذه الفتاة ذهانية. وبالتالي أعتقد أن السيرة الإكلينيكية التي أقدِّمها يمكن أن تكون لفتاة من الطبقة العاملة من زيورخ، أو فتاة من الطبقة المتوسطة من لينكولن، أو ابنة مليونير من تكساس. تظهر احتمالات إنسانية متشابهة جدًّا في العلاقات الشخصية للأشخاص الذين يختلفون في وضعهم داخل المجتمع. ومع ذلك، أصف شيئًا ما يحدث في عالمنا الغربي في القرن العشرين، وربما لا يحدث، بالمصطلحات نفسها تمامًا، في أي مكان آخر. لا أعرف السمات الأساسية لهذا العالم التي تسمح لمثل هذه الاحتمالات بالظهور. لكننا، بوصفنا أطباء، يجب ألا ننسى أن ما يحدث وراء آفاقنا التي فرضناها على أنفسنا قد يحدث فرقًا كبيرًا في الأنماط التي يجب صنعها داخل حدود عالمنا الشخصي الإكلينيكي الصغير.

شعرتُ بضرورة أن أذكر هذا باختصارٍ هنا لأنني أشعر أن الطب النفسي الإكلينيكي في الغرب يميل إلى ما يُسمِّيه صديقٌ لي مريض بالفصام «ارتباكًا اجتماعيًّا»، بينما يبدو الطب النفسي السوفيتي مرتبكًا في مجال العلاقات الشخصية. على الرغم من أن السيرة الإكلينيكية يجب، كما أعتقد، أن تركز على مجال العلاقات الشخصية، فيجب أن يكون هذا بطريقة لا تشكِّل نظامًا مغلقًا يستبعد من حيث المبدأ ارتباط ما يمكن للمرء أن يضعه مؤقتًا بين قوسين للراحة.

الآن، على الرغم من أن كل شخصٍ من مختلف الأشخاص الذين قابلتهم كانت له وجهة نظر خاصة حول حياة جولي، فإنهم اتفقوا

جميعًا على رؤية حياتها في ثلاث حالات أو مراحل أساسية، وعلى وجه التحديد، كان هناك وقت حين:

١- كانت المريضة طفلة **طيبة** وطبيعية وبصحة جيدة، حتى بدأت تدريجيًا

٢- تكون **سيئة**، وتفعل أو تقول أشياء تسبِّب كربًا هائلًا، وكانت عمومًا «تخضع» للشـر أو السوء، حتى

٣- تجاوز هذا كلَّ الحدود المسموح بها بحيث لا يمكن اعتبارها إلا **مجنونة** تمامًا.

بمجرد أن «عرف» الوالدان أنها مجنونة، ألقيا باللوم على نفسيهما لعدم إدراكهما الأمر بشكلٍ أسرع، قالت أمها:

> بدأتُ أكره الكلام الفظيع الذي تقوله لي، لكن بعد ذلك رأيتُ أنها لا حيلة لها في الأمر... كانت فتاة جيدة. ثم بدأت تقول مثل هذا الكلام الفظيع... لو عرفنا. هل أخطأنا حين اعتقدنا أنها مسؤولة عمَّا تقوله؟ كنت أعرف أنها لا يمكن حقًّا أن تقصد الكلام الفظيع الذي تقوله لي. بطريقة ما، ألوم نفسـي، لكنني سعيدة، بطريقة ما، لأنه كان مرضًا رغم كل شيء، لكن لو لم أنتظر وقتًا طويلًا قبل أن أذهب بها إلى الطبيب.

لم نكن نعرف ما يُقصَد تحديدًا بالطيب والسيِّئ والمجنون، لكننا نعرف الكثير الآن. بداية، كما يتذكر الوالدان الآن، بالطبع، كانت جولي تتصـرف بطريقة تظهر لوالديها أن كل شيء على ما يرام؛ كانت طيبة وبصحة جيدة وطبيعية. ثم تغير سلوكها وتصـرفت وفقًا لما اتفق عليه

كل الآخرين المهمين في عالمها بالإجماع على أنه «سيئ» حتى صارت «مجنونة» بعد فترة وجيزة.

لا يخبرنا هذا بأي شيء عمَّا فعلته الطفلة لتكون طيبة أو سيئة أو مجنونة في نظر والديها، ولكنه يزودنا بالمعلومات المهمة التي تفيد بأن النمط الأصلي لأفعالها كان متوافقًا تمامًا مع ما اعتبره والداها طيبًا وجديرًا بالثناء. ثم، كانت لبعض الوقت «سيئة»، أي تفعل ما لا يرغب والداها في رؤيتها تفعله أو تنطق بما لا يرغبان في سماعه منها أو ما يعتقدان أنه موجودٌ فيها، قد «صرَّحت به بشكلٍ غير متوقع». لا يمكننا حاليًّا أن نعرف لماذا كان الأمر كذلك، لكن قدرتها على قول مثل هذه الأشياء وفعلها كان أمرًا لا يصدقه والداها تقريبًا. كل ما ظهر لم يكن متوقعًا تمامًا. حاولا في البداية تجاهل الأمر، لكن مع تزايد الإزعاج، سعيا بعنفٍ إلى رفضه، لذلك، ساد شعورٌ هائلٌ بالارتياح، حين قالت إن أمها قتلت طفلة، بدل أن تقول إن أمها لا تسمح لها بالعيش. بعدها يمكن غفران كل شيء. «كانت جولي المسكينة مريضة، لم تكن مسئولة، كيف صدقْتُ لحظة أنها تعني ما تقوله لي؟ حاولْتُ دائمًا بذل أقصى ما أستطيع لأكون أمًّا جيدة لها»، وسوف تتاح لنا فرصة لتذكر هذه الجملة الأخيرة.

تحدث هذه المراحل الثلاث في تطور فكرة الذهان لدى أفراد الأسرة بشكلٍ شائعٍ جدًّا. طيب – سيئ – مجنون. واكتشاف الطريقة التي ينظر بها الناس في عالم المريضة إلى سلوكها مهم بقدر أهمية وجود تاريخ لسلوكها. وأحاول أن أوضح هذا بشكلٍ محددٍ فيما يلي،

لكنني في هذه المرحلة أود أن أقدم ملاحظة مهمة بشأن قصة هذه الفتاة كما أخبرني بها والداها.

لم يقمعا الحقائق أو يحاولا التضليل، حرص الوالدان على تقديم المساعدة، ولم يتعمَّدا عمومًا حجب معلومات عن حقائق فعلية. كان المهم هو طريقة استبعاد الحقائق، أو بالأحرى طريقة تجاهل الآثار المحتملة الواضحة في الحقائق أو رفضها. من الأفضل أن نقدم وصفًا موجزًا لحياة هذه الفتاة بالبدء بتجميع الأحداث مما قاله الوالدان. أقدم روايتي بكلمات الأم غالبًا.

المرحلة الأولى: طفلة طبيعية طيبة:

لم تكن جولي طفلة لحوحًا قطٌّ، فُطِمتْ دون صعوبة. لم تهتم أمها بها منذ اليوم الذي خلعت فيه الحفاضات تمامًا وعمرها خمسة عشر شهرًا، لم تكن «مشكلة» قطٌّ، كانت تفعل دائمًا ما يُطلَب منها.

هذه هي التعميمات الأساسية التي قدَّمتها الأم لدعم وجهة النظر بأن جولي كانت طفلة «طيبة» دائمًا.

الآن، هذا هو وصف الطفلة التي لم تعش قطٌّ بطريقة ما: لأن الطفلة الحية حقًّا لحوح، ومشكلة، ولا تفعل ما يقال لها على أي حالٍ. ربما أيضًا لا تكون الطفلة «مثالية» كما تود الأم أن تصدق، ولكن المهم جدًّا أن هذه «الطيبة» مجرد مثالٍ تقدِّمه مسز إكس لمعنى الكمال في طفلة. ربما لم تكن هذه الطفلة «مثالية» بهذه الصورة، ربما للحفاظ على ذلك اندفعت الأم ببعض القلق خشية أن ألومها بطريقة ما. يبدو

أن الشيء الحاسم بالنسبة إليَّ أن مسز إكس تعتبر بوضوحٍ أن تلك الأشياء، التي أعتبرها تعبيرات عن موت داخلي في الطفلة، تعبِّر عن قمة الطيبة والصحة والطبيعية. وبالتالي، لا تتمثَّل النقطة المهمة، إذا كنَّا لا نفكر فقط في المريضة مجردة من عائلتها، لكن بالأحرى في مجمل نظام العلاقات الأسرية، الذي كانت جولي جزءًا منه، لا تتمثَّل في أن أمها وأباها وعمَّتها يصفون جميعًا طفلة ميتة وجوديًا، لكن لا أحد من الراشدين في عالمها يعرف الفرق بين الحياة الوجودية والموت الوجودي، على العكس، يحظى الموت الوجودي بأسمى ثناء منهم.

لنفكر في كل عبارة مما ذكرناه من عبارات الأم بالترتيب:

١ – **لم تكن جولي طفلة لحوحًا قطٌّ.** لم تبكِ قطٌّ لإطعامها. لم ترضع بقوة قطٌّ. لم تنهِ زجاجة قطٌّ. كانت «متبرمة وعصبية» دائمًا، لم يزد وزنها بسرعة كبيرة. «لم ترغب قطٌّ في أي شيء، لكني كنت أشعر أنها لم ترضَ قطٌّ».

لدينا هنا وصفٌ لطفلة لم يعرف جوعها الشفهي وشرهها أي تعبير عنهما قطٌّ. بدلًا من التعبير الصحي القوي عن الغريزة في رضاعة تتسم بالحيوية والبكاء والنشاط، وإفراغ الزجاجة، يتبعها نومٌ كافٍ ومقنعٌ، كانت قلقة باستمرارٍ، وبدت جائعة، ومع ذلك، حين تقدَّم لها الزجاجة، تمتص برفقٍ، ولم تشبع قطٌّ. من المغري محاولة إعادة بناء هذه الخبرات المبكرة من وجهة نظر الرضيعة، لكنني هنا أود أن أقتصر فقط على الحقائق التي يمكن ملاحظتها كما تتذكرها الأم بعد أكثر من عشرين عامًا، وأن أشيد تفسيراتنا منها وحدها.

كما ذكرنا من قبل، وأعتقد أنها نقطة مهمة عند التفكير في العوامل المسبِّبة للأمراض، إن أحد أهم جوانب هذه الرواية ليس ببساطة أننا نحصل على صورة طفلة، مهما كانت حية جسديًّا، لم تعد حية وجوديًّا، لكن الأم أساءت حتى الآن فهم الموقف حتى إنها لا تزال تبتهج بتذكُّر تلك الجوانب من سلوك الطفلة التي كانت الأكثر مواتًا. الأم لا تفزع من أن الطفلة لم تبكِ «بإلحاحٍ» ولم تنهِ الزجاجة. لم تشعر بأن عدم قيام جولي بذلك فشلٌ مشؤومٌ للدوافع الغريزية الشفهية الأساسية في إيجاد التعبير والإشباع لكنها اعتبرته مجرد رمز «للطيبة».

كرَّرتْ مسز إكس تأكيد أن جولي لم تكن طفلة «لحوحًا»، وهذا لا يعني أنها لم تكن هي نفسها كريمة. إنها، في الواقع، «وهبت حياتها» لجولي، بتعبيرها. وكما نرى، كانت أخت جولي طفلة لحوحًا وجشعة؛ لم يكن لدى أمها أملٌ كبيرٌ فيها: «تركتها تمضي في طريقها». ومع ذلك، كان مجرد حقيقة أن جولي منذ البداية لم تكن لحوحًا قطٌّ بدا عمومًا أنها شجعت أمها على منحها الكثير، وقد فعلت. وبالتالي كان أمرًا فظيعًا بالنسبة إليها حين بدأت جولي، في سن المراهقة، اتهام أمها **بعدم السماح لها أن تتحقق أبدًا**، بدلًا من إظهار بعض الامتنان لكل ما قامت به من أجلها وكل ما منحته لها. وهكذا، على الرغم من أنه يبدو لي أنه من المحتمل جدًّا، بسبب بعض العوامل الوراثية، فإن هذه الطفلة ولدت بتكوين تشكل بحيث لا تتحقق الحاجة الغريزية وإشباع الحاجة بسهولة، بعبارة عامة، بالإضافة إلى حقيقة أن جميع الآخرين في عالمها اعتبروا هذه المزية بالذات رمزًا للطيبة وختمت بالموافقة

على غياب الفعل الذاتي. يمكن ملاحظة أن اتحاد الفشل التام للطفلة تقريبًا في تحقيق الإشباع الذاتي الفطري، إلى جانب فشل الأم التام في إدراك ذلك، أحد المواضيع المتكررة في البدايات المبكرة لعلاقة الأم بالابن الفصامي، وهناك حاجة إلى مزيدٍ من البحث لتحديد مدى دقة هذا الاتحاد.

٢- **فُطِمت دون صعوبة**. في الرضاعة يكون الطفل لأول مرة حيًّا بنشاطٍ مع شخصٍ آخر. بحلول وقت الفطام، يمكن توقُّع أن يكون الطفل العادي قد طوَّر إحساسًا بنفسه ككائن في حد ذاته، له «طريقته»، وإحساسًا بديمومة الأم باعتبارها نموذجًا أوليًّا للآخر، وعلى أساس هذه الإنجاز، يحدث الفطام من دون صعوبة كبيرة. يفترض أن الطفل في هذه المرحلة يلعب «ألعاب الفطام» التي يسقط فيها، على سبيل المثال، شخشيخة، لتعود إليه؛ يسقطها مرة أخرى، لتعود؛ يسقطها، وهكذا، إلى ما لا نهاية. يبدو أن الطفل هنا يلعب بشيء يبعد ويعود، ويبعد ويعود، وهي المسألة المركزية للفطام في الواقع. بالإضافة إلى ذلك، يجب أن تُلعَب اللعبة بطريقته بحيث يكون التواطؤ معه للحفاظ على الانطباع بأنه يتحكم «طبيعيًّا». في الحالة التي قدمها فرويد، أبقى الطفل الصغير بكرة الخيط متصلة به حين رماها بعيدًا، مقابل أنه لم يستطع السيطرة على أمه بارتباطه «بخيوط المريلة». الآن، إذا كانت هذه الفتاة، كما استنتجنا، في الأشهر الأولى، لا تحقق الاستقلالية التي تعد شرطًا أساسيًّا للقدرة على أن تسير في طريقها، ليكون لها رأيها، فليس من المستغرب أن تفطم دون صعوبة، على ما يبدو، على الرغم من أنه يصعب تسميته فطامًا حين

يتخلى الرضيع عن شيء لم يمتلكه قطُّ. في الواقع، يمكن للمرء بالكاد أن يتحدث عن حدوث أي فطام في حالة جولي. سارت الأمور بسلاسة في هذا الوقت لدرجة أن أمها لم تتذكر إلا القليل جدًّا من الأحداث الفعلية. ومع ذلك، تذكرت أنها لعبت لعبة «الرمي» مع المريضة. لعبت أخت جولي الكبرى النسخة المعتادة من هذه اللعبة وأثارت غضب مسز إكس بسببها. «تأكدْتُ من أنها (جولي) لن تلعب هذه اللعبة معي. رميت الأشياء بعيدًا وكانت تعيدها إليَّ» بمجرد أن تمكنت من الزحف.

ليس من الضروري التعليق على الآثار المترتبة على انعكاس الأدوار في فشل جولي في أن تطور أي طرق حقيقية خاصة بها.

قيل إنها مشت مبكرًا (أكثر من عام بقليلٍ)، وكانت تصرخ إذا لم تتمكَّن من الوصول إلى أمها عبر الغرفة بسرعة كافية. كان لا بُدَّ من إعادة ترتيب الأثاث لأن «جولي كانت تخاف من أي كرسي يكون بيني وبينها». فسَّرت أمها هذا بأنه رمزٌ لمدى حب ابنتها لها دائمًا. حتى بلغت الثالثة أو الرابعة، «كانت تُجَنُّ تقريبًا» إذا بعدت أمها عن عينيها لحظة.

يبدو أن هذا يؤكد الاقتراح بأنها لم تُفطَم قطُّ لأنها لم تصل قطُّ إلى مرحلة يمكن أن يحدث فيها فطامٌ، يتجاوز المعنى الجسدي. ونظرًا لأنها لم ترسخ قطُّ وجودًا ذاتيًّا مستقلًّا، لم تستطع البدء في التعامل مع قضايا الوجود والغياب لتحقيق القدرة على التواجد بمفردها، لاكتشاف أن الوجود المادي لشخصٍ آخر لم يكن ضروريًّا لوجودها، بصرف النظر عن مدى إحباط احتياجاتها أو رغباتها. إذا احتاج الفرد إلى شخص آخر

ليحقق نفسه، فإن ذلك يفترض فشلًا كاملًا في تحقيق الاستقلال الذاتي، أي الانخراط في الحياة من موقع أنطولوجي غير آمن أساسًا. لا يمكن أن تحقق جولي نفسها في حضور أمها ولا في غيابها. بقدر ما تتذكر أمها، لم تبتعد جسديًا بالفعل عن سمع جولي حتى أكملت الثالثة تقريبًا.

٣- **كانت نظيفة منذ خلعت الحفاضات وعمرها خمسة عشر شهرًا.** قد يلاحظ المرء في هذه النقطة أنه ليس من غير المعتاد أن نجد لدى مرضى الفصام تطورًا مبكرًا للتحكم الجسدي رغم عدم معرفة كيفية مقارنتهم بالآخرين في هذا الصدد. وكثيرًا ما يخبرنا آباء مرضى الفصام بمدى فخرهم بأطفالهم لأنهم زحفوا ومشوا، وتحكموا في التبرز والتبول، وتحدثوا، وكفُّوا عن البكاء، إلخ، مبكرًا. ومع ذلك، على المرء أن يسأل، عند التفكير في الاقتران بين ما يفخر الوالد بقوله عن الطفل وما حقَّقه الطفل، إلى أي مدى يعتبر سلوك الرضيع تعبيرًا عن إرادته. السؤال ليس عن مدى طيبة الطفل أو شقاوته، ولكن عمَّا إذا كان الطفل يطور إحساسًا بأنه أصل أفعاله، أو أنه المصدر الذي تنشأ منه أفعاله: أو ما إذا كان الطفل يشعر بأن أفعاله لا تتولد من داخل نفسه، بل من داخل الأم، على الرغم من إمكانية تقديم كل مظهر يدل على أنه فاعل أفعاله (راجع ذلك الشخص الذي يخضع في التنويم المغناطيسي للأوامر **ليتظاهر** بالاستقلالية). يمكن أن يتقن الجسم مهاراته وبالتالي يفعل كل ما هو متوقع منه، ومع ذلك، يبدو أن الفعل الذاتي الحقيقي لم يرسخ قطٌّ بأي قدرٍ، وبدلًا من ذلك، تكون كل الأفعال في حالة امتثال وتوافق كلي تقريبًا مع التوجيهات الخارجية. في حالة جولي، يبدو أن أمها درَّبتها

على أفعالها، لكنها لم توجد فيها. لا بُدَّ أن هذا هو ما قصدتْه بقولها إنها لم تصبح شخصًا قطٌّ، وفي تكرارها المستمر بأنها مريضة فصام مزمن، كانت «جرسًا bell رنانًا» (أو «قالت حسناء belle»). بعبارة أخرى، كانت هي فقط ما قيل لها أن تفعله.

٤ - **كانت تفعل دائمًا ما يُطلَب منها.** كما أشرنا من قبل بشأن قول الحقيقة والكذب، للطاعة أسبابٌ وجيهة، لكن عدم القدرة على العصيان ليست من أفضل الأسباب. حتى الآن، في رواية مسز إكس، لا يمكن للمرء أن يرى أن الأم أدركت في جولي أي احتمالات إلا أنها ما تسميه جولي نفسها «حسناء». لقد «أعطت حياتها» للجرس الرنان، لكنها أنكرت تمامًا، وما زالت بعد خمسة وعشرين عامًا، احتمال أن تكون هذه الفتاة الصغيرة الطيبة، المطيعة، النظيفة، التي أحبَّتها حتى إنها كانت تجن تقريبًا حين تنفصل عنها ولو بكرسي، وتتحجر إلى «شيء»، مروع جدًّا - لتصبح شخصًا.

٥ - **لم تكن «مشكلة» قطٌّ.** يتضح الآن أن هذه المريضة منذ تخطَّت الأشهر الأولى من حياتها كانت من دون استقلالية. لم تكن تطور قطٌّ، بقدر ما يمكن الحكم عليه مما تتذكره أمها، طرقًا خاصة. لم تجد الاحتياجات والإشباع الغريزي أي تعبيرٍ من خلال قنوات النشاط الجسدي.

الإشباع الحقيقي نتيجة الرغبة الحقيقية في الثدي الحقيقي لم يحدث أولًا. نظرت أمها إلى عواقب ذلك بالقدر نفسه من الاستحسان الذي نظرت به إلى تجلياته الأولى.

«لم تأخذ كعكًا قطُّ، كان عليك فقط أن تقول: » كفي يا جولي»، ولن تعترض».

لاحظنا من قبل استحالة التعبير عن هذه الكراهية إلا بالامتثال لنظام الذات الزائفة. أثنت أمها على طاعتها، لكن جولي بدأت تتحمَّل طاعتها حتى أصبحت «مستحيلة». وهكذا، كان لديها تعويذة، وهي في العاشرة تقريبًا، حين كان لا بُدَّ أن تعرف كل ما يحدث على مدار اليوم وما عليها أن تفعله. كل يوم يجب أن يبدأ بمثل هذا الكتالوج. إذا رفضت أمها الامتثال لهذه الطقوس تبدأ في التذمُّر. لا شيء يمكن أن يوقف هذا النحيب، طبقًا لكلام أمها، إلا ضربة مدوية. حين كبرت، لم تستخدم أيَّ أموال حصلت عليها لنفسها. حتى كانت تُشجَّع على قول ما تريد أو شراء فستان بنفسها أو أن يكون لها أصدقاء مثل الفتيات الأخريات، لا تعبر عن رغباتها، كانت تجعل أمها تشتري ملابسها، ولم تظهر أي مبادرة لتكوين صداقات، لم تتخذ قرارًا من أي نوعٍ.

إلى جانب النشيج المذكور من قبل، كانت هناك عدة مناسبات أخرى في الطفولة أزعجتها فيها جولي. كانت تعاني من نوبة في السنوات من الخامسة إلى السابعة، نوبة من العض والتمزيق بأظافرها، منذ البدايات الأولى للكلام، كانت تميل إلى قلب الكلمات من الخلف إلى الأمام. فجأة، في سن الثامنة، بدأت في الإفراط في تناول الطعام، واستمرت في ذلك عدة أشهر قبل أن تعود إلى طريقتها المعتادة في تناول الطعام.

ومع ذلك، حذفت أمها أشياء باعتبارها مراحل انتقالية. لكننا نجد فيها لمحاتٍ مفاجئة لعالمٍ داخلي من التدمير العنيف مع وصولٍ يائسٍ عابرٍ إلى جشعٍ واضحٍ سرعان ما يُكبَح ويغمر مرة أخرى مع ذلك.

II- المرحلة «السيئة»:

من سن الخامسة عشـرة، تغيَّر سلوكها، وبعد أن كانت فتاة «طيبة»، صارت «سيئة». في هذا الوقت أيضًا، بدأ موقف أمها يتغيَّر تجاهها. بينما كانت تعتقد، في السابق، أن من الصواب والملائم أن تكون جولي معها قدر الإمكان، بدأت الآن تحثُّها على الخروج أكثر وعقد صداقات والذهاب إلى السينما وحتى الرقص، وعلى أن يكون لها صديق. ورفضت تنفيذ كل هذه الأشياء «بعنادٍ». وبدلًا من ذلك، كانت تجلس ولا تفعل شيئًا، أو تتجوَّل في الشوارع، ولا تخبر أمها بموعد عودتها أبدًا. بقيت غرفتها غير مرتبة تمامًا. واصلت الاعتزاز بدمية وقد شعرت أمها أنه ينبغي لها أن تكون قد «كبرت على مثل هذه الأشياء» الآن. وهناك فرصة للعودة إلى هذه الدمية لاحقًا. كانت خطب جولي اللاذعة ضد أمها لا تنتهي، وكانت دائمًا في الموضوع نفسه: تتهم أمها بأنها لم تكن تريدها، ولم تسمح لها بأن تكون لها شخصية، ولم تسمح لها بالتنفس قطُّ، وخنقتْها. كانت تتحدث مثل جندي. ومع ذلك، كان من الممكن أن تكون ساحرة بالنسبة إلى الآخرين، حين تريد.

لم نتناول حتى الآن إلا علاقة جولي مع أمها، ولكن علينا الآن، قبل أن نذهب إلى أبعد من ذلك، أن نقول كلمة واحدة عن الأسرة كلها.

في السنوات الأخيرة، طُرِح مفهوم الأم «المسببة للفصام». لحسن الحظ، بدأت خاصية «مطاردة الساحرات» المبكرة حول هذا المفهوم تتلاشى. يمكن صياغة هذا المفهوم بطرقٍ مختلفة إلى حدٍّ ما، ويمكن ذكره بالكلمات التالية: قد تكون هناك بعض الطرق تجعلك أمًّا تعوق أي نزعة فطرية محددة وراثيًّا قد تكون موجودة في الطفل بدل أن تسهلها أو «تعزِّزها» باتجاه تحقيق مراحل النمو الأولية للأمان الأنطولوجي. ليس فقط الأم، ولكن الوضع الأسري كله قد يعيق أيضًا قدرة الطفل على المشاركة في عالم حقيقي مشترك، باعتباره ذاتًا مع آخر، بدل أن يسهلها.

وتتمثَّل أطروحة هذه الدراسة في أن الفصام نتيجة محتملة لصعوبة أكبر من المعتاد في أن يكون المرء شخصًا كاملًا مع الآخر، ومن دون مشاركة طريقة الحس المشترك (أي الحس المجتمعي) في الشعور بنفسه في العالم. إن عالم الطفل، مثل عالم الراشدين، هو «وحدة المعطى والبناء» (هيجل)، وحدة من أجل الطفل فيما يتوسط فيه الأبوان، والأم في المقام الأول، وما يفعله به. تقوم الأم والأب بتبسيط العالم للطفل الصغير إلى حدٍّ كبيرٍ، ومع نمو قدرته على الفهم، وتزويد الفوضى بالنمط، وفهم الفروق والصلات التي تزداد تعقيدًا، لذلك، كما يقول بوبر، يتم توجيهه للخارج إلى «عالم ممكن».

لكن ماذا يمكن أن يحدث إذا كانت خطة الأم أو الأسرة للأمور لا تتطابق مع ما يمكن للطفل أن يعيشه ويستنشقه؟ يجب على الطفل إذن أن يطور رؤيته الثاقبة، وأن يكون قادرًا على العيش بذلك - كما نجح

وليم بليك في القيام به، وكما نجح رامبو في التصـريح به، ولكن ليس في الحياة - وإلا صار مجنونًا. من روابط الحب المبكرة مع الأم يطور الطفل بدايات كيانه بنفسه. وبهذه الروابط ومن خلالها، «تتوسط» الأم بين العالم والطفل في المقام الأول. قد يكون العالم الذي يُمنح له هو العالم الذي يمكن أن يكون فيه. من الممكن، على العكس من ذلك، أن يكون ما يُمنح له غير مناسب له في ذلك الوقت. ومع ذلك، وعلى الرغم من أهمية السنة الأولى من الحياة، قد تظل طبيعة البيئة، التي يجب أن يعيش فيها الطفل طول فترات الرضاعة والطفولة والمراهقة، ذات تأثيرٍ كبيرٍ بطريقة أو أخرى. في هذه المراحل اللاحقة، قد يلعب الأب أو غيره من الراشدين المهمين دورًا حاسمًا في حياة الطفل، سواء في علاقة مباشرة مع الطفل أو، بشكلٍ غير مباشر، من خلال التأثيرات على الأم.

تشير هذه الاعتبارات إلى أنه قد يكون من الأفضل للمرء التفكير في العائلات المسبِّبة للفصام، بدلًا من التفكير في الأمهات المسبِّبات للفصام بشكلٍ حصـريٍّ جدًّا. على الأقل، قد يؤدي القيام بذلك إلى تشجيع المزيد من التقارير عن ديناميكيات الأسرة ككل، بدلًا من دراسات عن الأمهات أو الآباء أو الأشقاء، من دون إشارة كافية إلى ديناميكيات الأسرة كلها.(١)

كانت أخت جولي، التي تكبرها بثلاث سنوات، امرأة متزوجة حازمة إلى حدٍّ ما، ومع ذلك، لا تخلو من الأنوثة والسحر. وطبقًا

(١) See particularly Laing and Esterson (1964).

لكلام أمها، كانت «صعبة» منذ ولادتها: لحوحًا وتمثِّل «مشكلة» دائمًا. باختصارٍ، يبدو أنها كانت طفلة «طبيعية» نسبيًّا لم تستحسنها أمها كثيرًا، لكن يبدو أنهما كانتا معًا على ما يرام بما يكفي. اعتبرت الأخت أمها شخصية مسيطرة إلى حدٍّ ما إذا لم يقف أحدٌ في وجهها. لكنها «فعلت كلَّ شيء من أجل جولي، وكانت جولي دائمًا المفضَّلة لديها». كان من الواضح تمامًا أن هذه الأخت قد حقَّقت وضع الحكم الذاتي المتكامل مبكرًا. إذا اهتم المرء بالنظر بدقة في شخصيتها، فإنه يجد فيها عناصر عصابية كثيرة، ولكن لا شك، على ما يبدو، في أنها حققت على الأقل الوضع الأنطولوجي الأساسي الذي لم تصل إليه جولي قطُّ. وهي طفلة، كان لها أصدقاء من عمرها، وكانوا كبارًا جدًّا بالنسبة إلى جولي، ويبدو أن جولي لم تقترب منها. ومع ذلك، قامت جولي بتضمين مخططها للأشباح أختًا كبيرة كانت واحدة من عدد قليل من الشخصيات الطيبة غالبًا في «عالمها»، «أخت الرحمة».

ومن الواضح أن الأب كان يلعب دورًا أكثر أهمية. في عيني أمها، كان «وحشًا جنسيًّا»، وفي عينيه كانت أمها باردة وغير متعاطفة. لم يتحدثا معًا إلا فيما كان ضروريًّا تمامًا. وقد وجد إشباعًا جنسيًّا في مكانٍ آخر. وعلى الرغم من أن كلًّا منهما كان لديه اتهامات كثيرة ضد الآخر، فإن أيًّا منهما لم يضمن هذه الاتهامات أي مزاعم بشأن إساءة معاملة ابنتهما. في الواقع، لم يكن لدى الأب، كما قال، الكثير مما يخبرني به، لأنه «انسحب عاطفيًّا» من العائلة قبل ولادة جولي.

حدثتني أخت المريضة عن حادثتين، ولا بُدَّ من أن أهميتهما كانت كبيرة بالنسبة إلى جولي. ربما كانت أمها لا تعرف شيئًا عن الأولى، والثانية لم تجرؤ على أن تخبرني بها. ونعود إلى الحادثة الثانية لاحقًا. حدثت الأولى وجولي في الرابعة عشـرة أو الخامسة عشـرة من عمرها. على الرغم من بُعد أبيها عنها وتعذُّر الوصول إليه نسبيًّا، بدت جولي مولعة به. كان يأخذها من حينٍ لآخر في نزهة على الأقدام. في إحدى المرات، عادت جولي إلى البيت من هذه النزهة وهي تبكي، لم تخبر أمها بما حدث قطُّ. ذكرت أمها هذا لي لتقول إنها كانت متأكدة من أن شيئًا فظيعًا حدث بين جولي وزوجها لكنها لم تكتشف طبيعته قطُّ. بعد ذلك، تنقطع علاقة جولي بأبيها، لكنها أخبرت أختها في ذلك الوقت أن أباها أخذها إلى تليفون عمومي وسمعت محادثة «مروعة» بينه وبين عشيقته.

لم تتردد مسز إكس في الإساءة إلى زوجها أمام بنتيها، وبتكديس حالات الظلم التي لا حصـر لها حاولت دفعهما في صفها. ومع ذلك، اتخذت الأخت الكبرى طريقًا وسطًا، ويبدو أن جولي لم تتواطأ قطُّ مع أمها علانية ضد أبيها: بعد حادثة التليفون العمومي، قاطعته ببساطة لكنها لم تقدم معلومات لصالح أمها. لكن الأب انسحب، كما قال، من الأسرة. ولم يوجِّه اتهامات إلى زوجته أمام بنتيه، لأنه لم يكن يحتاج إلى دعمهما ضدها. وعلى الرغم من أنه اعتبرها زوجة عديمة الفائدة فإنها بتعبيره «لكي أكون منصفًا معها، كانت أمًّا طيبة، يجب أن أعترف بذلك». رأت الأخت الكبرى عيوبًا في الجانبين لكنها حاولت قدر

الإمكان أن تكون عقلانية ومتوازنة، وألا تنحاز إلى جانبٍ على حساب الآخر. ولكنها كانت تنحاز، إذا اضطرت، إلى أمها ضد أبيها، وتقف بجانب أمها ضد جولي. ولم يكن من غير المعقول أن تفعل ذلك. كانت اتهامات جولي ضد أمها، من وجهة نظر منطقية وواقعية، وحشية وفانتازية من البداية. لا بُدَّ أنها بدت منذ البداية جنونية إلى حدٍّ ما. بدا «الصـراخ والهذيان» بشأن التعرض للاختناق وعدم السماح لها بالعيش والتحول إلى شخص بالنسبة إلى عائلة عادية تتمتع بالحس العام بلا معنى على الإطلاق. قالت إن أمها لم تكن تريدها قطُّ، ومع ذلك كانت المفضَّلة، فعلت أمها كل شيء لها وأعطتها كل شيء. قالت إن أمها كانت تخنقها، ومع ذلك كانت أمها تحثها على النضج. قالت إن أمها لا تريدها أن تصبح شخصًا، لكن أمها كانت تحثها على تكوين صداقات، والذهاب إلى الرقص، إلخ.

ومن اللافت أنه على الرغم من الاضطراب الجذري للعلاقة بين الزوج والزوجة، فإنهما حافظا على التواطؤ من ناحية على الأقل. قَبِل الاثنان الذات الزائفة للمريضة باعتبارها طيبة ورفضا كل جوانبها الأخرى باعتبارها سيئة. ولكن في المرحلة «السيئة»، ربما تكون النتيجة الطبيعية لذلك أكثر أهمية. لم يرفضا فقط جولي باعتبارها سيئة باستثناء الظل اللامع الذي لا حياة له والذي بدا في أعينهما كأنه لشخص حقيقي، لكنهما رفضا تمامًا «أخذ أي لوم وجَّهته جولي ضدهما على محمل الجد».

كانت جولي وأمها في هذا الوقت يائستين. جولي في ذهانها تسمي نفسها مسز تايلور. ماذا يعني هذا؟ هذا يعني «أنا تفصيل خياط».[1] «أنا خادمة تفصيل؛ صُنِعتُ وأُطعِمت وأُلبِستُ وفُصِّلت». هذه العبارات ذهانية، ليس لأنها قد لا تكون «صحيحة» ولكن لأنها مشفرة: من المستحيل فهمها غالبًا من دون أن تفك المريضة تشفيرها لنا. ومع ذلك، حتى لو كانت عبارة ذهانية، فإنها تبدو وجهة نظر مقنعة للغاية وتقدم باختصارٍ جوهرَ اللوم الذي وجَّهته إلى أمها وهي في الخامسة عشـرة والسادسة عشـرة. كان هذا «الصـراخ والهذيان» هو «سوؤها». ما أشعر أنه كان أكثر العوامل المسببة للفصام في هذا الوقت لم يكن ببساطة هجوم جولي على أمها، أو حتى الهجوم المضاد لأمها، بل الغياب التام لأي شخصٍ في عالمها يمكنه أن يرى أو سوف يرى بعض المنطق في وجهة نظرها سواء كان صحيحًا أو خطأً. لأسبابٍ مختلفة، لم يستطع أبوها ولا أختها رؤية أي صدق لموقف جولي من النزاع. مثل مريضة مجموعتنا (ص ٦١)، لم تكن تقاتل لكسب نزاع، بل للحفاظ على وجودها: بطريقة ما، لم تكن جولي تحاول ببساطة الحفاظ على وجودها، بل كانت تحاول تحقيق الوجود. ويمكن أن نرى، على ما أعتقد، أن جولي، وهي في الخامسة عشـرة أو السادسة عشـرة، لم تستطع أن تطور ما يمكن أن نسميه «قدرة الحس العام». لم يمنح «لها» الحسُّ الأسري أيَّ وجود. كان على أمها أن تكون محقة، محقة تمامًا.

(١) تلعب المريضة على كلمة تايلور Taylor، وكلمة تفصيل tailor-made (المترجم).

حين قالت أمها إنها سيئة، شعرت جولي أن الكلمة تشبه القتل، كان هذا نفيًا لأي وجهة نظر مستقلة من جانبها. كانت أمها على استعداد لقبول الذات الزائفة المطيعة، وحب هذا الظل، ومنحها أي شيء. حتى إنها حاولت أن تأمر هذا الظل بالتصرف كأنه شخصٌ. لكنها لم تدرك قطٌّ الوجود الحقيقي المزعج في عالم الابنة بإمكانياتها الخاصة. كانت الحقيقة الوجودية في هذاءات جولي هي أن إمكانياتها الحقيقية خُنِقتْ وشُنِقتْ وقُتِلتْ. شعرت جولي، لتوجد، لتكون قادرة على التنفس، أن أمها يجب أن تعترف أنها يمكن أن تكون مخطئة في بعض الأشياء، ويمكن أن تكون قد ارتكبت أخطاء، وأن هناك شعورًا بأن ما قالته ابنتها يمكن أن يكون صحيحًا وله قيمة. وبأسلوبي، يمكن أن أقول إن جولي بحاجة إلى السماح لها بإسقاط جزء من ذاتها السيئة على أمها، والسماح لها بأخذ بعض الطيبة من أمها، وليس مجرد أن تُمنَح لها طول الوقت. ولكن، بالنسبة إلى العائلة كلها، كانت جولي تحاول إثبات أن الأبيض أسود. الواقع لم يثمر. بدأت في تحويل الحقيقة الوجودية إلى وقائع مادية. صارت تهذي. إذا كانت قد بدأت باتهام أمها بأنها لم تدعها تعيش قطٌّ، بمعنى وجودي، فقد انتهت بالحديث والتصرف إلى حدٍّ كبيرٍ كأن أمها قتلت بالفعل، بالمعنى القانوني، طفلًا حقيقيًّا، وكان من الواضح تمامًا أن هذا يمثِّل ارتياحًا للعائلة لأنه كان يمكنهم أن يشفقوا عليها، ولم يعد عليهم أن يدافعوا عن أنفسهم بإدانتها. عاملها أبوها وحده، بطريقة غريبة، على أنها شخصٌ مسئولٌ، لم يعترف قطٌّ بأنها مجنونة، كانت بالنسبة إليه شريرة.

لم «تخدعه» لعبتها. كان هذا كله تعبيرًا عن الحقد والجحود. واعتبر ما أطلقنا عليه سلبيتها التخشبية مجرد «انحراف»، وأعراضها الهيبيفرينية سخافة انتقامية. كان الوحيد في العائلة الذي لم يشفق عليها. في بعض زياراته العرضية، كان معروفًا أنه هزَّها وقرصها ولوى ذراعها لحملها على «التوقف».

مكتبة
t.me/soramnqraa

المرحلة الثالثة: الجنون.

كان الاتهام الأساسي لجولي أن أمها تحاول قتلها. وهي في السابعة عشرة، وقع حادثٌ من المحتمل أن يكون السبب الفعال في الانتقال من السوء إلى الجنون.

هذه هي الواقعة الثانية التي أخبرتني بها الأخت. حتى السابعة عشرة، كان لدى جولي دمية، كانت هذه الدمية لديها منذ الطفولة المبكرة. كانت تلبسها وتكسوها، وتلعب بها في غرفتها، ولا أحد يعرف تمامًا بأي طريقة، كانت مقاطعة سرية في حياتها. كانت تسميها جولي دُوْل. كان إصرار أمها على أن تتخلى عن هذه الدمية يزداد تدريجيًّا، لأنها صارت فتاة كبيرة. ذات يوم اختفت الدمية، لم يُعرف قطُّ إن كانت جولي قد تخلَّصت منها، أو إن كانت أمها قد أخفتها. اتهمت جولي أمَّها. أنكرت أمها أنها فعلت أي شيء للدمية، وقالت لا بُدَّ من أن جولي فقدت الدمية بنفسها. بعد ذلك بوقتٍ قصيرٍ، قال صوتٌ لجولي إن أمها ضربت طفلة ترتدي ملابسها ضربًا مبرحًا، واعتزمت الذهاب إلى الشرطة للإبلاغ عن هذه الجريمة.

قلْتُ إن جولي أو أمها تخلصت من الدمية لأنه يبدو من المحتمل جدًّا أن تكون «أمها» بالنسبة إلى جولي في هذه المرحلة مدمرة نمطية

أكثر من أمها الحقيقية في الخارج. حين قالت جولي إن أمها قتلت الدمية، من المحتمل تمامًا أن تكون قد فعلت ذلك، أي أن أمها «الداخلية» فعلته. وفي الواقع كان العمل، بصرف النظر عن كيفية حدوثه، كارثيًّا؛ من الواضح أن جولي كانت متماهية بقوة مع الدمية. في لعبها بالدمية، كانت الدمية هي نفسها وكانت هي الأم. من الممكن الآن أنها صارت في لعبتها بالتدريج الأم السيئة التي قتلت الدمية في النهاية. ونرى لاحقًا أن الأم «السيئة» في ذهانها تصرفت وتحدثت من خلالها إلى حدٍّ بعيدٍ. إذا كانت أمها الفعلية دمرت الدمية، واعترفت بذلك، ربما كان الحدث أقل كارثية. اعتمد ما تبقَّى من عقل في جولي في هذه المرحلة على إمكانية أن تكون قادرة على تقديم بعض الأشياء السيئة في أمها الفعلية. وكانت استحالة القيام بذلك، بطريقة عاقلة، أحد العوامل التي ساهمت في الإصابة بذهانٍ فصامي.

شبح حديقة الأشباح

... في مرحلة ما، قد تجد الآلة، وقد جمعت من قبل بطريقة شاملة، ارتباطاتها مقسمة إلى مجموعات جزئية بدرجة ما من الاستقلال.

نوربرت وينر: **استخدام الإنسان للبشر**[1]

(١) وينر Wiener (١٨٩٤-١٩٦٤): عالم رياضيات وفيلسوف أمريكي، نشر كتاب **استخدام الإنسان للبشر** *The Human Use of Human Beings* عام ١٩٥٠ (المترجم).

تنطبق الملاحظات التالية على جولي وعلى غيرها من مرضى الفصام المزمن من النوع الهيبيفريني التخشبي. ولا نقصد أن تشمل جميعَ أشكال حالات الذهان المزمن حيث يتضح تمامًا الانقسام بشكلٍ أو بآخر. إنها، بشكلٍ خاص، أقل قابلية للتطبيق على حالات ذهان البارانويا حيث يكون تكامل الشخصية، بشكلٍ ما، أكبر بكثيرٍ من مما في جولي وأمثالها.

تشظَّتْ ذات جولي للغاية لدرجة أن من الأفضل وصفها بأنها تعيش **وجودًا يشبه الموت في الحياة في حالة تقترب من اللا وجود المشوش.**

في حالة جولي، لم يكن التشوش وانعدام الهوية كاملين. لكن بالتواجد معها شعرْتُ لفترات طويلة بهذا الشعور «المبكر»[1] الخارق الذي وصفه الإكلينيكيون الألمان، أي شعور المرء بأنه يوجد في إنسان آخر وشعوره، مع ذلك، بأن لا أحد هناك. حتى حين يشعر المرء أن ما يقال تعبيرٌ عن شخصٍ ما، فإن شظية الذات التي وراء الكلمات أو الأفعال لم تكن جولي. قد يكون هناك شخصٌ يخاطبنا، ولكن عند الاستماع إلى مريض الفصام، من الصعب جدًّا معرفة «من» يتحدث، ومن الصعب أيضًا معرفة «من» يخاطب.

---

(١) من مصطلح الخرف المبكر praecox الذي استخدم من قبل للإشارة إلى ما نسميه الآن عمومًا شكلًا من أشكال الفصام يحدث عند الشباب، وكان يُعتقد أنه يستمر ليصبح في النهاية ذهانًا مزمنًا. أعتقد أن هذا «الشعور المبكر» يجب أن يكون استجابة الجمهور لأوفيليا حين أصبحت مريضة ذهان. إنها إكلينيكيًّا مريضة فصام في النهاية بلا شك. في جنونها، لا أحد هناك، ليست شخصًا، لا توجد ذات متكاملة تعبر عنها بأفعالها أو أقوالها. قال العدم عبارات غير مفهومة. ماتت بالفعل. لا يوجد الآن إلا فراغ حيث كان يوجد شخصٌ ذات يومٍ.

بالاستماع إلى جولي، بدا الأمر غالبًا كأن المرء يقوم بعلاجٍ نفسي جماعي مع مريضة واحدة. وهكذا واجهت ثرثرة أو مزيجًا من المواقف المتباينة تمامًا، والمشاعر، وتعبيرات عن الاندفاع. تغيرت طبيعة نبرات المريضة وإيماءاتها وسلوكياتها من لحظة إلى أخرى. قد يبدأ المرء في التعرف على شذرات من الكلام، أو أجزاء من السلوك التي تظهر في أوقات مختلفة، ويبدو أنها تتلازم نتيجة أوجه التشابه في النبرة، والمفردات، وبناء الجملة، والانشغال بالنطق، أو تتلاحم كسلوكٍ نتيجة بعض الإيماءات النمطية أو السلوكيات المعتادة. وبالتالي بدا أن المرء كان في وجود شظايا مختلفة، أو عناصر غير كاملة، من «شخصيات» مختلفة تعمل في وقتٍ واحدٍ. يبدو أن «سلطة كلامها»(١) كانت نتيجة عدد من الأنظمة الجزئية شبه المستقلة التي تسعى جاهدة للتعبير عن نفسها من الفم نفسه في الوقت نفسه.

يتعزز هذا الانطباع، مع أنه ليس أقل إرباكًا، بحقيقة أن جولي بدت كأنها تتحدث عن نفسها بصيغة المتكلم أو المخاطب أو الغائب. يحتاج المرء إلى معرفة وثيقة بالمريض الفرد قبل أن يكون في وضعٍ يسمح له بقول أي شيء عن أهمية أمر من هذا النوع (ويصح هذا في جميع الجوانب الأخرى للنشاط الفصامي).

تعاني جانيت من تفكك متباين أو انقسام إلى انقسامات مولية molar وانقسامات جزيئية. انقسام الشخصية الهستيرية انقسام مولي.

---

(١) سلطة الكلام word-salad: وصف للكلام حين يكون مفككًا تمامًا (كلمة من الشرق وكلمة من الغرب) وغير مفهوم تمامًا، ويحدث عادة في بعض حالات الذهان المزمن (المترجم).

ويتكون الفصام من انقسام جزيئي. في حالة جولي، بدا أن الانقسامين موجودان. انقسمت الوحدة الكلية لكيانها إلى عدة «مجموعات جزئية» أو «أنظمة جزئية» ("مركبات»، «كائنات داخلية» شبه مستقلة)، لكل منها «شخصية» نمطية صغيرة (انقسام مولي). بالإضافة إلى ذلك، تشظى أي تسلسل فعلي للسلوك بطريقة أكثر دقة (انقسام جزيئي). حتى سلامة الكلمات، على سبيل المثال، تمزقت.

وبالتالي ليس من المستغرب أن نتحدث عن «استحالة الفهم» و"الشعور المبكر» في مثل هذه الحالة. مع جولي، لم يكن من الصعب إجراء حوار لفظي من نوعٍ ما، لكن من دون أن يبدو أن لديها أي وحدة شاملة باستثناء كوكبة من الأنظمة الجزئية شبه المستقلة، وكان من الصعب التحدث إليها. ومع ذلك، يجب على المرء ألا يفكر في المقام الأول من منظور أي تشابه ميكانيكي لأن حتى حالة اللا وجود شبه المشوش لم تكن بحالٍ من الأحوال غير قابلة للإصلاح ولم تكن ثابتة في تفككها. كانت تجتمع معًا أحيانًا بشكلٍ رائعٍ مرة أخرى، وتكشف عن إدراكٍ مثيرٍ للشفقة لمحنتها. لكنها كانت مرعوبة من لحظات الاندماج هذه لأسبابٍ مختلفة. من بين أسباب أخرى، لأنها اضطرَّت إلى تحمُّل القلق الشديد في أثنائها، ولأن عملية التفكك بدت كأنها في الذاكرة ومفزعة باعتبارها خبرة فظيعة لدرجة وجود ملاذٍ لها في تفككها وعدم واقعيتها ومواتها.

وهكذا كانت جولي بوصفها مريضة فصام مزمن تتميز بالافتقار إلى الوحدة وبالانقسام إلى ما يمكن تسميته بشكلٍ مختلفٍ «بالتجمعات»

الجزئية أو المجمعات أو الأنظمة الجزئية أو «الأشياء الداخلية». كان لكل نظامٍ من هذه الأنظمة الجزئية مزايا مميزة وطرق مميزة خاصة به. باتباع هذه الفرضيات، يمكن تفسير الكثير من سمات سلوكها.

حقيقة أن ذاتها لم تجمع بطريقة شاملة، لكنها قُسِّمتْ إلى مجموعات أو أنظمة جزئية مختلفة، تسمح لنا بفهم أن مختلف الوظائف التي تفترض تحقيق الوحدة الشخصية أو على الأقل درجة عالية من الوحدة الشخصية لا يمكن أن توجد فيها، ولم توجد حقًّا.

الوحدة الشخصية شرطٌ أساسي للإدراك التأمُّلي، أي القدرة على إدراك تصرف ذات المرء من دون الانشغال بالذات نسبيًّا، أو بإدراك أساسي بسيط غير تأملي. في جولي، يمكن أن يدرك كل نظام جزئي الأمور، لكنه قد لا يدرك العمليات الجارية في نظام آخر انفصل عنه. على سبيل المثال، إذا كان أحد الأنظمة، عند التحدث إليَّ، «يتحدث»، لا يبدو أن هناك وحدة شاملة داخلها حيث يمكن «لها» بصفتها شخصًا موحدًا أن تدرك ما يقوله هذا النظام أو يفعله.

وبقدر ما كان الإدراك التأملي غائبًا، كانت «الذاكرة»، التي يبدو أن الإدراك التأملي شرطٌ أساسي لها، مرقعة جدًّا. بدت حياتها كلها معاصرة. إن غياب خبرة كاملة بوجودها ككل يعني أنها تفتقر إلى الخبرة الموحدة التي تستند إليها فكرة واضحة عن «حدود» كيانها. ومع ذلك، فإن مثل هذه «الحدود» **الشاملة** لم تُفقَدْ تمامًا. وبالتالي فإن مصطلح فيدرن، حدود الأنا، غير كافٍ. يحتاج المرء إلى مصطلحٍ آخر للكل الذي تشكِّل الأنا جزءًا منه. بالأحرى، **بدا أن لكل نظام حدوده الخاصة**.

وهذا يعني، بالنسبة إلى الإدراك الذي يميز نظامًا ما، أن نظامًا آخر كان عرضة للظهور خارج نفسه. وإذا كان جانب مختلف من كيانها، في إطار الوحدة الشاملة، «متوترًا» بدرجة كافية بالنسبة إلى البقية، يمكن أن يؤدي إلى صراعٍ مؤلمٍ. ومع ذلك، لا يمكن، في حالتها، أن ينشأ صراعٌ من هذا النوع. «من الخارج» فقط كان يمكن للمرء أن يرى أن أنظمة متضاربة مختلفة لكيانها نشطة في وقتٍ واحدٍ. وبدا أن كل نظام جزئي داخله بؤرة إدراكه أو مركز إدراكه: كانت له مخططات ذاكرة محدودة للغاية وطرق محدودة لهيكلة ما يدركه؛ دوافعه شبه المستقلة أو دوافعه المركبة، ميله للحفاظ على استقلاليته، والأخطار الخاصة التي تهدد استقلاليته. وكانت تشير إلى هذه الجوانب المتنوعة بضمير «هو»، أو «هي»، أو تخاطبها بضمير «أنت». أي، بدل أن يكون لديها إدراكٌ تأمُّلي لتلك الجوانب الخاصة بنفسها، تدرك «هي» تشغيل نظام جزئي كأنه ليس «هي»، بل ينتمي إلى الخارج. قد تهلوس.

ومع الميل إلى إدراك جوانب من كيانها باعتبارها لا تنتمي إليها، يحدث الفشل في التمييز بين ما لم يكن ينتمي إليها «بشكلٍ موضوعي» وما ينتمي إليها. وهذا ببساطة الجانب الآخر من عدم وجود حدود أنطولوجية شاملة. قد تشعر مثلًا أن المطر على خدها دموع.

يصف وليم بليك في وصفه لحالات الانقسام في **كتبه النبوية** الميل إلى أن **يصبح المرء ما يدركه**. في جولي بدا أن أي إدراك يهدد الكائن بالارتباك. أمضت الكثير من وقتها في تدريب نفسها على هذه الصعوبة. «هذا مطر. يمكن أن أكون مطرًا». «هذا كرسي... هذا جدار.

يمكن أن أكون هذا الجدار. أمر فظيع أن تكون الفتاة جدارًا». يبدو أن كل تصور يهدد الاندماج وكل شعور بأن الآخر يدركها كان يهددها بشكلٍ مماثلٍ. وهذا يعني أنها كانت تعيش في عالمٍ من الاضطهاد المستمر، وتشعر أنها تفعل للآخرين ما تخشى حدوثه لها. يبدو أن كل فعلٍ من أفعال الإدراك تقريبًا ينطوي على ارتباكٍ بين الذات واللا ذات. أُعِدَّت الأرضية لهذا الارتباك بحقيقة أنه نظرًا لأن جوانب ضخمة من شخصها كانت خارج «ذاتها» جزئيًّا، كان من السهل الخلط بين تلك الجوانب المنفصلة لوجودها وأشخاص آخرين، على سبيل المثال. ارتباكها بشأنها «ضميرها» مع أمها، وأمها مع «ضميرها».

لذلك كان الحب في غاية الخطورة. أن تحب = أن تكون مثلي = أن تكون أنا. إذا كانت تحبني، فهي مثلي، فهي أنا. وهكذا بدأت بالقول إنها كانت أختي، زوجتي، كانت مكبرايد McBride. كنْتُ الحياة. كانت **عروس الحياة** Bride of Life. طورتْ سلوكياتي المعتادة. كانت **شجرة الحياة** داخلها. كانت هي **شجرة الحياة**. أو مرة أخرى:

إنها تفكر في الأفكار أ، ب، ج.

أعبر عن أفكار متشابهة من كتب أ[1]، ب[1]، ج[1].

وبالتالي سرقْتُ أفكارها.

كان التعبير الذهاني تمامًا عن هذا هو اتهامي بوضع عقلها في رأسي.

على العكس، حين تحاكيني أو تقلدني، كانت عرضة لتوقع عقاب مني «لكشف» جزءٍ ضئيلٍ مني شعرتْ أنها سرقته. بالطبع، كانت درجة الاندماج تتأرجح بين لحظة وأخرى. السرقة، على سبيل المثال، تفترض وجود حدودٍ بين الذات واللا ذات.

نوضح الآن النقاط المذكورة أعلاه ونفصِّلها بأمثلة.

يُرى أحد أبسط الأمثلة على عملية انقسام كيانها إلى «مجموعتين» جزئيتين حين تصدر لنفسها أمرًا وتشرع في طاعته. كانت تفعل هذا باستمرارٍ، سواء في سرها، أو بصوتٍ عالٍ، أو بالهلوسات. وهكذا قد تقول «هي»، «اجلسي، قفي»، وقد تجلس «هي» وتقف، أو يصدر صوت هلوسة، صوت أحد الأنظمة الجزئية، تصرف نظام جزئي آخر، الأمر وقد تطيعه «هي».

ثمة مثالٌ آخر شائعٌ حين تقول «هي» شيئًا تستقبله «هي» بضحكة ساخرة (التناقض بين التفكير والوجدان). لنفترض أن العبارة تنبثق من النظام A والضحك من النظام B. ثم تقول A لي، «إنها ملكة»، بينما تضحك B بسخرية.

استمرَّ قدرٌ كبيرٌ مما بدا أنه شيء يشبه «التشويش». قد تقول A شيئًا متماسكًا نسبيًّا ثم يصبح مختلطًا وتبدأ B في التحدث. وقد تقتحم A مرة أخرى لتقول: «إنها (B) سرقت لساني». يمكن تحديد هذه الأنظمة الجزئية المختلفة، على الأقل إلى حدٍّ ما بعد التعرف عليها، نتيجة تناسق الدور الذي لعبه كلُّ نظامٍ فيما قد نسميه «المجموعة» الشخصية الداخلية التي تتألف منها.

على سبيل المثال، كان هناك المتنمر الحاسم الذي يأمرها دائمًا. يقدم الصوت الحاسم نفسه لي شكاوى لا نهاية لها بشأن «هذه الطفلة": «هذه طفلة شريرة، هذه الطفلة زمن ضائع، هذه الطفلة مجرد داعرة رخيصة، وأنت لن تفعل أي شيء مع هذه الطفلة. . . ». قد تشير كلمة «أنت» هنا مباشرة إليَّ، أو إلى أحد أنظمتها، أو يمكن أن أكون تجسيدًا لهذا النظام.

كان من الواضح أن هذا الشخص المتنمر داخلها كان «الريس» معظم الوقت. لم تفكر «هي» في جولي كثيرًا، لم تعتقد «هي» أن جولي ستتحسن، أو أنها تستحق التحسن. لم تكن في جانبها ولا في جانبي. سيكون من المناسب أن نسمي هذا النظام الجزئي شبه المستقل «الأم الداخلية السيئة». كانت في الأساس مضطهِدة داخلية احتوت بشكلٍ مكثفٍ كلَّ السوء الذي نسبته جولي إلى أمها.

يمكن التعرف بسهولة على نظامين جزئيين آخرين. استوفى أحدهما دور المدافع نيابة عنها بالنسبة إليَّ، والحامي من الاضطهاد أو العازل له. كثيرًا ما أشارت «هي» إلى جولي بصفتها أختها الصغيرة. وبالتالي قد نشير، فينومينولوجيًّا، إلى هذا النظام بأنه «أختها الطيبة».

كان النظام الجزئي الثالث الذي أقدمه لفتاة صغيرة طيبة تمامًا ومطيعة وقادرة على إرضاء الآخرين. ويبدو أنه مشتقٌّ مما كان قبل بضع سنوات على الأرجح نظامًا مشابهًا جدًّا لنظام الذات الزائفة الذي وصفْتُه في حالات شبه فصامية. حين تحدث هذا النظام، قالت: «أنا فتاة طيبة؛ أذهب إلى المرحاض بانتظامٍ».

وكانت هناك أيضًا اشتقاقات لما بدا أنها الذات «الداخلية»، التي تطايرت كلها تقريبًا إلى إمكانية محضة. وأخيرًا، كما أشرت من قبل، كانت هناك فترات من العقل المؤقت تحدثت فيها بنبرة رعب مثيرة للشفقة مسموعة بالكاد، لكنها بدت كأنها تتحدث «بشخصها» أكثر من أي وقتٍ آخر.

دعونا الآن نفكر في هذه الأنظمة المختلفة التي تعمل معًا. الأمثلة التي أقدمها من أكثر أقوالها تماسكًا.

> ولدتُ تحت شمس سوداء. لم أولد، سُحِقْتُ. إنه ليس أمرًا من الأمور التي تتغلب عليها بهذه الطريقة. لم تدللني أم، خُنِقْتُ.[1] لم تكن أمًّا. أنا صعبة الإرضاء بالنسبة إلى أم. كفى. كفى. إنها تقتلني. إنها تقطع لساني. أنا فاسدة، حقيرة. أنا شريرة. أنا زمن ضائع ...

الآن، في ضوء المناقشة السابقة، أقدم التفسير التالي لما **يحدث**.

بدأتْ بالتحدث معي بشخصها بتوجيه الاتهامات نفسها ضد أمها كما استمرت توجهها لسنوات. ولكن بطريقة واضحة وجلية جدًّا. يبدو أن «الشمس السوداء»[2] رمزٌ لأمها المدمرة. كانت صورة تتكرر كثيرًا. نطقت الجمل الست الأولى بشكلٍ سليمٍ. وفجأة يبدو أنها تعرضت لهجومٍ مرعبٍ، على الأرجح من هذه الأم السيئة. إنها تنفجر في أزمة

---

(١) تدللني أم mothered، خُنِقْتُ smothered: تلعب المريضة على الجناس بين الكلمتين (المترجم).

(٢) الشمس السوداء: بالإنجليزية في الأصل ثم باللاتينية بين قوسين (*sol niger*) (المترجم).

شخصية. كفى، كفى. وتخاطبني بإيجازٍ مرة أخرى صائحة: «إنها تقتلني». ثم يتبع ذلك تشويه دفاعي لنفسها، مصاغٌ بالكلمات نفسها التي تدينها بها أمها السيئة لها، «أنا فاسدة، حقيرة. أنا شريرة. أنا زمن ضائع...».

كانت الاتهامات الموجهة ضد أمها عرضة دائمًا لإحداث تفاعلات كارثية من هذا النوع. وفي مناسبة لاحقة، وجَّهت اتهاماتها المعتادة ضد أمها، وقاطعتها الأم السيئة باتهاماتها المعتادة ضد «هذه الطفلة»: «هذه الطفلة سيئة، هذه الطفلة شريرة، هذه الطفلة زمن ضائع». قاطعْتُ هذه الملاحظات لأقول: «جولي تخشى أن تقتل نفسها بسبب النطق بهذه الأشياء». لم يستمر التهجم، لكنها قالت بهدوءٍ شديدٍ: «نعم، ضميري يقتلني. كنت خائفة من أمي طول حياتي وسأظل كذلك. هل تعتقد أنني يمكن أن أعيش؟» يوضح هذا التعبير المتكامل نسبيًّا ما تبقى من **ارتباك- انصهار** *con-fusion* «ضميرها» وأمها الحقيقية. كان ضميرها السيئ أمًّا سيئة مضطهِدة. كما ذكرنا من قبل، ربما كان أحد العناصر المسببة للفصام في حياتها أنها لم تستطع إقناع أمها الحقيقية بقبول حاجتها إلى إسقاط جزء من ضميرها السيئ عليها. أي أن تعترف أمها حقًّا بصحة بعض اتهامات جولي لها، وبالتالي، السماح لها برؤية بعض العيوب في أمها، لتخفيف بعض الاضطهاد الداخلي الصادر من «ضميرها».

هذه الطفلة لا تريد أن تأتي إلى هنا، هل تدرك ذلك؟ إنها أختي الصغيرة. لا تعرف هذه الطفلة أشياء لا يجب أن تعرفها.

هنا تتحدث «أختها الكبيرة»، موضحة لي أن جولي بريئة وجاهلة وغير مسئولة وبالتالي لا تُلام. نظام «الأخت الكبيرة»، على عكس نظام «الأخت الصغيرة» البريئة والجاهلة، كان «شخصًا» مطلعًا ومسئولًا للغاية، ومتسامحًا إلى حدٍّ ما على الرغم من أنه لطيفٌ ويقدم الحماية. ومع ذلك، ف «هي» ليست بجانب الأخت الصغيرة جولي، وهي تكبر وتتحدث دائمًا باسم «الأخت الصغيرة». إنها ترغب في الحفاظ على الوضع الراهن.

> عقل هذه الطفلة متصدعٌ. عقل هذه الطفلة مغلقٌ. أنت تحاول فتح عقل هذه الطفلة. لن أسامحك أبدًا على محاولتك فتح عقل هذه الطفلة. هذه الطفلة ميتة وليست ميتة.

المعنى الضمني لهذه الجملة الأخيرة أنها، ببقائها ميتة بمعنى ما، لا يمكن أن تكون ميتة بمعنى ما، ولكن إذا تحمَّلت مسئولية وجودها حية «حقًّا»، فقد تُقتَل «حقًّا».

ومع ذلك، يمكن لهذه «الأخت» أن تتحدث بهذه الطريقة أيضًا:

> عليك أن تريد هذه الطفلة. عليك أن ترحب بها ... عليك أن تعتني بهذه الفتاة. أنا فتاة طيبة. إنها أختي الصغيرة. عليك أن تأخذها إلى الحمام. إنها أختي الصغيرة. إنها لا تعرف شيئًا عن هذه الأشياء. هذه ليست طفلة مستحيلة.

تضمنت هذه الأخت الكبيرة الخبرة والمعرفة والمسئولية والمعقولية، على عكس براءة الأخت الصغيرة وجهلها وعدم مسئوليتها وتمردها. نرى هنا أيضًا أن فصام جولي يتألَّف من افتقارٍ تامٍّ إلى الاندماج،

وليس فقط من غياب موضع في «عقلها». يمكن لعنصر «الأخت الكبيرة» في كيانها أن يتحدث بطريقة معقولة وعقلانية ومتوازنة، لكن **جولي** لم تكن هي التي تتحدث؛ كان عقلها، إذا أردت، منفصلًا ومغلقًا. لم يعتمد عقلها الحقيقي على قدرتها على التحدث بصدقٍ في شخص «الأخت الكبيرة» ولكن في تحقيق التكامل التام لكيانها الكلي. يتضح الفصام بإشارتها إلى نفسها كطرفٍ ثالثٍ، وفي التطفل المفاجئ للأخت الصغيرة في أثناء تحدث الأخت الكبيرة («أنا فتاة طيبة»).

وحين كانت تقدم لي كلماتٍ أو أفعالًا على أنها كلماتها أو أفعالها، كانت هذه «الذات» التي تُقدَّم على هذا النحو ذهانية تمامًا. ويبدو أن معظم العبارات المكثفة الخفية حقًّا تنتمي إلى بقايا نظامها الذاتي. عند فك الشفرة، كشفت أن هذا النظام ربما كان مشتقًا من الذات الداخلية الفانتازية التي وصفناها في الحالات العاقلة شبه الفصامية.

حاولنا بالفعل تقديم رواية لكيفية حدوث خبرة هذه الذات التي تنطوي على مثل هذه المفارقات الشديدة من القدرة الفانتازية المطلقة/ العجز إلخ، في الوقت نفسه. تبدو الخصائص الفينومينولوجية لخبرة هذه الذات في جولي متماثلة من حيث المبدأ. ومع ذلك، يجب أن يكون المرء على استعدادٍ لإعادة صياغة فصامها في كلامٍ عاقلٍ قبل أن يتمكن من محاولة تقديم تفسير فينومينولوجي لخبرة هذه الذات. ويجب أن أوضح مرة أخرى أنني عند استخدام مصطلح «الذات» في هذا السياق، لا أقصد أن أعني أنها ذاتها «الحقيقية». ومع ذلك، بدا أن هذا النظام يشكِّل نقطة تجمع كان يمكن للتكامل أن يحدث حولها.

وحين حدث التفكك بدا أنه «المركز» الذي لا يستطيع الصمود. بدا أنه مرجعٌ مركزي للميول التي تنجذب إلى المركز أو تنفر منه. وتبين أنه النواة المجنونة حقًّا لكيانها، جانبها المركزي الذي يجب، على ما يبدو، أن يظل فوضويًا وميتًا خشية أن تُقتَل.

ونحاول وصف طبيعة هذه «الذات» بالعبارات الصادرة ليس فقط عن هذه «الذات» مباشرة ولكن أيضًا بالعبارات التي يبدو أنها نشأت في أنظمة أخرى. لا توجد هذه العبارات بكثرة، على الأقل بواسطة «الذات» في الشخص إذا جاز التعبير. خلال السنوات التي أمضتها في المستشفى، ربما انطلق الكثير منها معًا لإنتاج عبارات تلغرافية قصيرة متكررة باستمرارٍ تحتوي على ثروة هائلة من المضامين. وكما رأينا من قبل، قالت إن **شجرة الحياة** داخلها. كان تفاح هذه الشجرة ثدييها، كان لديها عشر حلمات (أصابعها). كان لديها «كل عظام لواء من مشاة المرتفعات الخفيفة».[1] كان لديها كل ما يمكن أن تفكر فيه، أي شيء تريده، كانت تملكه ولم تكن تملكه، على الفور، في الوقت ذاته. لم يلقِ الواقع بظلاله أو نوره على أي رغبة أو خوفٍ. كل أمنية قوبلت بتحقيقٍ شبحي لحظي، وكلُّ فزعٍ بالمثل مرَّ على الفور بطريقة شبحية. وهكذا يمكن أن تكون أي شخصٍ في أي مكانٍ وفي أي وقتٍ. أنا ريتا هيوارث، اسمي جوان بلونديل. أنا ملكة. اسمي الملكي جوليان». قالت لي «إنها مكتفية ذاتيًا، إنها ممسوسة ذاتيًا». لكن هذا المس الذاتي ذو حدين. كان

(١) مشاة المرتفعات الخفيفة Highland Light Infantry: فوج مشاة خفيف تابع للجيش البريطاني تم تشكيله في عام ١٨٨١. وقد شاركت في الحربين العالميتين الأولى والثانية (المترجم).

له أيضًا جانبه المظلم. كانت فتاة «ممسوسة» بشبح كيانها. لا تتمتع ذاتها بحرية أو استقلالية أو قوة في العالم الحقيقي نظرًا لأنها كانت أي شخص تهتم بذكره، لم تكن **أحدًا**. أنا بالآلاف. أنا مقسمة فيكم جميعًا. أنا لست غير un» (أي راهبة nun: اسم: لا شخص واحد). لكونها راهبة معانٍ كثيرة جدًّا. كان أحدها متناقضًا مع كونها عروسًا. كانت تعتبرني عادةً مثل أخيها وتطلق على نفسها اسم عروستي أو عروسة «الحياة الصادقة الحيوية الجميلة». بالطبع، بما أن الحياة كانت أحيانًا متطابقة بالنسبة إليها، فقد كانت خائفة من الحياة، أو مني. كانت الحياة (أنا) تهرسها لتصبح عجينة، وتحرق قلبها بمكواة حمراء ملتهبة، وتقطع ساقيها ويديها ولسانها وثدييها. تصورت الحياة بأشد العبارات التي يمكن تخيلها عنفًا وتدميرًا. لم يكن الأمر يتعلق بخاصية ما عندي، أو شيئًا ما أمتلكه (على سبيل المثال قضيب = مكواة حمراء ساخنة). كان ما كنت عليه حقًّا. كنْتُ الحياة. على الرغم من وجود **شجرة الحياة** بداخلها، فإنها شعرت عمومًا أنها **مدمرة الحياة**. وبالتالي كان من المفهوم أن تخشى أن تدمرها الحياة. كانت الحياة تُصوَّر عادةً برمزٍ ذكوري أو قضيبي، ولكن ما بدت أنها كانت تتمناه لم يكن مجرد أن تكون ذكرًا هي نفسها، بل أن تمتلك سلاحًا ثقيلًا من المعدات الجنسية للجنسين، وجميع عظام لواء من مشاة المرتفعات الخفيفة وعشرة حلمات، إلخ.

ولدتْ تحت شمس سوداء.

إنها الشمس الغريبة.

نشأت الصورة القديمة والشـريرة جدًّا للشمس السوداء بشكلٍ مستقلٍّ تمامًا عن أي قراءة. تركت جولي المدرسة في الرابعة عشرة، ولم تقرأ إلا القليل جدًّا، ولم تكن حادة الذكاء. من غير المحتمل تمامًا أن تكون قد صادفت أي إشارة إليها، لكننا نتخلى عن مناقشة أصل الرمز ونقتصر على رؤية لغتها باعتبارها تعبيرًا عن الطريقة التي شعرت بها بوجودها في عالمها.

أصرت دائمًا على أن أمها لم تُرِدْها قطُّ، وأنها سحقتها بطريقة وحشية بدل أن تلدها بشكلٍ طبيعي. كانت أمها «تريد ولا تريد» ابنًا. كانت «شمسًا غربية»، أي ابنًا جاء صدفة حولته أمها إلى فتاة بدافع الكراهية. أحرقتها أشعة الشمس السوداء وسحقتها. تحت الشمس السوداء وُجدت مثل شيء ميت. هكذا،

أنا البراري.

وهي مدينة مدمرة.

كانت الوحوش البرية الكائنات الحية الوحيدة في البراري. استوطنت الفئران في المدينة المدمرة. صورت وجودها في هيئة خرابٍ قاحلٍ تمامًا. كان هذا الموت الوجودي، هذا الموت في الحياة هو النمط السائد لوجودها في العالم.

إنها شبح حديقة الأعشاب.

في هذا الموت لا أمل ولا مستقبل ولا إمكانية. حدث كل شيء. لا متعة، ولا مصدر إشباعٍ محتمل أو إشباع محتمل، لأن العالم فارغٌ وميتٌ مثلها.

> الإبريق مكسورٌ والبئر جافة.

كانت بلا معنى على الإطلاق ولا قيمة لها. لم تستطع أن تؤمن بإمكانية الحب في أي مكان.

> ليست إلا واحدة من الفتيات اللائي يعشن في العالم. الكل يتظاهر بأنه يريدها ولا يريدها. أنا فقط أعيش حياة عاهرة رخيصة الآن.

ومع ذلك، كما رأينا من عبارات سابقة، كانت تقدِّر نفسها حتى ولو بطريقة شبحية. كان هناك اعتقاد (على الرغم من أنه معتقدٌ ذهاني، فإنه لا يزال شكلًا من أشكال الإيمان بشـيء له قيمة كبيرة فيها) بأن شيئًا له قيمة كبيرة ضاع بعمقٍ أو مدفون داخلها، ولم تكتشفه هي أو أي شخص آخر. إذا استطاع المرء أن يغوص في عمق الأرض المظلمة فسوف يكتشف «الذهب اللامع»، أو إذا استطاع أن يسبر الأغوار فسوف يكتشف «اللؤلؤة في قاع البحر».

* * *

المراجع

بالإضافة إلى الأعمال المذكورة في النص، نورد هنا المزيد من الأعمال لمزيدٍ من القراءة:

ARIETI, s. (1955). *Interpretation of Schizophrenia*. New York: Brunner.

BATESON, G., JACKSON, D. D., HALEY, J., and WEAKLAND, J. (1956).

'Toward a theory of schizophrenia'. *Behav. Sci.* 1, 251.

BATESON, G. (ed.) (1961). *Percival's Narrative*. Stanford University Press.

BECKETT, s. (1956). *Waiting for Godot*. London: Faber & Faber.

BINSWANGER, L. (1963). *Being-in-the-world*. New York: Basic Books, Inc.

BOSS, M. (1949). *Meaning and Content of Sexual Perversions*. New York: Grune & Stratton.

BOSS, M. (1957). Analysis of Dreams. London: Rider.

BRIERLEY, MARJORIE (1951). *Trends in Psycho-Analysis*. London: Hogarth.

BULTMANN, R. (1955). *Essays Philosophical and Theological.* London: SCM Press.

BULTMANN, R. (1956). *Primitive Christianity in its Contemporary Setting*. London: Thames & Hudson.

BULLARD, D. M. (ed.) (1959). *Psychoanalysis and Psychotherapy. Selected Papers of Frieda Fromm-Reichmann*. Chicago: University of Chicago Press.

BYCHOWSKI, G. (1952). *Psychotherapy of Psychosis*. New York: Grune & Stratton.

DEUTSCH, H. (1942). 'Some forms of emotional disturbances and their relationship to schizophrenia'. *Psychoanal. Quart*. II, 301,

DOOLEY, L. (1941). 'The concept of time in defence of ego integrity'. *Psychiatry* 4,13 .

FAIRBAIRN, w. R. D. (1952). *Psychoanalytic Studies of the Personality*. London: Tavistock.

FAIRBAIRN, w. R. D. (1954). 'Observations on the nature of hysterical states'. *Brit. J. Med. Psychol*. 27, 105.

FARBER, L. H. (1958). 'The therapeutic despair'. Psychiatry 21, 7. FEDERN, p. (1955). *Ego Psychology and the Psychoses*. London:

Imago.

FREUD , s. (1920). *Beyond the Pleasure Principle.* London: Hogarth, 1950, pp. 12-14.

FROMM-REICHMANN, FRIEDA (1952). 'Some aspects of psycho- analysis and schizophrenics'. In REDLICH, F. C. and BRODY, E. R. (eds.), *Psychotherapy with Schizophrenics*. New York: International Universities Press.

GOFFMAN, E. (1961). *Asylums*. New York: Anchor Books.

GUNTRiP, H. (1952). 'A study of Fairbairn's theory of schizoid reactions'. *Brit. J. Med. Psychol.* 25, 86.

HAYWARD, M. L. and TAYLOR, J. E. (1956). 'A schizophrenic patient describes the action of intensive psychotherapy'. *Psychiat. Quart.* 30,211.

HEGEL, G. w. F. (1949). *The Phenomenology of Mind.* Trans. Baillie, J. B. London: Allen & Unwin. 2nd ed. rev.

HEIDEGGER, M. (1949). *Existence and Being*. London: Vision Press.

HEIDEGGER, M. (1962). *Being and Time*. London: SCM Press.

HESSE, H. (1964). *Steppenwolf.* London & New York: Holt, Reinhart, & Winston Edition 122 (J. Mileck & H. Frenz, (eds.) Rev. of trans. by B. Creighton).

HILL, L. B. (1955). *Psychotherapeutic Intervention in Schizophrenia.* Chicago: University of Chicago Press.

JACKSON, D. D. (1957). 'The question of family homeostasis'. *Psychiat. Quart.* (suppt.)31,79.

JACKSON, D. D. (1957). 'A note on the importance of trauma in the genesis of schizophrenia'. *Psychiatry* 20, 181.

KAPLAN , B. (ed.) (1964). *The Inner World of Mental*

Illness. New York: Harper & Row.

KIERKEGAARD , s. (1954). *The Sickness unto Death.* Trans. Lowrie, W. New York: Doubleday.

KLEIN, M. (1946). 'Notes on some schizoid mechanisms'. *Int. J. Psycho- Anal*. 27, 99.

KNIGHT , R. P. (1953). 'Borderline states'. *Bull. Menninger Clinic* 17,1.

KRAEPELIN, E. (1905). *Lectures on Clinical Psychiatry*. 2nd. rev. ed. London: Bailliere, Tindall & Cox.

KUHN, R. (1957). *La Phenomenologie de masque*. Trans. Verdeaux, J. Paris: Desclee de Brouwer.

LAING , R. D. (1961). *The Self and Others*. London: Tavistock.

LAING, R. D. and ESTERSON, A. (1964). *Sanity, Madness and the Family. Vol. I. Families of Schizophrenics*. London: Tavistock.

LAING, R. D. and COOPER, D. G. (1964). *Reason and Violence: A Decade of Sartre's Philosophy*, 1950-1960. London: Tavistock. LIDZ, T. (1958). 'Schizophrenia and the family'. *Psychiatry* 21, 20.

LIDZ,T., CORNELISON, A., TERRY, D., and FLECK, S. (1958). 'The intra-familial environment of the schizophrenic patient: VI The transmission of irrationality'. *A.M.A. Arch. Neur. & Psychiat*. 79, 305.

MACMURRAY, J. (1957). *The Self as Agent*. London: Faber & Faber.

MAY, R., ANGEL, E., and ELLENBERGER, H. F. (eds.) (1958). *Existence - A New Dimension in Psychiatry and*

Psychology. New York: Basic Books.

MERLEAU-PONTY, M. (1962). *The Phenomenology of Perception*. London: Routledge & Kegan Paul.

MERLEAU-PONTY, M. (1963). *The Structure of Behaviour*. Boston: Beacon Press.

MINKOWSKI, E. (1927). *La Schizophrenic* Paris: Desclee de Brouwer, 1953.

MINKOWSKI, E. (1933). *Le Temps vecu*. Paris: Artrey, Coll. de l'evolution psychiatrique.

MINKOWSKI, E. (1948). 'Phenomenologie et analyse existentielle en psychiatrie'. *Evol. Psychiat*. 4, 137.

PERRY, J. w. (1953). *The Self in Psychotic Process - its Symbolization in Schizophrenia*. University of California Press.

REDLICH, F. c, and BRODY, E. R. (eds.) (1952). *Psychotherapy with Schizophrenics*. New York: International Universities Press.

RUMKE, H. c. (1950). 'Signification de la phenomenologie dans l'etude clinique des delirants'. In Congres Internat. de Psychiatrie, *Psychopathologie des delires*. Paris: Hermann. (French, p. 125; English, p. 174.)

SARTRE, J.-P. (1950). *Psychology of Imagination*. London: Rider. SARTRE, J.-P. (1956). *Being and Nothingness*. Trans. Barnes, H. London: Methuen.

SCHREBER, D. p. (1955). *Memoirs of my Nervous Illness*. Trans. Macalpine, I., and Hunter, R. A. London: Dawson.

SCOTT, c. (1949). 'The «body-scheme» in psychotherapy'. *Brit. J. Med. Psychol*. 22,139.

SEARLES, H. F. (1958). 'Positive feelings in the relationships between the schizophrenic and his mother'. *Int. J. Psycho-Anal.* 39, 569.

SECHEHAYE, M. A. (1950). *Autobiography of a Schizophrenic Girl,*

Trans. Rubin-Rabson, G. New York: Grune & Stratton, 1951. SECHEHAYE, M. A. (1951). *Symbolic Realization - a New Method of Psychotherapy Applied to a Case of Schizophrenia.* New York: International Universities Press.

SECHEHAYE, M. A. (1956). *A New Psychotherapy in Schizophrenia,* New York: Grune & Stratton.

SEGAL, H. (1954). 'Schizoid mechanisms underlying phobia formation'. *Int. J. Psycho-Anal.* 35, 238.

SONNEMAN, U. (1954). *Existence and Therapy - an Introduction to Phenomenological Psychology and Existential Analysis.* New York: Grune & Stratton.

SULLIVAN, H. s. (1962). *Schizophrenia as a Human Process.* New York: W. W. Norton & Co.

TILLICH, p. (1944). 'Existential philosophy'. *J. Hist. Ideas* 5, 44. TILLICH, p. (1952). The Courage to Be. London: Nisbet.

TRILLING, L. (1955). *The Opposing Self.* London: Secker & Warburg. WEIGERT, E. (1949). 'Existentialism and its relations to psychotherapy'. *Psychiatry* 12, 399.

WELLEK, A. (1956). 'The phenomenological and experimental approaches to psychology and

characterology'. In David, H. P., and von Bracken, H. (eds.), *Perspectives in Personality* Theory. New York: Basic Books.

WINNICOTT, D. w. (1958). *Collected Papers*. London: Tavistock.

WYNNE, L. C, RYCKOFF, I. M., DAY, J., and HIRSCH, S. (1958). 'Pseudo mutuality in the family relations of schizophrenics'. *Psychiatry* 21, 204.

مكتبة
t.me/soramnqraa

* * *

الذات المنقسمة دراسة وجودية في العقل والجنون

ولِد ر. د. لانج في جلاسجو، في عام 1927 وتخرَّج في كلية الطب جامعة جلاسجو. وهو أحد أشهر الأطباء النفسيين المعاصرين. ويتسع مجال اهتمامه ليمتد بين الطب النفسي والنظريات الاجتماعية وكتابة الشعر، بالإضافة إلى عددٍ هائلٍ من المقالات والمراجعات في المجلات العلمية. صدر كتابُ الذاتُ المنقسمة: دراسة وجودية في العقل، وهو أول كتب لانج، في عام 1960، وهو لا يزال في مقتبل العمر، وقد نجح الكتاب في إثارة الشك حول الكثير من نظريات الطب النفسي وممارساته، وخاصة فيما يتعلق بثنائية العقل والجنون، وكان الكتاب علامة فارقة في تاريخ الطب النفسي. مما جعل ديفيد كوبر يصف لانج بأنه طبيب نفسي مضاد، أي مضاد للنظرة التقليدية السائدة في الطب النفسي. وتصبح ثنائية العقل- الجنونِ التي يتأسَّس عليها الطب النفسي، إلى حدٍّ بعيد، موضعَ شكٍّ، وهي الثنائية التي يناقشها لانج في هذا الكتاب من منظور غير تقليدي. ولم يكن لانج أول العلماء الذين انقلبوا على النموذج السائد في العلوم التي درسوها بغية تطويرها وتوسيع مجال الرؤية فيها، ولن يكون آخرهم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ISBN 978-977-765-340-4
9 789777 653404

آفاق للنشر والتوزيع
AFAQ BOOKS